الغرب والشرق

او

الخيبة الادبية

للسياسة الغربية في الشرق

تاليف احمد رضا بك

رئيس مجلس المبعوثان العثماني سابقا

عني بتعريبه

محمد بورقيبة المحامي

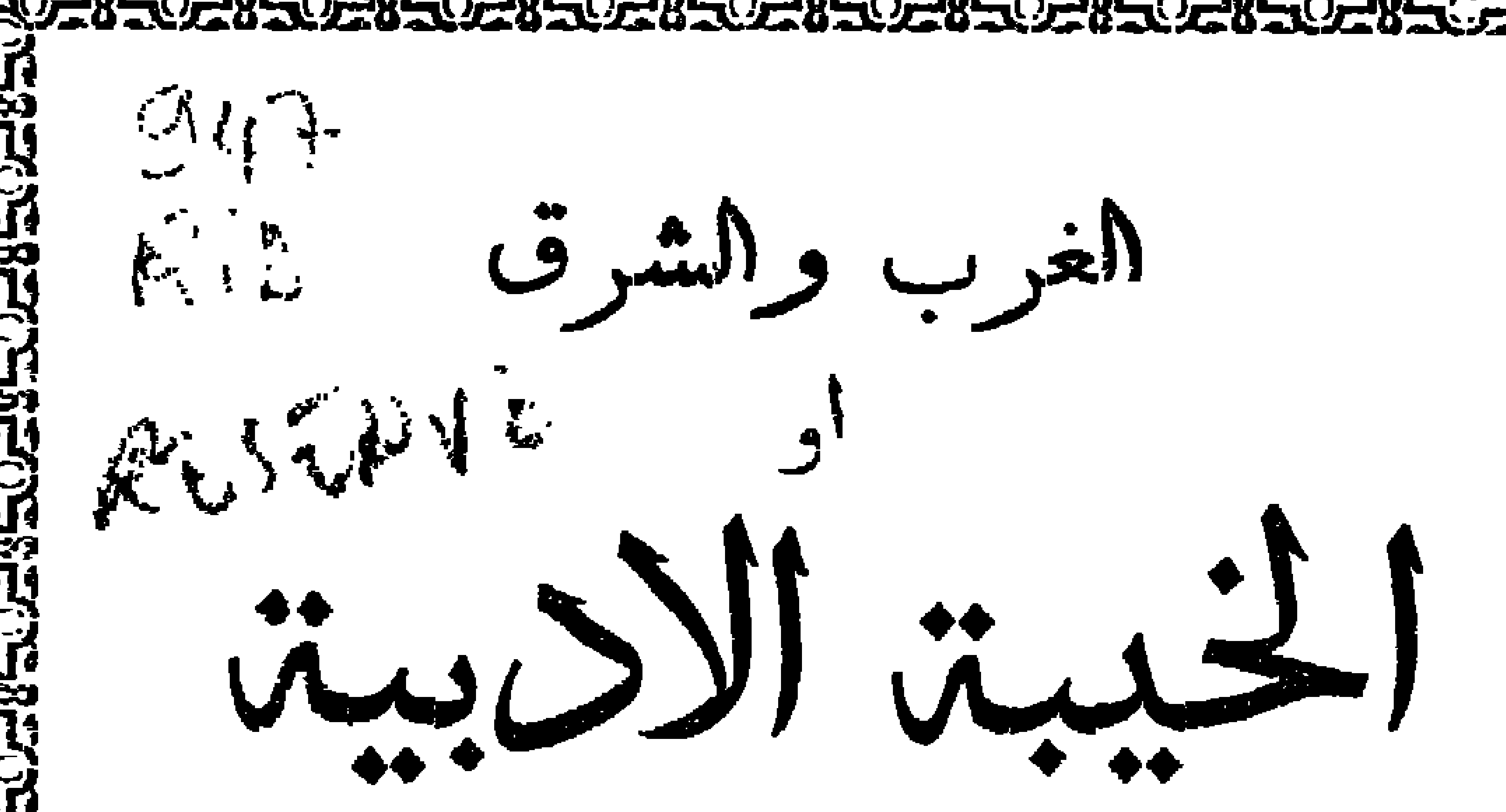
ومحمد صادق ازميرلي

كاتب سر معالي وزير العدلية

مطبعة النهضة - نهج باب سعدون رقم ١٩ تونس

طولعت من مطبعة الأوقاف [illegible] في الوزارة [illegible]

[illegible] غزة ابريل ١٩٥٥



الغرب والشرق

او

الخيبة الادبية

للسياسة الغربية في الشرق

تاليف احمد رضا بك

رئيس مجلس المبعوثان العثماني سابقا

عني بتعريبه

محمد بورقيبة المحامي

ومحمد صادق ازميرلي

كاتب سر معالي وزير العدلية

مطبعة النهضة ـ نهج باب سعدون رقم ١٩ تونس

كلمة لمترجمي الكتاب

احمد رضا بك مؤلف هذا الكتاب هو صاحب جريدة « مشورت » التي كانت تصدر بباريس قبل انقلاب عام ١٩٠٨ ورئيس مجلس النواب ثم مجلس الاعيان بالدولة العلية العثمانية بعد ذلك التاريخ وهو اشهر من ان يعرف ومن ان يحاول قلمنا تسطير ترجمته هنا ولكننا مع ذلك نرانا مقصرين من واجبنا نحو هذا الزعيم الكبير اذا لم نسد له عبارات الاعجاب والامتنان لما قام به من الاعمال الجليلة في سبيل خدمة الشرق والشرقيين

كيف لا وسفره هذا هو ثمرة خبرة شخصية واسعة ودراسة مستفيضة لشئون الكون ومغامز السياسة الغربية على الخصوص ؟ فقد حوى من الحقائق التاريخية ما لاغنى للشرقيين عن معرفته خصوصا من كان منهم بين شك ويقين يترددون وفي اودية من الغفلة والغرور يهيمون

واية فائدة تجتنى اعظم من التي توقف الشرقي وقفة العارف البصير تجاه ذلك المشكل الذي لازال محط انظار وموضوع مناقشات هاته الاقطار ؟ ذلك المشكل الذي ان حله الشرق حلا مرضيا موافقا في آن واحد لكيانه القومي ولسنن الرقي فانما يكون قد حل عقدة من اشد العقد وفتح الطريق لنهوضه وان اخطا في حله يكون قد حكم على نفسه بالجمود القاتل في وقت يسير فيه العالم سيرا حثيثا الى الامام او قل في وقت اصبح فيه كل سكون جريمة كبرى وكل عمل لا يساير وسائل الرقي طعنة نجلاء في كبد الشرق ربما قضت على ما بقي فيه من رمق ضئيل

لذلك راينا من الواجب ان نبدىء ما عن لنا في هذا الموضوع الخطير ملتمسين ممن انتسب للروح الشرقية او عطف عليها ان يتبين راينا ويوءيده ان كان حريا بالتاييد او يعد له بما يراه صوابا

في اعتقادنا ان لا مفر للشرق من الخضوع لسلطان الغرب ما لم يقتبس من الغرب الطرائق والفنون التي ساد بفضلها على غيره من الشعوب

ظهر في الغرب ولا زال يظهر به علماء اجلاء اقاموا العلوم على دعائم متينة تكونت من تجاربهم المتواصلة واختباراتهم المدققة جاعلين العقل رائدهم والزمام الوحيد لاعنة مباحثهم حتى ابرزوا للملاء علوما مجردة عن الاوهام منفصلة عن المكتسبات التقليدية وهي وان كانت قاصرة الطرف عن ادراك الاسرار العلوية الا انها معترفة بقصورها وبان تلك الاسرار تتجاوز الادراك البشري على ان للعلوم المثبتة اليد الطولى في اكتشاف مكنونات هذا العالم وتسخير قوة نواميسه لنفع البشر في هاته الحياة الدنيا وهي التي اكسبت الغربيين تلك القوة الهائلة التي لا مندوحة حتى للمكابر العنيد من الاعتراف بها وبانها بعثت في الاوروبيين روحا ناهية لا تنطفي وعزما لا ينثني يدفعهم دواما واستمرارا الى الامام

ولكن هي المدنية الغربية بمظاهرها الخلابة وجواذبها القاهرة التي تغلبت على مهج الامم العصرية وساقتها في تيارها السريع فلم يعد في مستطاع احد رد سيلها الجارف او الاتقاء من غمراته المخيفة ومع ذلك وبالرغم من علمنا بما يترتب على انقياد الشرق لاحكامها القاسية فلا بد له من الرضوخ كرها لسلطانها اذ ليس له بدون علومها الثابتة واساليبها المجربة خلاص مما يشكو منه اليوم من تاخر وانحطاط

من المسلم ان لنا مدنية نظرة نجلها و نفضلها على سواها الا انها — والحق احق بالاعتراف به — مقامة في زما ننا هذا على قواعد توطيد حق الفرد واهمال حق المجتمع اذ هي توءثر الاستكا نه والاستسلام على التيقض والاقدام وتنتزع من قلوب الجماهير الشجاعة وحب العمل بما تبثه فيها من التعاليـم المخـدرة التي منها ان لا يسا ند الانسان من اذا قال فعل فهي وان فاقت المدنية الغربيـة من الوجهة الادبية والاخلاقية الا انها دون شقيقتها من حيث تحقيق وسائل الحياة المادية هذه كما لا يخفى قوام لتلك — وبعبارة اعم نقول ان المدنية الشرقية ربما حققت لابنائها السعادة والسلام لو كانت وحدها في العالم اما وقد انتصبت لها المدنية الغربية خصما وياله من خصم عنيد فان فشلها محقق لامحالة ما لم تلقح روحا جديدة ماخوذة من الغرب نفسه وهو ما نوءمـل ان يدركـه قادة الافكار عندنا كي يتدبروا في طريقة التوفيق بين حفظ تعاليم الشرق الادبيـة واكتساب علوم واساليب الغرب العمليه على ان التقرب من الغرب الذي نـراه متحتما لكل هاته الاسباب لا يستوجب الاقبال على مدنيته برمتها دون تمييز واختيار والاندماج في حوزتها دون تبصر واختبار وانما الغرض منه اكتساب علومه والسير معه جنبا لجنب في منهج الرقي والعرفان

والخلاصة انه يجب على الشرق مهما كان موقف الغرب ازاءه في الماضي والحاضر الاقتراب منه ومصادقته حتى ينال من علومه ومكتشفا تـه مـا يحفظ له حيا ته المادية والادبيـة

هذه نصيحتنا لابناء الشرق والله الهادي لما فيه الخير والفلاح وهو حسبنـا ونعم الوكيـل .



احمد رضا بك

تمهيد

وضعت لهذا الكتاب اسما لا ينطبق تماما على مسماه ، ضرورة ان السياسة التي طالما سلكتها اوربا مع تركيا لم تكن في وقت من الاوقات خاضعة للاصول الادبية ، بل كان عندها ان الفوز بالغنيمة يبرر لها الوسائط مهما كانت صبغتها وفي عرفها ان القوة هي التي تكون الحق

في جميع العصور كانت المصلحة الدينية والمصلحة المادية هما الباعثان الاصليان لهذه السياسة . فالمصلحتان كانتا في اتفاق دائم تتكيء احداهما على الاخرى ساعيتين سعيا حثيثا وراء تحقيق غاية واحدة

على عهد الحروب الصليبية كانت اوربا رغم حالتها الموحشة اكثر مراعاة للمباديء الادبية مما هي عليه اليوم في اعمالها الرسمية ، ففي جهادها المتواصل لاعلاء شان الصليب على الهلال كانت تسير سير العدو المجاهر لمكافحة عدو لم يخف ايضا عداه

نعم لم تخل تلك العصور من المكر والخداع ، غير ان المكر والخداع لم يتاصلا في النفوس حتى يحلا محل قاعدة اساسية لكل عملية عسكرية

كما اني لا انكر ان المطامع التجارية والطموح الى الاستيلاء تسربت وقتئذ الى داخل قلوب الغربيين متجلية احيانا بجلابيب النزاهة والتقى ولكن من ينكر ان الشرفاء من فرسان الافرنج ـ وبالاخص من بداية القرن الثاني عشر كان يبدو على غالبهم شمم وترفع عن الدنايا وابتعاد لا ينكر عن منازع المصلحة الخصوصية ؟

اما اليوم فقد ضرب على العوامل الدينية بحجاب - ولو انه شفاف - وزال تاثيرها في سياسة الغرب ، فاصبحت المصلحة المادية هي السائدة ، وما هي الا الميل الشديد للاستيلاء على بقاع الأرض والاحراز على القطائع المثمرة وليس للكنيسة او للبابا اليوم سلطان على رجال الدول بل الانقياد كل الانقياد الى « افلاطوس » (١) الذي بيده اعنة المسائل المالية وبامره تسعر نيران الحروب فالبنك هو المعبد الذي يجتمع فيه ارباب سائر المذاهب ليعبدوا « عجل الذهب »

سادت المصلحة المادية بفضل قوة الماليين ، فاصبح السيف خادما للكيس وهو لا يشعر ، وان شئت قلت اصبحت مهمة رجال الحرب في تمهيد السبل لرجال المال

لكن كيفما كانت البواعث الجديدة المحركة للسياسة الغربية في الشرق فان لواعج الحقد وعوامل الثارات التي كانت تحمل الصليبيين على المسلمين لم تضمحل لان ساسة اوروبا لم يتوصلوا بعد لتحرير نفوسهم من ربقة الوهم وباطل الاعتقادات بل لم تزل قلوبهم عليها غشاوة من الحقد والتعصب الديني ولم تزل صدورهم ضيقة حرجة لا تستطيع تحمل الحقيقة ، وهي صفات نشاهدها منهم مرارا وتكرارا

ان التسامح لم يكن قط شعارا قوميا في اوروبا ، ولم يخضع الاوروبي لتعاليمه بصفته فضيلة وطنية لا في المضمار الديني ولا في المضمار السياسي - وفي السياسة الاستعمارية على الاخص ، وانا اقول ليس من التسامح في شيء ان يحمل الانسان اصرا على من لا يشاطره فكره ، وليس من التسامح ايضا اباحة او منع احتفال من الطواف بالشوارع باعتبار كونه مدنيا او دينيا . ولا يعرف للتسامح معنى من يعامل الزنجي بفظاظة وازدراء لكونه اسود اللون ، فان جل الغربيين رغم الطلاء المموه من الحرية الذي اكتسبوه لم يزالوا من حيث الفكر كاسلافهم

---

(١) افلاطوس اله الثراء عند الوثنيين

الصليبين . كما ان البواعث الاصلية التي تحركهم للعمل لم يعترها ادنى تغيير

لقد رأيت من اللازم ان ابسط القول في هذا الكتاب على اسباب الحروب الصليبية لاستنتج منها واظهر للملا انها الينبوع الذي تفجرت منه جميع الاحقاد المتراكمة على الاتراك ، وان القرون التسعة التي مضت عليها لم تات باخماد جمرة تلك الاحقاد المضطرمة في نفوس المسيحيين حتى يغيروا سياستهم نحو الامم الشرقية ولقد صدق الكاتب الاقتصادي الفرنساوي جان باتيست ساي حيث قال « ان حياتنا الادبية وما حوته من المشاعر والاخلاق نستمدها من الاعتقادات والتقاليد التي كانت رائجة في عصور التوحش »

بعد تعرضي لاسباب الحروب الصليبية درست نتائجها . فبينت ان الوسائل التي لجا اليها البابا لارسال تلك الحملات كانت مبنية على التغرير . فانه اثار خواطر المسيحيين واقشى في قلوبهم سموم التعصب والمع في وجوههم سراب الامل الزائف حين غمرهم بالمواعيد الخلابة ، فكانت العاقبة على اوربا ان انقلب سلاحها عليها ، وبعد ان جال في الشرق وجاب رجع الى صدرها ، وما كان من وقعه الا ان زلزل العقائد الدينية واطلق النفوس من ربقة العبودية ،فنشا الارتداد عن الدين والتمرد عن طاعة الملوك

ان الدول العصرية ايضا وبالاخص انكلترا اثارت ثوائر الامم اثناء الحرب الكبرى . فستجني الحنظل وحسك السعدان من جراء سياستها المبنية على حب الاستئثار عند ما تستيقظ الشعوب من سباتها ويهتدي الناس لمعرفة اسباب ونتائج المشاحنات التي استنزفت دماءهم واتلفت اموالهم

لا زال يوجد وراء التمدن العصري اوهام القرون الوسطى ومعتقداتها ، اذ نرى بين معاصرينا رجالا انحط ادراكا واسفه احلاما من اسلافهم . ولي العذر ان قلت ذلك حيث انهم يحملوننا عواقب مآربهم التي سداها التعصب والطمع والاستبداد المريع

ما أسهل الاستدلال على ما تقدم بذكر بعض امثلة مما نشاهده باسبانيا والنمسا تانك المملكتان اللتان تناهيتا في الاعتصام بالكاثوليكية ؛ بيد اني في غنى عن ذكرهما اذ نجد اليوم بفرنسا نفسها عددا لا يستهان به من رجال السياسة ومن بين هؤلاء نفر يدعون وربما يعتقدون انهم ابناء صميمون للثورة الفرنسوية بل ومن الداعداء الكنيسة ـ قد بقيت فيهم لحد الان بقية من معتقدات اسلافهم فهم كاثوليكيون وراثة ، احرار مفكرون بحكم طباعهم متناهون في الديمقراطية عند تسطير خطبهم لا سيما ان كانت لهم مصلحة في استخلاص مرضاة الراي العام . لكن اذا حاولت التوفيق بين اقوالهم واقعالهم تذهب محاولتك هدرا

لا زالت فرنسا وكذلك ايطاليا محافظتين على صبغتهما الكاثوليكية . فان هناك ملايين من الناس وان لا نراهم يعتنون بتادية واجبات دينهم الا انهم متدينون بشريعة الاحساس ، والاحساس لا تزعزعه البراهين فهو اقوى من الايمان في انكلترا وامريكا وقد يظهر المتدينون من الجراءة ما يذهب بهم الى اعلان عدائهم باسم المسيحية ، فيجدون عبارات التنشيط للذين يشقون عصا الطاعة في وجوه الاتراك فقد كان غلادستون من فضيلة هؤلاء المتدينين المتعصبين ، اما في فرنسا فيرى رجال السياسة كفاية في الوقوف عند حد الضرب على اوتار العواطف البشرية لتبرير مساع ما اشبهها بالمساعي الانكليزية

ان موروثاتهم القومية قد ابقت في عقولهم اوهاما قضت عليهم بالعجز عن النظر للحقائق كما هي ، وهي احدى علل غلطاتهم والمظالم التي يقترفونها على الشرق والشرقيين ، ان حر الضمير الذي يدعي خلع ربقة الاديان ليس من يهمل واجبات دينه سواء تكاسلا او تقاعدا منه ، اذ لا اسهل على الانسان من ان يعيش عيشة السوائم لا يدرك قيمة لما يحيط به من النظم الاجتماعية ، فالصعب بل الامر الذي يستدعي بحثا طويلا ودرسا مستفيضا هو وصول المرء قبل

نبذ دينه الى ادراك ما فيه من النقصان . قال الفيلسوف الفرنساوي ديكارت «يجب على العقل ان لا يعتبر من الحقائق الا ما انتجه الواقع بوضوح وجلاء» لكن لم يكن لهذه القاعدة الا الحظ اليسير في تكوين الاعتقادات التي عاقت العقل البشري ضرورة انه لم يتوفق في كل الاوقات الى ادراك سر التامل . فان افراد البشر لم يقبلوا بسهولة الحقائق الجديدة التي ازالت عنها الغشاء العلوم العصرية ، لا سيما الحقائق التي لا تشعر بها الحواس او التي تقضي على كيان المصالح المقررة بحكم العادة . فاذا شاهدت العقل سرع بالتصديق فما اسراعه الا كما قال الفيلسوف الفرنسوي ديدرو « مظهر من مظاهر الضعف العقلي يدفع البشر الى التصديق قبل التمكن من سبر قيمة البراهين » ودليله ان القرون الوسطى كان الناس لا يصدقون الا بما تقبل به الكنيسة و تصادق على صحته ، والا فلا

هذه الضلالات وتلك الاوهام قد تناقلوها من جيل الى جيل حتى ورثها عن الكنيسة رجال السياسة « بالفورين اوفيس » الانكليزي و « الكي دورسي الفرنساوي و « القنصولتا . الايطالية (١) ، غير ان الاوهام الدينية قد حلت محلها الخيالات السياسية . فالخاضعون اليوم لهذه الخيالات يقومون في الضلال بمثل الدور الذي قام به من قبلهم الخاضعون للاوهام الدينية

على اني لا اصدق ايضا باستكمال تربيتهم السياسية ، فان من ينقاد لسياسة خفية الحركات يشد ازرها شرذمات من المتمولين لا يقل دناءة عمن يتخذ من الرهبان اولياء لامره ، فالحرية الفكرية التي يعلنونها في سياستهم كما اعلنوها من قبل في دينهم انما هي ظاهرية اكثر منها حقيقية

و من الوجهة الادبية — وهي النقطة التي نتطرق اليها اهتمامنا في هذا الكتاب — هل يصدق ان يقال ان السواد الاعظم احرز على حرية وحضارة

(١) اسماء الوزارات الخارجية لتلك الدول

اكثر مما كان عليه من ذي قبل ؟ هذا سؤال لا يستطيع الجواب عنه بدقة وتثبت الا هيئة الشرطة التي تعاني اشد المتاعب في صيانة الارواح والارزاق في المدن ، وعلى كل حال ومهما يكن من الجواب فان المجزرة الفظيعة التي دنست شرق اوربا اربع سنوات متواليات لاتبت مقياس تقاس به قيمتها الادبية اليوم

ولكن ذلك كله لا يهمني ، فالشعوب لهم الحق وحدهم في الاهتزاز مما يجنونه بانفسهم في داخل اقطارهم . انما اداني الى التعرض لاعمالهم ما نشاهده من ان قادة تلك الشعوب يتداخلون في شؤوننا باسم شعوبهم فتارة روسيا اوالنمسا وطورا بريطانيا العظمى او الولايات المتحدة تكشر لنا انيابها ، مع انك لا تثق ايها القارئ الكريم بان تجد بين مائة الف اميريكاني شخصا واحدا مطلعا على حالة تركيا السياسية . فهنا البلاد تتمثل في شخص « ولسن » . وهناك تتقمص في « غلادستون » . وهنا وهناك تتشخص السلطة في فريق ملوك المال الذين يملون الاوامر ويسنون الشرائع ويستاثرون بالمنافع . وذلك كله بفضل ما يبدو على الجمهور من الجمود والجهالة والقاء الحبال على الغوارب . ان ما يسمونه الفكر العام او ما وصفه الرومانيون بقولهم « صوت الشعب صوت الله » ما هو في الحقيقة الا مصنوع من المصنوعات يصنع احيانا بداخل البرلمان بوسائل واثمان يعرف الكل كنهها .

نرى في روسيا الجديدة التي انقلب نظامها بطنا على عقب تقلص ظلال القيصر وزوال سياسته الامبراطورية . لكن النظام القيصري لا زال مباحا ضد المسلمين فالمسلم الذي كان يعتبر في العهد القديم عدوا لم يصل في العهد الحالي الى درجة يعتبر معها حبيبا ، بل لا زال مضطهدا في كثير من البقاع . وغاية ما في الامر ان الاستبداد بعد ان كان ينزل من المراجع العالية على الطبقات السافلة اصبح يصعد من هذه ليقع على تلك

* * *

كيفما تغير الزي الذي تتزيا به السياسة فان الغاية الاستعمارية التي تصبو اليها صبابة الولهان لم تزل كما هي ، ولم تزل الغاية التي ترمي اليها السياسة الغربية تدور حول محور واحد وهو غزو البلاد الاسلامية وابتزاز خيراتها وابادة سلطانها . قال الفيلسوف الانكليزي باكون « لا يشق على الاناني ان يضرم النار في بيت جاره ليوقد نارا يصلق بها بيضة له » . هي الحقيقة التي نشاهدها فللوصول لهذه الغاية استباحت السياسة الغربية جميع الطرق . ولعمري فان من يضمر في نفسه مقاصد مشينة يستعمل بالطبع الحيلة ويلجأ بكل دناءة الى البهتان والزور . لقد كان تعرض ملك بروسيا فريدريك الاكبر للسياسة في كتابه « كيف تساس الممالك » قال « حيث جرت العادة بين سائر البشر على ان من يخالط غيره يرتكب فعلة مشينة يحذوا على لفظ من شانه تلطيف وقع الكلمة فلم يجدوا لفظا اوفى بالغرض من كلمة السياسة

ومن عهد فريدريك الى الان قد خطت السياسة في هذا المضمار خطوة شاسعة . فالنميمة ونكث العهود والمخاتلة والخيانة هي اسلحة السياسة الجارية التي تمهد السبل للمشاغبات السياسية ثم الحملات العسكرية

لقد قال بسمارك بفظاظته المالوفة ـ وقوله الفصل اذ هو ادرى الناس بهذا ـ « لا يوجد على وجه الارض الا نفاق وكذب »

تروم دولة من الدول الاستيلاء عسكريا على بلاد وتجريد سكانها من ارزاقهم ويتعذر عليها وجود عذر لعملها هذا ، فتعلن ان هذه البلاد يسكنها جنس سافل بل ان في بقائه على حاله خطرا على الانسانية . وبذلك تنتحل لنفسها حقا كانما هو وحي انزل عليها في اذاقة هذا الشعب طعم التمدن اللذيذ ! وقياس ذلك ان السياسيين متى تعلق بغرضهم اسقاط وزارة ولم يجدوا لاسقاطها اسبابا قوية

تراهم يجهدون انفسهم في ايجاد تلك الاسباب على الاقل في بث اليقين في عقول مواطنيهم انهم لا يقصدون من اسقاط الوزارة الا سعادتهم وخدمة الصالح العام، فالمتبصر يرى الدول تمزق بعضها بعضا لاجل رقع من الارض ان كانت في تخومها ويخاص بعضها لبعض وتتحد لا قتسام نصف المعمور بدون خجل ولا حياء

هل افاضوا على الاقل الخير على الامم التي اخضعوها لسلطانهم ؟ اني اوجه سؤالي هذا لكل متنزه عن الاغراض ، من لي بمجيب يقول لي ما ذا فعل الامير كان بالقبائل الهندية والانكليز باهالي الاقيانوس والترنسفال بزنوج افريقا والالمان بقبائل افريقيا الغربية ؟ انما هي سياسة نفاق عادت بالوبال على البلاد التي تحملت وضع اليد الاوربية عليها . ونحن نشاهد اليوم ما هي عاقبة تداخل الحضارة لآسيا وافريقيا باسم التوغل السلمي على زعمهم ، عاقبة تعيسة لا سيما من الوجهة الادبية ومن وجهة انحطاط البنية ، فالاهليون المساكين يقذف بهم من جديد في بربرية تزداد شناعتها بقدر ما تترقى وسائل التداخل في شؤنهم . فان لم ينقرضوا على آخرهم فما ذلك الا لان مغتصبيهم لا زالوا محتاجين ليدهم العاملة وللحومهم ليكون طعمة للمدافع

ما ذا انتجه يا ترى ماديا وادبيا المشروع الاستعماري الذي اتت به اوربا في القرون الماضية ؟ انقلاب هائل بالعالم اجمع . واجناس من البشر اشرفت على الاضمحلال ، واخرى حولت من قارة الى قارة بواسطة اساطيل النخاسين واراض شاسعة اقفرت واضحى العمران فيها اثرا بعد عين ، وبعبارة اخرى بالامس كانت تلك الاجناس تئن تحت نير العبودية واليوم اصبحت تقاسي مضاضة الذل والاحتياج ، فالمدنية لم تقض على البربرية بل انها هذبتها ورققتها ليس الا

نعم ان القطارات اصبحت مادة خطوطها بجميع الفيافي حتى القاحلة منها

والمناجم استخرجت كنوزها اينما كانت . واكتشف من البيترول آبار لا تنضب. وتنسل من كل صوب الى اوربا نتائج لا تحصى ولا تعد . ولكن ما ذا كان من امر تلك الاجناس الملقبة « بالاجناس السافلة » تلك الاجناس المالكة لهذه الخيرات وهي لا تعلم ؟ وما هي النعم التي جرها لها هذا الانقلاب ؟ ان مجرد ذكر تلك الكنوز والمحاسن التي ابادتها هذه المدنية المزعومة يستدعي تدوين مجلد مفيدة جدا مطالعته . فكم من مظالم واعتسافات ارتكبوها باسم المدنية ! وكم من شعوب مستكملة الخلقة سليمة البنية ضحيت لاجلها ! والحال ان هذه المدنية لو كانت أكثر تسامحا لو التأمت مع الوسط الذي تعيش فيه تلك الامم بل لو كانت ذات نية حسنة نحوها متربصة في امرها محافظة ومهذبة لجمال فطرة تلك الشعوب البسيطة البرئة من كل ذنب لكفتها شر هذه الموبقات .

حقا أني لا انكر الخطة التي قامت بها المدنية الاوربية والنتائج العظيمة التي أتت بها في الماديات . غير ان ذلك لا ينسيني ان من يسمونهم المتوحشين اتصفوا ببعض صفات أدبية لا نجد نظيرها اليوم عند كثير من المتمدنين (١)

المدنية المادية انما هي قوة وبيلة اذا نسيت انها ليس الا مدرج يصعد به البشر الى ذروة الكمال الادبي . لكن هيهات ان تخط المدنية لنفسها هذه الخطة الشريفة ! فاني بحثت بدون طائل عما يدل على حصول تحسين أدبي في نفوس « المتوحشين » يمكن اسناد ظهوره لتأثير المدنية التي اكرهوهم عليها . فاداني هذا البحث الى ان اتساءل مع بيارميل « هل تحسبون ان ما يدخلونه في ادمغة اهالي مستعمراتنا من مشاعر الحق والباطل له قيمة تعادل قيمة ما يزيلونه عنها ؟ »

غير اني اراني قد شطت عن الموضوع . فان اعظم دافع دفعني لوضع كتابي

---

(١) يطالع تأليف ديدرو « فضائل المتوحشين » بصحيفة ٤٠٤ من الجزء السادس

هذا هو التجرد لدرس العلائق السياسية التي تربط اوربا بتركيا . وليس من مشمولاته النظر في شان اولائك الاقوام الهادئين سكان اميركا عند اكتشافها ولعمري انه اكتشاف وقع لسوء الحظ في عصر كان فيه ساسة اوربا منقادين في اعمالهم للتعصب الديني

فان مهمتي ابسط من ان اخوض مثل هذه المسائل . بل اقتصر على محاولة تعريف بلادي لرجال الغرب اكثر مما كانوا يعرفونها من ذي قبل . و اقناعهم ان مواطني وان هفوا هفوات و ارتكبوا غلطات ايضا كغيرهم إلا انه ليس من الانصاف ان يحمل عبأها عليهم دون غيرهم . واقيم الدليل على ان سياسة اوربا الاستثنارية هي التي الجأت ابناء بلادي الى غير ما اعدتهم اليه طباعهم وعوائدهم السلمية . وبالجائهم لهذا تضلل عمدا افكار العالم على حقيقة اخلاقهم . واكشف الغطاء على مغبة تلك السياسة الوضيعة المقامة اركانها على قاعدة التفريق وبث الاحقاد . واظهر بجلاء تام كيف تسعى سعيا متواصلا لابادة الاتراك وان علمت ان في ابادتهم ابادة عنصر يمثل بدون نزاع مبادىء الفضل والمروءة في الشرق

ينبغي لنا ان لا ننسى ان الدول المتحزبة رغم تصريحاتها المتكررة ان غايتها من الحرب تترفع عن المصالح الخصوصية قد امضت على صك في اقتسام تركيا . ولا تزال تلك الدول محتلة لقسم عظيم منها وحتى عاصمتها . وذلك بعد مضي ثلاث سنين ونصف من ابرام الهدنة . على ان بلغاريا و المجر اللتين شاركتا في الحرب مثل تركيا لم يلحقهما هذا الشنار . يخال لي ان الذي وقاها من هذه المعرة تدينيها بالدين المسيحي . اما الملك قسطنطين الذي سلك مسلكا ادعى للملام والتقريع من مسلك طلعت باشا وانور باشا فقد جزي خير جزاء اذ اسندوا اليه رئاسة الجهاد الصليبي الجديد الذي اشهروه على تركيا !

قبيل الهدنة اعترف المتحزبون بشرعية مبدأ حق الشعوب في تقرير

مصيرها وهتفوا له هتاف الاستحسان والتكريم . غير أنهم ابوا الا ان يحرموا تركيا ـ وتركيا دون غيرها ! ـ من الحقوق المنجرة عنه . فهم لا يتصرفون بحرية في شؤنهم بل غيرهم هو المتصرف فيهم (١) . افلا يكون الاجدر بهم حينئذ ان يضيفوا لنص هذا المبدأ المزخرف ـ بل قل المموه ! ـ هذه الكلمات ليتجلى حد منطوقه « الا الشعوب الغير المسيحية . . . او التي لها مناجم ثمينة » ؟

جمعية الامم التي تدعي ركز اركانها على دعامة ذلك المبدأ نفسه وما يجره من الحقوق المعترف بها لكل امة لم تقبل تركيا في ضمنها . وضف على ذلك أن بلادنا لم تستدعى لمؤتمر جنوة بدعوى انها دولة . . . . . آسياوية !

فان رغبة الدول المسيحية و جهودها المتواصلة في طردنا من اوربا واضحة جلية . لكن لحد الان لم تكلل تلك المساعي بالنجاح ولم تزل تركيا تملك اراض باوربا . بل وقع قبولها في المجتمع الاوربي منذ معاهدة باريس (٢) . على ان استدعاءها لمؤتمر جنوة ليس مما يجر لها فخرا او شرفا . انما هو حق من حقوقها فحسب . فان الحكومة البريطانية التي سعت في تكوين هذا المؤتمر قد فضحها امتناعها من المصادقة على هذا الحق . كما ان عقدها النية على البقاء بشبه جزيرة غاليبولي واعطاء ادرنة لليونان ـ صنائعها ـ كشف لنا النقاب في ءان واحد على تعصبها الديني ومبلغها من الطموح الى التفوق والاستعلاء . ان الشرق عرف الان اي مسلك يسلك في مستقبله .

فالهدنة التي كان ينتظر منها اطفاء جمرة الحرب كانت اكثر و بالاعلى تركيا من الحرب نفسها .

---

(١) كانت هذه الحالة عند وضع الكتاب . وقد اجلاها الله عن دولة الخلافة و لله الحمد

(٢) هي معاهدة ٣٠ مارس ١٨٥٦ التي انعقدت عقب حرب القريم

كنت منذ عامين نشرت رسالة سميتها « صدى تركيا » بينت فيها مع الادلاء بالحجج كيف يعمد قادة اوربا الى ارهاق بلادنا عسرا باستعمال قواتهم المغرضة الحقودة التي لا ولن تخمد نيرانها . وسطرت فيها ملحوظاتي في شان معاهدة سيفر التي تمخضت بالدسائس والطماعة فكانت القاضية على السلم في الشرق . فجاءت الحوادث مؤيدة لما رأيته وما رءاه ايضا الرجال المتبصرون الذين ينظرون للحقائق بامعان وتثبت . ومن ذلك العهد كم من مشهد فظيع لطخ اراضينا بالدماء الزكية بدون ان تجني منه اوربا كسبا حلالا ترجوله دواما !

ان الهوة السحيقة التي ابتدىء حفرها من عهد الصليبيين وفرقت بين قسمي المعمور لا زالت تتسع يوما فيوما وتجعل الامم الشرقية تدفع عنها باباء واشمئزاز كل ما يرد عليها من الغرب المسيحي .

ان الشرق المثخن بالجراح المبرحة ينشد بدون طائل ضالة السلم . فلا يجد الا شعوبا واقفة في وجهه مدججة بالسلاح جلبت الدمار حتى لقلب الاناضول . حقا انهم حكموا عليه بالاعدام ! واذا اردت ان تعرف لماذا فاسمع .

ذلك لان الترف والفجور والاسراف الذريع في سبيل شهوات تافهة وزخارف كاذبة ضيقت بالغرب مناقس الحياة . ذلك لان القيام بنفقات هذه الحياة المضطربة يتوقف على ايجاد مداخيل تتجدد وتتوفر دواما واستمرارا فصار كل فرد يتطوح مدفوعا بعوامل مصالحه وحاجياته . ذلك لان الفاقة والمسغبة والازمات الصناعية والتجارية عطلت سير مجتمعات هذا العصر في سبيل التبذير والاسراف ـ ولا سيما الطبقات منها التي لم يتعود افرادها العمل بانفسهم . وهناك الوف من الناس يريدون الاثراء والتمتع بالعيش الرغيد بدون عمل نافع . حقا لقد فقدت القناعة وتقشعت معها الشهامة الحقيقية . حقا لقد انعدمت العاطفة الادبية من السياسة . انما هذا اخطر معطب للوقت الحاضر واقوى دليل على استحكام حلقات الانحطاط الادبي الذي كانت تركيا ـ وا اسفاه ! ـ احدى ضحاياه .

اني لست بمتطرف في وطنيتي ولا بمبغض للاجنبي . بل اقول كما قال الاديب الالماني لسينغ « اللهم احفظني من وطنية تعوقني من ان اكون ابنا للعالم » . فاني ارى ان الوطنية متى صار الادب والعقل من انصارها بدل ان تبقى عونا على الشحناء تنقلب وسيلة للعدلة وواسطة للتقارب بين الشعوب . اني احب بلادي واحب ايضا الانسانية والحقيقة حبا مساويا . وبقدر ما تهيج عواطفي سياسة الغرب المتوحشة امتلىء اعجابا واحتراما لرقيها العقلي واكتشافاتها العلمية وتطبيقها المدهش . احساساتي هذه يشاطرني اياها مواطني الذين لا تبلغ جهالتهم الدرجة التي يرام عليها اخصامهم .

ان المسلمين وبالاخص الاتراك لا يبغضون الاروبيين . يدل على ذلك اكرامهم لهم والاعتناء بهم . فهم مستعدون دائما ان يقبلوا على الرحب والسعة وقادة الذين يحلون ببلادهم بنية مساعدتهم على اصلاحها . اما الامر الذي ينفرون منه هو سوء النية الذي يتجلى في سياسة اوربا نحوهم . لا شك انهم لا يعرفون — وهل يلامون على ذلك ؟ — اسماء الكثيرين من رجال الدول بالغرب . لكن كلهم يعرفون ان بستور كان من خادمي الانسانية والمحسنين اليها . وكلهم يستطيبون مذاق ءاداب اللغات الغربية ولاسيما ءاداب اللغة الفرنساوية التي نقلت كتبها للغة التركية وصارت تعد اعظم عامل مع المستنتجات العلمية على تكوين ملكة ادبية لشبيبتنا

لكن دعنا من السياسة . فهي بنت الصدف تمر مر السحاب . فنحن مرتبطون مع فرنسا بآدابها الخالدة التي هي اعلى قدرا وابقى على الزمان وجودا من رجال السياسة الذين سرعان ما يتقلص ظلهم وتمسي ربوعهم كأن لم تغن بالامس .

فمن تلك الاداب ملات وطاب معرفتي للمدنية الغربية وكونت ملكتي الفلسفية . ودرست بلهفة وتعطش — مثل كثير من مواطني — مصنفات القرن الثامن عشر . ولا زلت اشعر بانبساط عند مطالعة ديوان « الاخلاق العالمية »

لصاحبه الفيلسوف الفرنساوي البارون دولباك . وبعد ذلك درست روح العلوم الايجابية فاكتسبت عقيدتي منها قوة زائدة . سوى اني لما اشعر بما اودعته في نفسي هذه العلوم من عواطف الامتنان نحو كبار خادمي الانسانية الذين يقودون ادبيا خيار الامم اتذكر في آن واحد خصال علماء الشرق الذين اناروا الجنس البشري في القرون الوسطى . اولائك العلماء الذين طالما امتهنت اقدارهم وخبا تذكارهم . فخصصت بابا من هذا الكتاب للكلام على تآليفهم وتاثير علومهم على الغرب .

فلا يسعني الا الاعجاب بالامم التي انتجت قرائح ابنائها كل هذه الاثمار الادبية . بحيث عندما يغمر صدري غمرا على او ربما اشعر باني انما انسج على منوال مفكريها . واذا رفعت صوتي بعنف لا حتج على اعمال بعض قادتها فما ذلك الا لاني اراهم يدنسون شرف اقطار انبتت امثال ديكارط و باكون و ليبنيز وهوم و ديدرو وكانت ومنتسكيو وكندرسي و بيشات ونيوتن واوقست كونت وغيرهم ممن يعسر تعدادهم . وايضا لان اعمال هؤلاء القادة تضاد على خط مستقيم جميع ما كتبه واعلنه اولائك الرجال العظام . يقول الفيلسوف الفرنساوي اوقست كونت « ان الاحياء منقادون لتأثيرات امواتهم » . اما انا فلست اشاهد من الاحياء عند جل السياسيين الا تمردا وشقا لعصا الطاعة في وجوه امواتهم . وهو لعمري تمرد عقيم يشف عن كفر الجميل

قد يوجد بين المحافظين على الدين وعلى ما ورثوه من العوائد والتقاليد من يتبرؤون من هؤلاء المفكرين الكبار لما يبدو عليهم من المروق الديني او الانتماء للمبادىء الثورية . فالذين هم على هذه الشاكلة لا ارجو منهم ان يهتزوا لما اقوله . غير انه من الاسف ان مسافة الخلف بين القول والفعل نشاهدها ايضا في المواضيع التي تروق في اعينهم

فان انكلتيرا على عهد الملكة فيكتوريا وفرنسا على عهد الامبراطور نابليون الثالث كانتا تظهران في علائقهما مع تركيا نوعا من الصدق يوافق التعاليم المسيحية التي تنهى عن الحسد والبغضاء والامتهان والتشفي والعسف والسعاية واغتصاب مال الغير او منعه عن اربابه والتكالب على جمع الحطام

وبالجملة فكل الفضائل التي مجدها المسيح حرفوها او نبذوها وجميع ما نها عنه عملوا به ، قال ابن مريم عليه السلام « ليست مملكتي من هذه الدنيا » . اما اتباعه فليس لهم من الهم سوى توسيع دائرة ممالكهم ووضع العالم تحت كابوس ضغطهم . قال الحواري بولس « لا تعاملوا معاملة العدو من لا يشاطركم افكاركم بل نبهوه تنبيه الاخ لاخيه » . لكن من الاسف ان لا نجد ولا واحدة من هذه الفرائض الدينية معمولا بها في الاجرآت السياسية اليوم . فان التناقض المبين بين ما كتبه المفكرون وما يقوم به السياسيون يدل دلالة واضحة على الدرجة من فساد الاخلاق ودناءة الهمة التي وصلوا اليها

على اني لا اصدق تصديق الاعمى كل ما جاء في اساطير الاولين . بل اعرف انه لا شيء دائم على ظهر البسيطة وان حياة الشعوب كحياة الافراد هي في تغير مسترسل . وان المبادىء التي كانت صالحة بالامس لا يمكن الاستشهاد بها او الالتجاء اليها لحل المشاكل السياسية الحاضرة من جميع حذافيرها . كما ان الشرائع الاجتماعية على فرض استنباطها لتكون صالحة دائما ابدا يعتريها التطور من غير بد . فهي من هذه الجهة تشابه منظر العالم في سرعة انقلابه

على ان الشرائع وان كانت ديمقراطية النزعة لا تثمر دائما من حيث الرقي الانساني الثمرة التي يحلم بتطلبها الفيلسوف المقتصر على النظريات دون التطبيق. لكن ما كان ينبغي للحكومات ان تتخذ من ضعف هذه الشرائع ذريعة لانكار المبادىء الكلية او انتهاك حرمتها كمبادىء « حقوق الانسان » التي جمعت بين

السياسة الاثيلة والادب الصحيح والتي قامت لاجلها ثورة عظمى ولاجل تحقيقها جرت انهار من الدماء . ولا يحق لاية دولة ان تحاول ايهام الناس ان هذه المبادىء لم يبق منها الا اطلال دارسة من الذكرى ورسوم بالية من المجد والفخار . فان المبادىء اذا ثبتت صحتها لا ينبغي اهمال الغاؤها في زوايا الاهمال مهما كانت مخاطرها الظاهرية . ومن الاسف ان المبادىء في نظر السياسة الحاضرة ليست بشيء يذكر بل ان النجاح وان كان لوقت محدود هو الكل

قال روبسبيار احد ابطال واحد ضحايا الثورة الفرنسوية « ذهاب المستعمرات ولا التنازل عن المبادىء ! » اما الذين يستثمرون اليوم هذه المستعمرات فان لسان حالهم يقول « التنازل عن المبادىء ولا ذهاب المستعمرات ! »

وجدت في مذكراتي هذه الكلمات منقولة عن جريدة « البلوك » التي كان يديرها مسيو كليمانسو « ان راية الثورة الفرنساوية تخفق الان لمساعدة المبشرين الذين اشتهروا بالقتل والنهب . اولائك الذين حملوا اوربا كلها على ارتكاب فضائح ببلاد الصين كانت مدنسة لشرفها »

انه يحق للرئيس السابق لمجلس الوزراء ان يندد بالفواحش والفضائح التي صدرت من اوربا ببلاد الصين وبجل البلاد الاخرى ايضا . لكن عند ما كان جنابه على اريكة النفوذ فان تلك الراية نفسها لم تكن دائما خافقة بالنسبة للمسائل التركية لتأييد العدالة والحرية . ان مسيو كليمانسو كان كغيره كثير الاغترار لاعوان تغلبت على نفوسهم عوامل البغضاء وادي به انقياده لهم الى التفوه بعبارات القذف والسباب . فمن جراء حكمه على الحوادث حكما سطحيا مبنيا على ما يظهر من العوارض كان يعتقد ان الاتراك امة متوحشة . انه لمخطىء وان خطأه هذا لغريب !

ان التركي في نظر كل اوربي يتزود من اخبار العالم بما يمليه عليه رجال

الكنيسة او بعض ارباب الصحف كناية عن رجل متوحش ملطخ دائما ابدا بدماء ضحاياه . و بما انه مسلم فهو متعصب حتما لا ينفك عن اضطهاد المسيحيين ناشرا بنودا مخضبة باحمرار محيط بهلال . اذا فهو كوحش ضار علة كل الويلات التي اصابت اوربا . وبما ان قلبه قد افعم حقدا فلا يستحق ان يعامل الا بالحقد . وعلى اجتياحه وابادته تتوقف راحة العالم

أيجدر بنا الرد على هذه الضربات السخيفة مهما نجم عنها من الاضرار بشعبنا ؟ فان مواطني لا يجهلون ما للدول من الشهوات النهمة وما للكنيسة من المطامع الدائمة . فحسبهم ان يقابلوا الجرائم التي يعزونها لهم بالجرائم الحقيقية التي ترتكبها اوربا والمسيحية

على ان الطعنات الموجهة من رجال السياسة على الاتراك لم تكن لها ادنى قيمة تهذيبية اذ لم ينشأ عنها الا جرح عواطفنا الوطنية . ولئن جهل الاتراك ما للسياسة من الاسرار المشوشة فان نفوسهم تلهمهم رغم ذلك الى ادراك حقائق الحال . وبما ان الوقائع التي ينسبونها لهم ظلما هي واقعة بالاماكن نفسها التي يقيمون بها فانهم يعرفون لحسن الحظ حقيقتها واسبابها . فتفيض قلوبهم اغتياضا اذ يشاهدون التعمد في اظهار تلك الوقائع على غير حقيقتها وتحريفها عن مواضعها . وتمتلىء نفوسهم حنقا من جراء سوء نية متهميهم الذين تبلغ بهم الجسارة الى محاولة تبرير تداخلاتهم بدعوى حماية المسيحيين بالشرق . كانما المتدينون من سكان اوربا يتمتعون في نفس بلادهم باكثر مما هم عليه بتركيا من الحرية والاحترام . ولا يخفى على الاتراك ان فرنسا التي تعاضد طرق المسيحية بتركيا كآلة لبث نفوذها وللوصول لفتح البلاد قد صادرت تلك الطرق نفسها في بلادها

فالدول العظام القائمة في حق المسيحيين والمتداخلة في شؤن الشرق لفائدة المسيحيين انما هي تقوم بصفة رسمية بما قام به الصليبيون من قبل من



نشر دعوة المسيحية من جهة و مكافحة المسلمين من اخرى . وقد تصل بهم الرعونة الى امتهان شعائر الاسلام المقدسة . لقد صدق المؤرخ الفرنساوي لافيس في قوله « اليوم تبذر الاحقاد وغدا تثمر الحرب . هذا بالنسبة لاوربا حاضرها ومستقبلها »

ان هذه السياسة التي زاد في وبالها انتسابها للكنيسة وتضاعف قبحها لصدورها من اناس يقاوموننا باسم الدين وهم لا دين لهم لاتثير في قلوب المسلمين الا عظيم الاحتقار . خصوصا وانهم يعلمون ان دعوى الذود على مصالح المسيحيين بالشرق وحمايتهم ما هما في الحقيقة الا قناع كاذب يخفي وراءه البواعث الحقيقية لهذا الصنيع . وهي الرغبة في اخضاع المسلمين لسلطانهم واستنفاد موارد ثروتهم

وهناك ايضا امر ادهى وانكى مما انطوت عليه هذه السياسة من الخبث والجفاء ، وهي الاسوة الفاسدة التي تتركها لشعب يريدون اصلاحه على زعمهم . فان منازع النفوس الخبيثة اذا ظهرت عند شعب يجب ان لا تتجاوز حدود بلاده . فما دام العمل الواحد يكتسي بكسائين متغايرين باعتباره صادرا من الشرق او من الغرب وما دامت العدالة تكيل للناس بمكيالين و بالتالي ما دامت الحقيقة المجردة محجوبة تحت تأثيرات التعصب الوراثي ان لم تكن تحت رداء المطامع ــ ذلك الرداء الذي لم يسدل الا لتضليل الفكر العام ــ لا سبيل الى الوئام ولا رجاء لادنى تآلف بين اوربا والعالم الاسلامي . فالافراد كالجماعات مجبولون على النفور من دول بنت صروح سياستها على قواعد القوة الغاشمة

اتصفت السياسة الغربية بوصف يميزها عن غيرها ويبين مبلغها من الانحطاط . وهو سلوكها المسالك الدنيئة لتحقيق الغاية التي تصبو اليها . افلا تكون دناءة المسلك متسببة عن دناءة المبتغى نفسه ؟ احتمالي هذا تؤيد صحته النتيجة الحاصلة . وهو لعمري امر يوجب كل اسف

كنت اتوقع من عهد بعيد حصول هذا النفور وتهيج هذه العداوة ، لكن ما كنت احسب ان ينتج عنها مثل هذه العواقب المرهقة . فما كنت اخشى الا امرا واحدا وهو ان تتفاقم مشاعر البغضاء على اوربا الرسمية تفاقما يعم به السخط حتى على مفكريها وعملتها الذين لا لوم عليهم في الحقيقة من جراء اعمال ساسة بلادهم الا من حيث تحملهم لها بدون معارضة . كنت اخشى بعبارة اخرى ان تبسط هذه البغضاء اجنحتها السوداء على الابرياء فتضمهم تحت سخط واحد مع المذنبين الاغبياء اولائك الذين يقومون بسياسة الضغط لمنع الشرق من تقرير النظام بين عناصره والسير بهم في منهج الرقي الحقيقي . ولكن بكل الاسف جاءت الحرب فحولت مجرى الحوادث

* * *

ان السلطان عبد الحميد الذي قاومت دولته المستبدة من عام ١٨٨٩ الى يوم ٢٣ جويليه ١٩٠٨ كان عدوا للدول العظام وبالخصوص لانكلتيرا . وكان لا يتوافق الا مع امبراطور المانيا الذي اظهر براعة غريبة في خدمة ميول حبيبه . أما الامة فانها لم تكن على عهد هذه الحكومة المرهبة لتفقه من الامور الا ظواهرها الكاذبة . ولا يستطيع اي فرد من الافراد ان يصدع بما يختلج في ضميره . بل تقف حريته عند حد ترديد ما يتلقاه عن الصحافة او المخبرين المأجورين الذين باعوا ذمتهم وفقدوا ماء حيائهم . فلا عجب في ذلك وقد جاء في الاثر العربي « ان الناس على دين ملوكهم »

فان اعظم مشعر كان يبدو في نفوس الاتراك كره الاجنبي كرها سياسيا ينبعث بهم الى مناواة العداء لا لمبدأ الرقي نفسه بل للمشاريع التنظيمية ان كانت لها صبغة اربية ولكل برنامج اصلاحي تعرضه الدول الاجنبية على الباب العالي

فالامة كانت محترزة حذرة ـ وليست بمخطئة في احترازها ـ لان جل الاصلاحات لم يقصد منها في الحقيقة توطيد النظام ومد يد المساعدة للنهوض بالبلاد . بل كانت تختفي تحت الاردية التي ترتدي بها طموحا الى امتيازات مالية وطمعا في قطائع اقتصادية عائدة بمضرة على البلاد

ان الاسطر الاتية المنقولة عن « دائرة المعارف البريطانية » بالفصل المسمى « ارمينية » وصفت وصفا بينا حقيقة الغاية لتلك الاصلاحات . واليك هي « في يوم ١١ ماي ١٨٩٥ عرضت الدول الثلاث على جلالة السلطان برنامجا متشعب المسالك ليكون اساسا للاصلاحات . انما هو برنامج بدلا ان ينقص من المشاكل المتعلقة بادارة شؤن ارمينية كان مقاما على قاعدة الزيادة في تشعبها . الا انه برنامج لم تكن روسيا لتقبل بسواه ! »

وكان كتب غلادستن هذه الكلمات في عام ١٨٩٦ « اني اعترف بدون تقييد أن جميع ما ادخل على تركيا من الاصلاحات لم يكن بمساعدة المجتمع الاوربي بل بالرغم منه »

انقل للقراء الكرام هذه العبارات من استاذي بيار لافيت « يجب على الغرب ان يتخلق باخلاق حميدة قبل ان يرى نفسه اهلا لاصلاح شأن الشرق . فاني لا اتصور دعوى ابعد عن مرامي الصواب واقرب للقحة من دعوى المسيحيين صلوحيتهم لقيادة الجنس البشري »

كثيرا ما كان جنابه يعيد على مسامعي هذا الكلام وهو تحت تأثيرات دعاوي اولائك السياسيين المتكهنين الذين اداهم العجب الى ان يفتخروا باقتدارهم على اصلاح شؤن تركيا في لحظة عين !

وفي الحقيقة لا يسوغ بوجه شرعي لاية حكومة مسيحية ان تكره المسلمين على الخضوع لشرائع تكون هي الواضعة لها . ولا ان تتدخل في امورهم

لا سيما من الوجهة الادبية . بل يحق لكل قطر ان ينتقي لنفسه من الاساليب الادارية ما يرضيه . فالعزائم الوطنية والهمم القومية لا تسمح للدول الاجنبية بهذا التدخل الجافي . انه لجدير بتلك الدول قبل الاهتمام بتقويم اعوجاج غيرها ان تعتني اولا باصلاح عيوبها . وتجتهد في تنظيم البقاع التي احتلتها بدعوى ادخال الحضارة عليها وجلب السعادة اليها

كان كلف البارون الياباني كانيكو من طرف الكونت ايتو وزير خارجية بلاده ان يسأل الفيلسوف الانكليزي هربير سبنسر رأيه في السياسة التي ينبغي لليابان سلوكها . فاجابه ان نصيحته لليبانيين ان يتباعدوا عن الاميركيين والاوربيين وان لا يمكنوهم من التدخل في شؤنهم وان يدفعوا عنهم بعنف كل تأثير اوربي عسكريا كان او مدنيا

يقال ان اليبانيين جنوا فوائد كبرى من هذه النصيحة . وعلى كل حال مهما يكن من الامر فان الاوربيين الذين اقاموا بتركيا يؤكدون ان الشرقيين يحفظون سعادتهم ورفاهتهم من الزوال ويصونون حسن اخلاقهم وعفافهم من الدنس ما داموا متباعدين عن الاجناس الاجنبية المترصدة لاغتيالهم

غير ان هذا الرأي وان كان من السداد بمكان الا انه لا يسعني ان اقبل به فيما يخص بلادي . فان موقعها الجغرافي و موقفها السياسي يحولان دون اتباعه . لقد كنت قائما في مجلتي « مشورت » بعبء مقاومة ما كان يتجاهر به رجال الدولة التركية على عهد عبد الحميد من مجافاة النظم الاوربية . وكنت ابين فيها وخصوصا في الطبعة التركية منها محاسن تلك النظم قاصدا بعملي هذا جلب خواطر مواطني للمدنية الحقة . غير ان المقاومين لهذه المساعي كانوا لا يتقاعسون ابدا عن نشر ما يعارضها . ومن الاسف ان كانت لديهم من الوسائل ما هو اقوى نفوذا واوسع نطاقا مما كان في امكان جمعية « الاتحاد والترقي » الاتيان به . فان

صحف السلطنة العثمانية كانت في قبضة رجال البلاط يسيرون بها حسب شهواتهم . فاذا نشرت الصحافة الانكليزية او الفرنساوية فصولا ضد الاتراك او ضد الاسلام يتسرع ارباب صحفنا لنقلها وتعليق ما يسنح في خاطرهم من الشروح عليها . ضرورة ان همة تلك الصحافيين كانت مصروفة لصد عقول الاتراك عن الافكار الحرة لا سيما ان كانت فرنساوية المصدر

ان عاطفة الاحتراز و التخوف من النظم الاوربية وكذلك السموم الرجعية التي دسها في دسم العقول رجال العهد القديم بلغت لحد ان اتيح للرجعيين بعد مضي ثمانية اشهر عن ثورتنا وتنصيب الحكومة البرلمانية ان يجوبوا الشوارع صارخين « نريد العمل بما جاءت به شريعتنا لا بما اقتضته النظامات الاوربية ». كانما تعاليم الشريعة المطهرة تنافي مبادىء الترقي والتمدن سواء ابتنها اوربا او غيرها من بقاع الارض

اني ارجو المفكرين المخلصين المنصفين اذا اطلعوا على هذه الاسطر ان يمعنوا النظر في تلك الايام من تاريخنا بدل الاسراع بالحكم على « الجون ترك » وعلى مسلكهم السياسي . فان الثورة الرجعية التي قامت عقب ثورتنا كانت هي ينبوع البلايا التي انقضت علينا والسبب الاصلي لحرب البلقان وبالتبعية للحرب الكبرى . ذلك ما سأبينه في هذا الكتاب لان اوربا تجهل من هذا الامر حقيقته

ولا عجب في جهلها هذا وقد يوجد من ابناء اوربا عدد لا يستهان به يجهلون تاريخ بلادهم نفسه . كنت طالعت منذ عام تقرير جلسة من جلسات جمعية المحافظين على ذكرى الثوروي الفرنساوي « روبسبيار » فوجدت فيه هذه الجمل « ان الناس لا يعرفون الا القليل من امر حكومة « الكومين » (١) البلدية

(١) « الكومين » حكومة بلدية ثورية ذات نزعة اشتراكية انتصبت بباريس وقامت بدور عظيم من ادوار الثورة الفرنساوية وهو ما يسميه المؤرخون « الدور الرهيب » وكان رئيسها « روبسبيار » . ودامت من يوم ١٠ اوت ١٧٩٢ الى يوم ٢٧ جويلية ١٧٩٤ يوم اعدام « روبسبيار »

بباريس . تلك الحكومة التي تولت شؤن العاصمة اثناء الدور الرهيب من الثورة وبالطبع يجهلون ايضا شعبها التي بلغ عددها ثمانية واربعين شعبة كل واحدة منها تعتبر حكومة بلدية قائمة بذاتها الا انها مندمجة في الحكومة الاصلية . كما يجهل الجمهور الاحزاب السياسية التي تكونت اثناء العاصفة الثورية مهما عظم شأن بعضها وامتد سلطانها كحزب « الكرديليي » . وضف على ذلك ان الحركة الثورية بالآفاق لا يقل الجهل بكنهها عن الجهل بحوادث العاصمة . فان كان للقوم في يومنا هذا بعض المام بالحوادث السياسية التي اتت بها الثورة لكنهم رغم ذلك كادوا ان لا يعرفوا شيئا من تاريخ الحياة الاقتصادية والاجتماعية والوسائل التي اتخذت لتنفيذ اوامر السخرة واستخلاص المجابي وصنع الادوات الحربية والمهمة التي انيطت بعهدة الجيوش الثورية بالآفاق . ويجهلون اكثر من ذلك الاعمال الخفية التي صدرت من القوات المقاومة للثورة »

هذا ما جاء في تقرير الجمعية « الروبسبيارية » . فان كان الناس يجهلون في فرنسا مثل هذه الامور لا نعجب من جهلهم لحقيقة ثورة كثورتنا قامت بجهة بعيدة عنهم ولا نعجب ان اخطأوا الرأي في الحكم على « الجون ترك » اذ انه قد يصعب على المرء كما شاهدنا ان يكون على بينة من حوادث بلاده نفسها

ان جاهل التاريخ اذا اشتغل بالسياسة تصدر منه فريات خطيرة العاقبة . قال الفيلسوف اليوناني ديموقريت « من لا يعرف للحسنات معنى يكون سببا في اثارة السيئات » . يكفي ان يقال على « الجون ترك » كما قالته الالسنة المغرضة انهم ميالون للجرمانيين ليرمقوا وثورتهم بعين ملئها الخزي والاحتقار

يلومون تركيا لوما بلغ حد الابتذال على دخولها في الحرب بجنب المانيا . وهب ان الامر كان كذلك فهل عملها هذا يكون سببا كافيا للاستمرار على معاداتنا ؟ فمها يكن من جسامة الهفوة التي ارتكبتها تركيا في انقيادها لمن جر ها

للمعركة العامة فان الامر الذي يدعو حقيقة للعبرى هو ان هذه الحرب العضروس التي قلبت العالم ظهره صدرا ودمرته تدميرا لم يكن للاتراك يد في تدبيرها ولا كانوا اول من اشهر اهوالها . فهم لا لوم عليهم في هذا الامر . بل اللوم كل اللوم على تلك الدول التي تدعي الحضارة واهليتها لتمدين غيرها . فبعضهـا مهد السبل لهذه المجزرة والبعض الاخر لم يستطع الحياد عنها

فالحقيقة ان اوربا انتصبت خصما لنا ليس من الحرب الاخيرة بل من عهد الحروب الصليبيـة . فان سياستها المشومة التي عاكست تركيا في حرب البلقان والتي حملت المجتمع الاوربي على تناسي تصريحاته العلانية المؤكدة لنـا اذ ذاك « باحترام الحالة الراهنة وبقائها كما هي مهما كانت نتيجة الحرب » تلك السياسة هي التي خدعتنا بعد هزيمتنا العسكرية والحقت بنا جراحا لا زالت دماؤنا منها تنزف

اقول والحق شاهد ان الدول الاوربية وفي ضمنها روسيا لم تركن ابدا الى ربط علائق الصدق والوداد مع تركيا نعم شاهدنا احيانا بعضها مـادة يد المساعدة لتركيا . لكن مسلكها هذا ـــ كما سنراه بعد ـــ انما تقصد منه معاكسة مزاحميها لا مساعدة الاتراك . ولي قصة اقصها على القراء الكرام اذ فيها عبرة لمن يريد أن يتصور كيف وسائل التنشيط قد لا يقصد منها الا التشويش على الغير والقاء العراقيل في طريقه . واليك هي

لما رفع بي السلطان عبد الحميد قضية لدى المحاكم الفرنساوية رائما ارغامي على كف المقاومة التي اشهرتها في مجلة « مشورت » على سياسته المستبدة وردت لي برقية من الصحافي الفرنساوي هنري روشفور ـــ ذلك الرجل ذو الشمائل العالية ـــ معربا لي فيها عن وده داعيا لي بالفوز في القضية . فكان لتلك البرقية اطيب وقع في نفسي . وبينما كنت ابحث باحتيار عن عبـارات لائقة اسدي له فيها تشكراتي اذ اتى لزيارتي احد اعضاء مجلس الامة الفرنساوي . وقد كان

ذا حصافة وتعقل حقيقيين . فقال لي « بما ان جوابك سيكون على طريق البرق كن وجيزا في العبارة لان روشفور لما ابرق لك عبارات وهو قصد في الحقيقة التشويش على الحكومة اكثر من ان يقصد تأييدك في قضيتك »

فالوداد الذي اعلنته في القديم انكلترا نحو تركيا كان من هذا القبيل .

ة ايدت الحوادث التالية انه نتيجة معاكستها لمطامع روسيا ليس الا

كان تعلق بغرض « الجون ترك » بعد ثورة عام ١٩٠٨ ان يقضوا على السياسة الخفية التي طالما سلكها سفراء الدول و ذلك لكي يستأصلوا شاقة الدسائس لدى الباب العالي . فخاطبوا دول اوربا بان تسير في سياستها معهم سيرا نقيا من المواربة والخداع ـ الامر الذي لم تتعوده الدول من ذي قبل لا سيما روسيا فلم تجبنا ولو دولة واحدة بجواب شاف . والذي ادهشنا بالخصوص ما عرضه علينا بهذه المناسبة سفير المانيا . وسيأتي الكلام عليه في وقته ومحله

ان الموقف المفعم جفاء الذي وقفته نحونا الدول العظام تجاه حوادث البوسنة وبلغاريا واحتلال طرابلس الغرب و الثورة الالبانية وعلى الخصوص اثناء حرب البلقان التي كانت كديباجة للحرب العامة ما كان من امره الا ان قوى عند مسلمي الاتراك عاطفة الاحتراز من الاوربيين . تلك العاطفة التي اعتنت دولة عبد الحميد بغرسها في قلوبهم . هذا الموقف العدائي هو الذي اوغر صدور الجون ترك لحد ان ارتاحت نفوس بعضهم لما كانت تنشره الاوساط الرجعية من المبادىء العقيمة التي كان عبد الحميد ابا عذرتها . فتغير بسبب ذلك المنهج السياسي الذي كان سلكه « الجون ترك »

و من البديهة تفاقمت الحالة . ضرورة ان العداء الذي اشهرته سياسة الدول المتحزبة على المسلمين عموما وعلى الاتراك خصوصا قد نكست احساساتهم حتى ان الفرنسيس و الانكليز الذين كان الترك يحلهم من عهد قديم محل احباب لهم ـ

وذلك حتى في ايام الحرب . اضاعوا الحظوة والمودة اللتين كانوا احرزوا عليها .

لا نزاع في ان تركيا ملامة على مشاركتها في الحرب . لكنها قد كفرت عن ذنبها هذا باغلى ثمن . اذ خسرت بلاد الشام وفلسطين والحجاز والعراق وجزر بحر الروم وحقوقها على البواغيز . ولا يوجد من بين الدول المغلوبة في هذه الحرب دولة واحدة فصلوا عنها ما يعادل هذه البقاع من حيث الخصب والاتساع . ضرورة انها ذات مساحة تساوي اربعة اضعاف مساحة فرنسا

لكن من سوء الحظ ان لم يرو المتحزبون في هذا الفداء ما يكفي لاشفاء غليلهم . فانهم ما بدت لهم فرصة من الفرص لامتهان الترك وتقويض معالم عزهم الا انتهزوها مسرعين . فلقد اباحوا لليونان ان يغرسوا اقدامهم بطراكيا وازمير ودفعوا الجيش اليوناني في حرب جديدة كلها اغتصاب واختلاس ببلاد الاناضول بعد ان جهزوه لخصوص هذا الغرض . متغاضين على الاعمال المتوحشة التي ارتكبتها جنود قسطنطين بتلك البقاع . واحتلوا كيليكيا ونظموا فيها كتائب ارمنية حمتها الجنود الفرنساوية في اقترافها ما لا يحصى من الفواحش واحتلوا الاستانة واتت فيها الحكومة الانكليزية من الفظاظة والغلظة ما لا تحتمله النفوس الابية . واجرت فيها الحكومة الفرنساوية تسخيرات لا تقل شدة عما اجراه الانكليز . زد انهم اعتدوا على البرلمان العثماني واوقفوا ونفوا عددا من نواب الامة ومن اعضاء مجلس الشيوخ اثناء مباشرتهم لوظيفهم . وتداخلوا ظلما في شؤوننا بما يشف عن مطامعهم ويناقي مبدأ العدالة . ونصبوا محاكم عسكرية اجنبية بمقر السلطان وخليفة المؤمنين الذي ما وسعه الا ان حكم في رعاياه محاكم اجنبية . وجعلوا على مقربة من « طوب قبو سراي » مستودعا للفحم ولسائر انواع الفضلات وذلك قبالة المعهد الذي اودعت فيه الخرقة النبوية على صاحبها ازكى تحية وتسليم .

فان كل موبقة من هذه الموبقات تعتبر طعنة في قلب الشعب العثماني ودوسا لقوميته واستقلاله واهانة للشعائر الدينية المنظور اليها بكامل الاحترام من كافة العالم الاسلامي .

منح المتحزبون حقوقا لبلغاريا ولغيرها واتفقوا على احترامها . الا ان تلك الحقوق نفسها داسوها بالاقدام في بلادنا بكل قحة وبكل جفاء .

ان هذا العقاب وذاك الشنار اللذين الحقوهما بخصوص الترك ـ و ذلك من منذ الهدنة بل رغم نص المعاهدة ـ لايمكن بحال اعتبارهما مجرد عقوبة ترتبت عن الحرب نفسها . فما ذلك الا مظهر من مظاهر الحقد والتشفي الديني كل منهما اوتي قصدا . حتى انهم فصلوا بيت المقدس عن بقية بلاد فلسطين اخذا بثار الصليبيين . فان الغنائم التي اختطفوهـا بكل شراسة والممالك المسلوبة التي اصبحت موضوع النزاع القائم بينهم تظهر جليا ان المقصود بالذات هو تقويض اركان السلطنه العثمانية اما مشاركتنا في الحرب فما هي في الحقيقة الا عذر كاذب يسترون به اغراضهم

قال الاديب الفرنساوي لا برويار « ان من يرتـع في بحبوحة العيش يعتريه نوع من الخجل عند مشاهدة حال من اضناه البؤس » . لكن هيهات ان يدور مثل هذ الاحساس الادبي في خلد المتحزبين ! فانه بينما كانوا يتخذون بالاستانة ـ باي حق ياترى ؟ ـ القصور الضخمة مسكنا لهم تلك القصور التي غـدا الكثير منها طعمة للحريق بسبب تفريطهم . بل بينما كانوا يستهلكون بدون خجل المـوارد القليلة التي ترد على العاصمة . كان الاهالي وعيالهم والمهاجرون الذين بارحوا اوطانهم تخلصا من نير اليونان وفظائعهم الدموية يقضون فصل الشتاء تحت خيام مقامة بين جداري مسجد ويموتون جوعا

ان الحصار الذي نصبه الانكليز بدون مراعاة لسنن الرفق والحنان البشري كان مجلبة للمسغبة على امة قد استنفدت الحرب مواد معيشتها . كما ان الصناعات وادوات

النقل وسائر مظاهر الحياة قد عطلت لاكراهنا على القبول بمعاهدة مقامة على دوس مبادىء الادب . وفوق ذلك فانهم انتهكوا حرمة الاحتشام لحد ان استباحوا السرقات تحت عنوان السخرات والتفتيش وما ضربوه من الخطايا على من خالف امر شرطتهم

اما اعوان بوليس الانكليز فانهم اتخذوا مبدأ حرية المرأة ذريعة للتحريض علانية على ارتكاب الفسق والزنى . وزد ان الارشادات السياسية اصبحت آلة يعملون بها لاستمالة الشعب او لتقسيمه على بعضه . قدوا بالمال والسلاح الخونة الطمعة . و الجموا الصحافة المحلية التركية بدعوى اجراء المراقبة التحزبية عليها . فمثلهم كمثل الجاني الذي يكم فم المعتدى عليه لاخفات صوته خيفة ان يصرخ بملء فيه يا للسارق ! يا للقاتل !

وخلاصة القول ان القواعد الخرقاء التي سيروا عليها بلادنا كرها من عهد الهدنة بما اثر في حياتها الاقتصادية والاجتماعية كانت لها عواقب وبيلة تفتك يوميا بالابدان والعقول . وتظهر جسامة الخطر الذي قذفت بنا اليه مطامعهم النهمة وما يفضي اليه اعمال السياسيين عند استسلامهم لعوامل الحسد والبغضاء . اذا فهم يسعون في تقويض كياننا وتخريب مجتمعنا . فيقتلون الجسد بحرمانه من الغذاء والعقل بالضغط والامتهان

من اقوال فلاسفة الاقدميين ان البشر اخبث اجناس الحيوان . اذا صح هذا هلا يحق لنا ان نقول ان الانكليز اخبث اجناس البشر ؟ فان المسلمين اوقفتهم الحوادث على حقيقة ما يظهره لهم رجال اوربا . واصبحوا معرضين عنها بكل اباء . فلن يأخذهم الغرور بمظاهر مودتها الكاذبة . فشتان ما بينها وسنن الادب !

قال الشاعر الفرنساوي لامرتين « تبا لمن تطاوعه نفسه على الترنم

بالالحان ورومية تشتعل نارا ! » لو امكن لهذا الاديب الـذي كان يحب الاتراك وياخذ بناصرهم ان يشـاهد شدة التعاسة التي سلطوها عليهم قباية عبارة وباية لهجة يعرب عن سخطه ومقته لهذا الصنيـع !

ان الحروب الصليبية كان من تأثيرها ان استيقضت الامم الغربية في القرن الثاني عشر وتهيأت للعمل

كما ان السياسة الغبية الجائرة التي سلكتها الدول المتحزبة كان لها مثـل هذا الوقع في الشرق . فافاقت من جرائها شعور الشعوب فاحتجوا عليها بمـا لديهم من القوى . واذ لاح لهم خبث مبادئها قابلوها بنفور ونشوز . فلا سبـيل اليوم لان يسكـنوا للعهود التي تعطيها الدول الاوربية واميركا . كما انه اصبح من المحال ان يغتر عاقل للمعاهدات التي تمضيها تلك الدول . فان عبارات التمدن والانسانية والديـن التي خدعوا بها العالم لم تعد تـثير في النفوس الا الفزع والشكوك . هذه العبارات نفسها قد خابت الـثقة في مدلولها

يظهر ان ادمغة ساسة اوربا قد اصابها تخدر في مدة الحرب . ويلوح ان ابصارهم ضربت عليها غشاوة حجبت عنها انوار الرشاد . والا كيف يعقل انـ يوافقوا على اعطاء الاستانة لامبراطور روسيا ؟ افلا يعلمون ان روسيا الامبراطورية المتغالية في التعصب اذا انـتصرت وتربعت على اريكـة البسفور تصبـح خطرا لا نزاع فيه على السلم بالعالم اجمع ؟ فلسوف يحين وقت يعترفونـ فيه بفضل الدولة العثمانية على اوربا بايصادها ابواب الدردانيل !

ورب قائل يقول ان العواطف الانسانية التي ضغطت الحرب على انفاسهـا قد عادت لزهرتها . وان هذا الضغط قد تـقلص مع تـقلص الحرب نفسها

فليسمح لي هذا القائل ان اوجه عليه سؤالا . « الم تشعر ايهـا المتبصر اللبـيب ان حالة الحرب هذه التي تجافي الشفقة والحنان لا زالت مسلوكـة مع

الترك » ؟ فلربما يدرك الماسكون على زمام الامور الخارجية بانكلتيرا ان هذه الحرب قد ادخلت على ضمائر المسلمين اعظم التغييرات وانه قد انبثق للانسانية عصر جديد !

لحد هذه السنين الاخيرة لم يكن للولايات المتحدة ادنى مشكل مع تركيا الا المشاكل التي يثيرها تعصب مبشريها

على ان مبدأ « منرو » (١) اراحنا من دسائسها الرسمية . بيد انها شاركت في هذه الحرب انقيادا لعوامل الانانية والاستئثار ومنازع المصالح الاقتصادية ـ لا حبا في المبادىء الانسانية كما زعم رجالها ـ (٢)

فما كان من هذه المشاركة الا ان الحقتنا بالاربعة عشر بندا من البرنامج الوسني ـ ويا لها من بنود طائرة الصيت ! ـ وغير ذلك من التصريحات الرنانة التي كانت كسراب بقيعة . فتلقتها الامم الضعيفة بلهفة كتلقيها لوحي مقدس وعدتها نعم المرهم لشفاء اسقامها وفك عقالها ـ فما هي الا مواعيد كاذبة وعد بها الاميركان العالم ثم تقاعسوا عن ابرازها من حيز القوة الى الفعل . فخدعوا العالم باسره . لكنهم احطوا في آن واحد من سمعة بلادهم . الم يكن الاجدر

---

(١) « منرو » رئيس الجمهورية الاميركية من عام ١٨١٧ الى عام ١٨٢٥ . فمن مبادئه السياسية التي اتخذتها بلاده قانونا لها ان الولايات المتحدة لا تتداخل في شئون الدول الاوربية وتمنع هذه عند الاقتضاء من التداخل في شئون دول اميركا الشمالية والجنوبية .

(٢) على ان احدى صحفهم المسماة « السن » لم تخف هذه الحقيقة حيث قالت في عدد يوم ٢٥ فيفري ١٩١٩ « من المحقق ان الاميركيين لم يدخلوا معمعة الحرب تعشقا في الانسانية . بل اننا لم نعبر محيط الاطلانتيك الا لتخليص انفسنا » ـ ربما عنى الكاتب بلفظ « تخليص » اراحة ارباب رؤس الاموال من المزاحمين الاجنبيين !

بهذه الامة التي نازلت الانكليز ببسالة في سبيل استقلالها ان تنجد شعبا ينازل اليوم الانكليز ايضا رائما الوصول لمثل تلك الغاية المقدسة ؟

ان الولايات المتحدة لها موقع جغرافي ليس له مثيل . ويمكنها لو ارادت ان تبقى رافلة في صعيد العز والجاه الادبي . واقفة في وجوه الظالمين متصدية لقمع مكائد الكائدين الذين يرون في جناياتهم على السنن الادبية موردا يستثمرونه . اني لا ارى سواها اكثر منها اهلية لتكون بكل نزاهة وبكل انسانية الفيصل بين الظالم والمظلوم

لكن هيهات ان تطمح الى مثل هذا الموقف الشهم ! اذ يصدها عنه ارباب رءوس الاموال من جهة ومن اخرى التعصب الاعمى الذي افشاه في القلوب المذهب البروتستاني . فما كان من حظها الا ان سقطت وحشرت نفسها في زمرة الانتفاعيين . باذلة هي ايضا قصارى جهدها في ايجاد نصيب لها من . . . . . بيترول الموصل !

اما ايطاليا فان حكومتها بعد احتلالها طرابلس الغرب صارت تعتبر بالشرق كعدو للاسلام وزال الوثوق في صداقتها . كما ان لها الحظ الاوفر من المسؤلية في الثورة الالبانية و الحرب البلقانية . غير ان وكلاءها بالاستانة والاناضول سلكوا بعد الحرب مسلك الاستقامة حتى خامر نفوس الشرقيين حصول انقلاب في سياستها . فانه يلوح على الحكومة الايطالية اعتناؤها بانتهاز الفرص لتنسينا اعتداءها القديم وتربط مع تركيا روابط المودة ـ ان لم يكن روابط التحالف

لكنها سياسة وان كانت مفيدة جدا لرواج بضاعة ايطاليا بالشرق الا انها لا ترضي فيما يظهر ثلة من السياسيين الايطاليين . و قد عاضدهم في معارضتهم لها ارباب النوازل المالية الذين يؤثرون السعي وراء الارباح العاجلة . حقا ان التكالب الممقوت على جمع الحطام او كما قاله الشاعر اللتيني فرجيليوس

auri sacra fames (التعطش الكريه للذهب) لا يسدي الا شر النصائح . وهي لعمري نصائح سينجر منها لايطاليا اذا استسلمت اليها حرمانها من الاعتبار الممتاز الذي احرزت عليه بتركيا بعد الحرب

لقد رسخ الان في عقول الاتراك رسوخا لا ينقشع ان السياسة الغربية مهما اتت ببرنامج اصلاح او تدخلت في شؤنهم الا وكان من وراء ذلك مكيدة من المكائد . فما حملهم على هذا الاعتقاد الا النتيجة الحاصلة من سلسلة الحوادث الاخيرة . وهي التي زادت عواطف الاحتراز والتحذر مكانة في نفوس المسلمين . فلو سلكت السياسة الغربية مسلك الاستقامة معهم لوجدتهم ممن يفيدون السلم و الانسانية

* * *

لقد ادرك القارىء بدون شك اني بقدر ما نددت بارباب الحل والعقد من الغربيين لسوء نواياهم نحو الامم الشرقية اثنيت على الادباء والمفكرين الذين يحق لاوربا ان تستتيه عجبا بهم وتجر اذيال الفخار مما انتجته قرائحهم الجيدة . ذلك لاني رايت من واجبي نحو وطني ونحو سائر الامم ان افصل الحي من اللي وادعو ذوي المقاصد الحسنة للبحث معي عما يوفق لايجاد نظم حرة تصون مصالح الشعب التركي من استئثار المستأثرين وتقي حريته من تهديدات المتسلطين

ولقد اداني شعوري بتحتم علاج الاسقام التي تؤلم مواطني الى البحث عن كل مساعد ودود . فان الانسان متى طلب زيادة الرقي او قام لمكافحة الجهل والاوهام وتصدى لقمع من يحاول ان يرجع بالشعب القهقرى يحتاج من غير بد الى المساعدة ممن هو اغزر منه علما واقوى منه سلطانا . ليس من الحصافة انكار فائدة التضامن البشري لكبح جماح القوات المالية . والتوقي من مهالك الكحول . والتفصي من اخطار حرب جديدة لاجل الافيون او زيت البترول

ان كل سياسة او عقيدة ترمي الى التفرقة بين العناصر لتتخذ من ضعفهم ذريعة للاستيلاء عليهم يجب ان تزول حتما . كما ان كل امة عظيمة ذات شرف وسمعة تغار عليها يجب ان تتحاشى عن معاملة غيرها بما لا ترتضيه لنفسها

ولكي يسلم القارىء الكريم بهذه الحقائق لا ارى بدا من ان ازيل الغشاء عن الاسباب والغلطات التي منها تولدت الحالة الراهنة واثارت خواطر العالم الاسلامي وبعثت في نفوس بنيه سوء الظن باوربا . فان من واجب خادمي الانسانية وعشاقها ان يكونوا على بينة من المكائد التي دبرتها لنا السياسة الغربية . فيتسنى لهم اذ ذاك قمع مساعيها واحباط مراميها . ولئن لاح للقراء اني ارتكبت شيئا من الشطط والشدة في اللهجة عند التكلم عنها فما غرضي من ذلك الا تبشيعها في انظارهم وحملهم على مقتها والتباعد عنها

لقد حان لعصر الاخوة وتكاتف الامم ان يعقب عصر الكذب والتباغض وغيرها من المغالطات المفرقة بين الشعوب . انه لعصر يصبح فيه من ضرب المحال اعتبار السياسة فنا يقصد به تغرير العالم . فتكون فيه استقامة المنزع وعفة السريرة من اعظم الصفات المطلوبة حتما من قواد الشعوب

فمن موجبات الاسف والكدر ان يتمادى الغربيون في غباوتهم حتى يثبتوا للاتراك ان الاخوة والتكاتف والعدالة ليست الا شنشنة فارغة يفوه بها رجالهم لاستهواء الافئدة ومخادعة العقول

نعم لا انكر ان الصدق مجلبة للبغضاء وان المتصف به كثير الاعداء . وهو ما عبر عنه الاديب اللتيني تيرانس بقوله « الحقيقة مطية البغضاء ». فان الناس لا يذعنون للحقائق الا اذا جاءت تمالق احساسهم او تساعد مصالحهم . بيد اني لا اشعر باحتياج لهذه الممالقة اذ لا سلطان على مشاعري غير القيام بالواجب

تمادت اوربا منذ الف عام في طلي دماء الملايين منه الخلق ، وما من عامل

لها على ذلك سوى تعصبها الديني وطموحها الى التسيطر وما تعزوه لنفسها من الحق في امتلاك البقاع السحيقة . فافشت في النفوس سموم الحقد و لواعج الحنق واخلت بروح النظام واوقفت سدا منيعا في وجه السلم وحالت دون انتشار الحضارة بالشرق افلم يأن لنا ان نصرح لها كفى ؟ ان الانسانية تطالبك بكف القتال والاقلاع عن سياسة المجافاة

لا يحق بحال لمعاصرنا الاوربي ان ينتسب للحرية والعلم والفطنة ان لم يستفد من علقم الدروس التي ناولتنا الحوادث اياها منذ عشرة قرون . فان هذا التوحش المخجل الذي دام امدا طويلا لفيه الكفاية والزيادة لكي تنتبه الالباب مهما كانت سذاجتها وترتجف منه القلوب كيفما كانت قساوتها

محال ان تقوم اصوات المدافع برهانا على افضلية الصليب على الهلال . ضرورة ان هناك مشكلا لا يحله الا العقل . بل ان العقل نفسه الذي جبل على اباءة الخضوع لغير الحقائق الايجابية ربما عجز عن حل مشكل يرجع امره في الحقيقة للاحساس . وعلى فرض وجود وجه لحله فلا رجاء في اقناع ذوي المطامع والاغراض . اذ ليس بالقليل عدد الذين يتخذون من ضعف الارادة البشرية موردا لتمعشهم . وهيهات ان اعلل نفسي بجمع مؤتمر ديني تشارك فيه سائر الامم لعقد ائتلاف قلبي بين معتنقي الديانات التوحيدية الثلاث . فان الامبراطور المنقلي « اكبار العظيم » كان حاول في القرن الثاني عشر التوفيق بينها غير ان محاولته هذه كان نصيبها الخيبة والاخفاق . كما ان كثيرا من المفكرين بالقرنين الثامن والتاسع عشر اعتنوا بالبحث عن سبيل الوفاق في هذا الشان . وهو حلم لذيذ طالما كان يحلم به صديقي الاب هياسانت . لكن كل هذه الجهود الجليلة ذهبت ادراج الرياح لفقد قاعدة علمية يمكن اثبات صحتها بصفة نظرية. فان الاعتقادات اللاهوتية لا تكفي لتوحيد رغائب الشعوب وتقريبها من بعضها.

بل انها عاجزة حتى على ايجاد الالفة بين الكاثوليكيين من جهة والأرثدوكسيين والبروتستان من اخرى . فلا سبيل لاية حقيقة غير الحقيقة الايجابية ان تكون الرابطة الوثقى بين افراد البشر سوى انها حقيقة لا تركن للاوهام الباطلة والاهواء النفسانية . ولذا لم تفز باخضاع الاجماع لسلطانها . فان رجال الدين اذا تدينوا باديان مختلفة لا يحصل التقارب بينهم — فضلا عن الاخوة — الا اذا احسوا بخطر يهدد مصالحهم — فعند ذلك قد يتوفقون لتكوين جامعة تضم شتاتهم —

وعلى كل الحالات اذا ثبت انه من الصعب ايجاد اتفاق صادق بين الامم او من المحال ان تضع عوامل البغضاء او زارها افلا سبيل على الاقل ان تجمع تلك الامم الرأي على طريقة معقولة سلمية تسلكها دون غيرها في التبشير الديني وتجعل حدا لما يسمونه التدخل السياسي لفائدة المسيحيين ؟ والا فالعقل والعدالة يحكمان على الامم المسيحية ان تعترف لجلالة السلطان خليفة المسلمين بحق توجيه مبشرين لبلدانهم والتدخل لفائدة المسلمين المضطهدين فيها . فلا شك انه يكون لديه من التشكيات اكثر مما تلقاها من تلك الامم بقطع النظر عن التي ثبت بطلانها

لعلي ارتكبت شططا فيما اطلبه من اوربا وهي في حالة اختباط متزائد وقد الفت منذ دهور واجيال معاملة العالم الاسلامي بعوامل البغضاء التي زادتها الاحقاد السياسية تسمما . لكن العمل الذي ادعو اليه في هذا الكتاب اصبح متأكدا لتقرير السلم والتهوين على العقول . اذ بدت عليها علائم الاغتياض والحنق فان لم تقلع اوربا عن غيها يحصل من غير بد لسائر شعوب آسيا وافريقيا يقين متزائد ان الدول المسيحية انما هي تقوم بتنفيذ برنامج منظم غايته دوسهم نهائيا تحت ارجل التسيطر والتجبر . وعندئذ يكون من اهم الواجبات المفروضة على جميعهم — بدون ميز بين الاجناس والمعتقدات — ان يعقدوا

الخناصر ويشمروا على السواعد ليذودوا عن حريتهم واستقلال بلادهم ويصونوا ناموسهم البشري الذي طال هوانه وعظم امتهانه

* * *

ينبغي ان لا يفهم الجمهور من فحوى هذا الكتاب اني اقصد التهكم على بعض عادات اعتادتها المدنية الغربيه كما فعل ذلك جماعة من الفلاسفة اضراب منتسكيو و ج. ج روسو وتلستوي . فلا وربك لا انتقد على هذه المدنية لمجرد التلذذ برشقها بسهام الانتقاد . ولا اقصد تعليل النفس بذكر ما يأتيه غيرنا من الفواحش لا تخذ من ذلك مبررا لاعمال حكومتنا . بل جل قصدي هو اقامة الدليل على الذين يعيبوننا بانهم ابتلوا بعيوب هي اخزى وانكى . ولكي اظهر للذين يتبجحون لملاحظة القذى الذي في اعيننا انهم غفلوا عن ادراك الجذع الذي غشي اعينهم وطمس على بصائرهم

لقد صادف ان كان نشر هذا الكتاب في زمن افاق فيه التعصب الديني والتغالي في الوطنية . وهما نقيصتان تولدتا حتما عن الحرب الكبرى . فساد تأثيرهما بالعالم بحيث اينما تحول النظر لا نرى الا تقهقرا ادبيا مخجلا . حتى ان كثيرا من الناس بلغ بهم تشامخهم بوطنهم واحتقارهم لاوطان سواهم لحد الهذيان . فكانت النتيجة الجلية ان المصلحة السياسية اتفقت من جديد مع المصلحة الدينية . فما ذكرت المضار التي تسببت عن هذا التعصب في الماضي الا لاحذر معاصري من الاخطار التي قد تنشأ عن لواعج البغضاء المتمكنة في النفوس .

اني لو كنت من رجال السياسة او بعبارة اخرى من اولائك الناس الحذرين الذين يراعون في اعمالهم مقتضيات الظروف لما تجرأت على نشر هذا الكتاب . بيد اني رأيت في ابرازه للخارج خدمة لمصلحة بلادي . فما انا الا باذر لحبة الحق والصدق وقصارى رجائي ان ينبت البذر . فما ذا يهمني بعد ذلك مصيري ؟

فان الذي يسير فيما يكتبه على حسب ما يروق للذوق الرائج انما هو يهتم بمصلحة شخصه اكثر مما يهتم بحفظ كتاباته

ولقد يعسر على مدمني الكذب وحلفاء اصحاب الاوهام والمتهافتين على خدمة المطامع التجارية ان يتصوروا كيف يمكن لاحد اخصامهم — لا سيما ان كان من الاتراك — ان يرى الشرف في الصدق والمروءة في الاصداع بالحق

بهذا الكتاب اخاطب جميع من يستطيعون ابداء رأي حر من كل قيد والعمل بما تمليه عليهم ضمائرهم الحرة . به اخاطب ذوي الالباب الذين لا يرهبون معرفة الحقيقة ويستطيعون الاصغاء لمن يسمعهم صوتها الرهيب . فان عددهم ليس بالقليل اذ يوجد وراء اوربا المتسيطرة المتشبثة باذيال الكنيسة وارباب المال اوروبا اخرى ذات فكرة حرة ميالة للسلم الاجتماعي . انما هي اوربا لا زال نموها في ازدياد ولم يشملها الانحطاط الادبي . فان العالم يشكو سقمه القاتل المتولد عن سوء النظام واختلال المسؤلية السياسية . ولئن خابت السياسة لم تخب الانسانية فيجب على المتبصر ان لا يخيب ظنه فيها لان ذوي العفة والنزاهة لا زالوا يمثلون الجم الغفير . فاليهم اوجه ندائي ليصدعوا بانتمائهم للحرية الحقة ويحثوا كتابهم وخطباءهم ان يكتبوا ويخطبوا في الناس بما يبعث العواطف الكريمة في النفوس

لا اشك ان القارىء الكريم يقابل بالصفح ما ارتكبته من شدة اللهجة . فاني عند ما اشعر ان وطني صار اثرا بعد عين وعند ما اشاهد خيبة مبادىء الاصلاح — خيبة وقتية بحول الله — تلك المبادىء التي وقفت لاجلها حياتي بل عند ما انظر لتلك الويلات التي نشأ جلها عن غلطات السياسة الوبيلة التي توختها اوربا يكون لي الحق في التأفف من اوجاعي وآلامي . فان الخيبة الادبية للسياسة التي اعترف بها وسلم بحقيقتها جميع المفكرين استمد منها عذرا

ارجو له القبول يبرر غلظ التعبير الذي دفعني في ثيارة اهتزازي لوطني . انما هو اهتزاز يشعر به كل انسان لا زال يرنو الى العواطف البشرية

كيف ! أ أوربا ترمي بلادي بكل انواع القذف وتعبث باستقلال كيانها وتصب عليها سموم افتراءاتها وانا الازم الصمت ؟ ان هذا لا يكون ! ان هذا فوق احتمالي بل اني لم ار نفسي مشططا مهما رفعت صوتي لاحتج على تلك التهم التي تحوم حول اغراض سياسية محضة . فان الظالم يسلط انواع البهتان على ظليمه ليبرر ظلمه .

على ان كل طعنة من هذه الطعنات يعتبرها الاتراك مدحا و شرفا لهم لو لم تعقبها عواقب سياسية . اذ علامة اليمن لامة ان يوسمها اعداؤها سبا . لا سيما ان كان هؤلاء من الدول العظام . فلينظر القارىء من هي الدولة التي تسبنا وتعيرنا

نعم لا انكر ان تاريخ تركيا يعد صفحات كثيرة ملطخة بالدماء ومفعمة بالرعب . لكن متى كان تاريخ الشعوب الاخرى مرتلا دائما للرحمة وحاملا في مطاويه الخير والسرور ؟ او هل كان لعوامل البغضاء وتأثيرات الجهالة والتعصب والحروب ضحايا ببلادي اكثر منهم عددا بغيرها من الأقطار ؟

يقولون ان الاتراك محبون لسفك الدماء فيلزم تكبيلهم بجندارمة اوربية — ليسهل استعبادنا فيما يظهر — لكن واحسرتاه ! لا نجد شعبا خلا تاريخه من الفضائع و اراقة دماء الابرياء . فالعبرة حينئذ ليست في تسليط انواع النمائم على امة . بل ان يبرهن مسلطها انه اميل للنزاهة و انقى تاريخا واقل اجتراحا للذنوب و الاثام من الامة المشتومة . لقد كتب المؤرخ الانكليزي ريشار ككنكريف هذه الجملة « لو عممنا النظر وجلنا جولة في تواريخ سائر الامم نكاد ان لا نجد باوربا امة واحدة بقيت ايديها طاهرة من كل اثم حتى تستبيح شتم تركيا و شتمها بالافراط الذي شاهدناه » . انه يجب

على الامم كما هو واجب على الافراد ان تستوعب ما يخامر ضمائرها قبل تسليط التهم على غيرها . هذه هي القاعدة المرعية . فهل من متبع لها ؟

لقد خصصت بابا من هذا الكتاب وجعلته سجلا لاشهر الفضائع التي خلد التاريخ ذكرها . كالاجهاز الفظيع الذي وقع على « الآلبيين » بفرنسا وموبقات دواوين التفتيش والاضطهادات المرجفة بانكلترا على عهد الملكة ماري تودور

وختمته بذكر الافعال التي سمح به كرم الانكليز من كبح جماح الارلنديين والمصريين والهنود فهل يجسر الذين اتخذوا قذف بلادي ديدنا لهم ان يقابلوا هذه الفضائع الشنيعة بما ينسبونه الينا ؟ او هل يصدق ان يقال في حق اوربا وهي تقضي علينا بحكمها المبرم بدون اصغاء لمقالنا بل وهي طالما اعرضت عن اجابة مطالبنا المتكررة في اجراء ابحاث عما تلصقه بنا انها منصفة او مخلصة النية ؟ فانا لم نر في ماضيها طهارة تؤهلها لخطة القضاء .

يقولون ان الترك متوحشون او انهم من جنس سافل . وان نقائصهم المركوزة في طباعهم منذ الفطرة تقضي عليهم بالعيش تحت كابوس الاستيلاء الاروبي

انما هي عبارات شتم بذي عودتنا السياسة سماعها . بيد انه فات هؤلاء القائلين ان أولائك الترك ما كانوا يعتبرون بهذا الاعتبار الدني حينما كان ملك فرنسا فرنسوا الاول يخطب ودهم ويستنجد بهم لمكافحة اعدائه . ولا عند عقد معاهدة باريس بعد حرب القريم . لكن وا حر قلباه ! ما من بيت دخله الضعف والفاقة الا وانفتلت عنه الحظوة وهجره الرضى !

ان الشره الاستعماري قوى عند بعض الانكليز كبرياءهم المعروف وتجبرهم المألوف حتى صاروا يعتبرون سافلا كل شعب لم يكن من جنسهم ويستنقصون كل من لم يكن بروتستانيا . بحيث يجوز في نظرهم معاملة تلك الشعوب السافلة

— على زعمهم — بما يروق لهم . وناهيك بالمثل الجاري عندهم القائل « ان الانكليزي لا واجب يقيده الا بالنسبة لمن يساويه » .

فالامم بقدر ما تصل اليه في حالتها الادبية يكون علوها او انحطاطها . وليس من العلو في شيء ما كان مبنيا على القوة ونصب الحبائل والتفنن في جمع الحطام بعد ابتزازه من اربابه بطرق يعلم الله بعدها عن المناحي المشروعة . ان بناء اقيم على هذه الاسس لايلبث أن ينهار ويحيق به البوار .

هم يصفوننا تارة بالسفالة وطورا بالتوحش اما لاننا لا نشاطرهم افكارهم ولا يرجون منّ ورائنا فائدة واما لاننا برهنا في اكثر من موقع على اننا ابناء جنس اكتسب اعظم فضيلة بشرية . الا وهي فضيلة الاصطبار على المحن والتجلد لتلقي المكروه من الغير (١) وزد على ذلك اننا من جنس متين القوى وان الناس يبغضون عادة الاقوياء

يقولون ايضا إننا اعداء للرقي والحضارة العصرية حتى في زمن الهدو والسلم اني استسمح متهمينا في جعل مقايسة بين الحضارة التي كان عليها المسلمون ليس على عهد العرب والسلجوقيين ـ اذ من العار على السيف ان يقاس بالعصا ـ بل في عصر اقرب عهدا اعني القرن السادس عشر وان شئت قلت على عهد السلطان سليم من جهة والحالة المتأخرة التي كانت عليها اذذاك جل ممالك اوربا من اخرى بل اذا ارتقينا في سلم التاريخ الى ما بعد ذلك العهد بثلاثة قرون نرى مـا فعلت اوربا برجال عظام من ابنائها كبيان وجيرار وجكار وفلتن وبرمانتي الـخ . فلربما احمرت خجلا وجوه ثالبي المسلمين لما يدركون جسامة الجريمة التي اجترمتها اوربا المتعصبة المتكالبة على الغزوات السهلة في تقويض المدنية الاسلامية واقامة العراقيل الحائلة دون نهوض المسلمين . وذلك من يوم واقعة « بواتي » الى الحملة الاخيرة التي

---

(١) قال بياس احد الحكماء السبعة لبلاد اليونان « اشقى الناس من لا يستطيع تحمل الشقاء » .

حملتها عصابات اليونان على بلاد الاناضول والتي هي فيا ارجوه آخر حلقة من سلسلة الحروب الصليبية .

لا والله ان قابلية الرقي لا تقل عند الاتراك عما هي عليه عند الفرنساويين او الروسيين . فان الاستاذ الانكليزي مين اشار الى اوربا لا الى سواها في قوله «مما لانزاع فيه ان جل الشعوب لم تبدعليهم ابدا ادنى رغبة في ترقية شرائعهم فان الهجوع في سبيل الرقي وان شئت قلت الاعراض عن التقدم هي الحالة الاعتيادية للانسانية . اما السير الى الامام فهي حالة شذوذ» .

انما الانسان حيوان مجبول على الميل الى حفظ عاداته من التطور . ولقد درس الفلاسفة من عهد بعيد الملامح المختلفة لمنزع حفظ النوع عند البشر وايضا عند الحيوان وسموها néophobie et misonéisme (١) فاثبتوا ان في ادوار انتقال الانسانية من حالة الى سواها وبعبارة اخرى في ازمنة هيجان الافكار واضطرابها حيث يكون الامن مهددا تظهر منازع الارتقاء في ضعف بين تلقاء منازع المحافظة . فان الجمهور يدفعون عنهم المبتدعات التي يفاجئهم تسليطها عليهم . لا سيما اذا كلفهم تنفذها تضحيات او اكرهوا على المشاركة ماديا في هذا التنفيذ

قال غستاف لوبون في كتابه «روح الاجتماع» «من العواطف العميقة جدا في نفوس الجمهور الاشمئزاز بدون شعور من جميع المبتدعات المؤدية لتغيير كيان حياتهم الحسية . حتى ان القوة التي احرزوا عليها اليوم في الحكومات الديموقراطية لو كانت بايديهم في زمن اختراع المعامل الميكانيكية وتسخير قوة البخار وتسيير الارتال على السكك الحديدية لاستحالت هذه الاختراعات او كان اكتشافها مفدى بثورات ومذابح متكررة» .

ولقد قص المريشال الفرنساوي دي مرمون في مذكرات حياته «ان الاميركاني

---

(١) تعريبه «النفور من الجديد» او «بغض الجديد» .

فلتن توفق لتسليط الآلة البخارية على الفلك لتكون لها آلة محركة وعرض اختراعه هذا على بناپارطي . ولما كان لهذا الاخير اعتقادات وهمية صيرته معارضاً لكل شيء جديد فانه رفض ماعرضه عليه فلتن » . فهل نستنتج من هذه القصة ان نابليون كان عدوا للاصلاحات ؟

سطرت في كتابي هذا المقايسة التي اشرت اليها . ولا ادعي بعد ذلك ان لنا قيمة تفوق قيم غيرنا . كما اني ذكرت الافعال الملومة التي صدرت من الشعوب الاخرى ونددت بها تنديدا . غير اني لم اقصد من ذلك تزكية مثل تلك الافعال عند صدورها من بعض الاتراك ايضا . فان تركيا كغيرها من الدول كان لها من السلاطين من اوغلوا في الطغيان ومالوا اسفك الدماء البريئة . ومن رجال الدين من تغلبت على نفوسهم عوامل التعصب والمنازع الرجعية . ومن رجال السياسة من استسلموا لحب الرفعة ولخدمة مصالحهم . فما قصدت الا اقامة الادلة على اننا ما ابتلينا بكل العيوب التي ينسبها لنا اعداؤنا الذين يحقرونا ويوهمون غيرهم انهم انصار الفضيلة وخدام الانسانية

ان الحكم على الشعب يلزم ان يكون لا باعتبار نبذة قصيرة من تاريخه بل باعتبار كامل ماضيه ليمكن ادراك كنه الاسباب الاولية لحالته الاجتماعية والسياسية والادبية معاً .

هذا هو كل ما سعيت في ايجاده بغاية الايجاز في هذا الكتاب . ولكي تسهل علي الخطة التي فرضتها على نفسي ويتسنى لي السير في مناحيها بوضوح تام قسمت الكتاب الى ثلاثة اقسام

ففي القسم الاول بينت ان العلائق السياسية والعسكرية بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ابتدأت من الحروب الصليبية . فأداني هذا البيان الى البحث في جو تاريخي قد عكرته عوامل البغضاء والازدراء التي كونتها وابتكت بيننا نيرانها اوهام

القرون الوسطى على اهم دواعي الفتن والحروب التي اشهرت على العالم الاسلامي .

ثم توجدت علائق سياسية يتخللها شيء من الوداد بين الشرق والغرب بدايتها من عهد الملك الفرنساوي فرنسوا الاول . فدرست في القسم الثاني من الكتاب المحاولات والتدخلات السياسية التي اتت بها الدول العظمى عموما بصفة غير شرعية ــ ان لم اقل بطريقة جافية ــ واعمال التشويش والارتباكات التي قامت بها روسيا خصوصا . وختمته بسطة في الغزوات الاستعمارية كاحتلال مصر وتونس والادوار التي لعبها المبشرون .

وفي القسم الثالث درست الدور الذي قبض فيه « الجون توك » على زمام الحكومة والحوادث التي مرت علينا من عام ١٩٠٨ الى يومنا هذا .

اني لم اقتبس من التاريخ الا الاسباب والنتائج التي تهم مبحثي . كما ان الوقائع التي ذكرتها نقلتها برمتها من مؤلفين اوربيين . ومهما اخذت شيئا الا نصصت عليه .

اني اشعر في نفسي بألم لا استهين به عندما احس بعجزي لكي ابسط بكلتا يدي ما اضمره لبلادي من الخير والرفاهة . فلم يبق لي اليوم من وسيلة بين يدي الا قلمي . وهنا ايضا اشعر بحسرة لعجزي عن تسييره كما اريد في لغة احبها بيد اني دخيل عليها ولعدم تمكني من الانطلاق في ميدانها حسب مناي . فاني كثيرا ما لقيت صعوبة في ايجاد العبارة الصحيحة والالفاظ الجزلة التي انشدها . فخاطرت بعبارات كثيرة ربما لا تؤدي كل المعاني التي اقصدها .

ولقد اعترتني اوقات التردد المر حتى اني لما استوعبت ما يشق علي من الاجادة في شرح المعنى واعطاء الاوصاف اللائقة تساءلت قائلا « ايجدر بي ان اعدل عن النضال عن وطني استسلاما لعجزي عن الباس ذاك النضال من سحر البيان حلة ناصعة تروق للسامعين ؟ »

لكني اعتبرت ان السكوت في هذه الظروف من علامات الرضى . وهو امر

يعجبني اكثر من عيوب قلمي . فرجعت عندئذ سلوك الطرق السهلة الطبيعية في التعبير عما اراه غير متسائل هل تحريف المعنى يحول دون سهولة فهم كلامي مقتديا بالأثر الفرنساوي

« أد واجبك كيفما كانت عليك عواقبه »



روايات المقادسة

ان المقادسة او زوار بيت المقدس الذين هم اغزر من سواهم علما كانوا عند مروزهم يبحثون عما وصل اليه العالم الاسلامي من حيث النمو العقلي والرقي الاجتماعي . على ان رحلات اولائك النازحين الذين كانوا يقومون بها راجلين تجعلهم يجوسون خلال الديار ويوقفون عصا التسيار في كل مكان . فيتمكنون من ربط العلائق مع الاهالي الذين كانوا يسعون في نشر كل ما يعرفونه من اخلاق وعوائد مواطنيهم

وبهذه الطريقة احرز المقادسة على خبرة تامة من البلدان التي يمرون بها . كما انهم اطلعوا على احوال دواخل آسيا وذلك باصغائهم لروايات القادمين من بغداد واصفهان وكشغر منوديين بسعة في الفكر وسلامة في الذوق نشأتا لهم من اختلاطهم بسكان تلك المدن

كان الرهبان عند اوبتهم لديورتهم بعد تأدية فريضة الزيارة لبيت المقدس ينقلون لابناء جنسهم جميع ما اطلعوا عليه في الشرق . وهي لعمري من اكبر الوسائل لاثارة عاطفة حب الاطلاع وتوسيع النطاق العقلي في العالم المسيحي

فاول شعور يلم اذ ذاك باباتهم القديسين هو الاستغراب الذي يتولاهم حين يعلمون سرعة انتشار الدين الإسلامي على جانب عظيم من العالم يمتد من شمال الصين الى جنوب اسبانيا . فتعتريهم دهشة . وبما ان لفظ « كاثوليك » يفيد

الانتشار والتعميم فانه كاد ان يستحيل على اولائك القديسين الذين كانوا يدعون توحيد معتقدات العالم في معتقداتهم واخضاعها لتعاليم دينهم ان يحتملوا وجود ممالك شاسعة الاطراف خارجة عليهم ودين مزاحم لدينهم تحركه هو ايضا فكرة الوحدانية قاطعا لهم الطريق في وجوههم ويمنعهم عن التمدد والانتشار

ومما كان يزيدهم رعبا واستغرابا علمهم بان تلك الامصار القاصية عنهم والمحيطة ببلاد القدس مهد الدين المسيحي يسكنها العرب اي الكافرون ويدرسون هناك ويفسرون بغاية الحرية قواعد العمران ونظام الاكوان . ويتداولون المباحث الفلسفية المروية عن الفرس واليونان . والامر المدهش الذي لا تتصوره مخيلتهم ان النساء ايضا كن ليس فقط يشتغلن بكل حرية بما يهمهن ويدرن بدون انتظار موافقة ازواجهن شؤن املاكهن ويتصرفن في اموالهن تصرفا مطلقا بل كن ايضا يباشرن التعليم للناس عموما

فما ذلك الا ان « هيباتيا » (١) تلك المرأة التي قطعت اربا اربا بايعاز من بطريرك الاسكندرية قد اخصبت رفاتها تراب تلك البقاع . فانبتت نسوة عالمات بعد هذا الحادث الشنيع بثلاثة قرون . مثلهن بالنسبة لهذه المرأة الشهيدة كمثل العنقاء ذلك الطير الذي يقضي حياته فيموت فيبعث عن عظامه وهي رميم (٢).

توجدت من المسلمات نسوة يبعثن في نفوس الرجال دواعي الرغبة في محاسن الشعر . واخر يشرحن فلسفة ارسطاليس الادبية . ولا يخفى على كل مطلع ان كلية مدينة فاس التي هي من اقدم الكليات بالعالم اسستها في اواخر القرن التاسع امرأة مسلمة من بنات تونس تدعى السيدة فاطمة الفهرية

---

(١) « هيباتيا » امرأة ذات صيت كانت تعلم الفلسفة بالاسكندرية في اواخر القرن الرابع المسيحي. فقتلها من اجل ذلك المسيحيون انتصارا لتعصب مبادئهم الدينية.

(٢) هذا الطير لا يوجد الا في المخيلة الوثنية

ان رؤساء الديانة المسيحية قد اذاعوا في روح الكنيسة التخوف من انتشار حرية الفكر التي جاء بها المسلمون والتي نشأت في آن واحد عن منازع التسامح التي جاء بها الدين الاسلامي وعن العلوم المحررة للفكر التي ورثوها عن اليونان

كان من عادة المقادسة عند رجوعهم لاوطانهم زيارة اصحاب القصور بجهتهم . وكان لهؤلاء ولع شديد بسماع القصص والروايات . فيحدثونهم عن الحرية السياسية بالبلاد الاسلامية حيث كان ابناؤها يعيشون في ظل حكومة ديمقراطية الصبغة ذات نظامات بلدية مستقلة عن بعضها . بحيث كان لهم الحظ في ادارة شؤون بلدانهم ويناقشون فيها بدون ادنى ضغط عليهم بل يرتقون الى تنفيذ ما يقر عليه قرارهم وبعبارة اخرى يبرزون اراءهم من حيز القول الى الفعل .

ولاشك ان اولائك السادة المعبر عنهم بملوك الطوائف وهم الذين تعودوا امتلاك الخدمة والتصرف فيهم بمقتضى ناموس العسف والجور لم يكونوا يتلقون هذه الانباء بدون فزع وفزع . ضرورة انهم كانوا يخشون ان ينبعث في عقول ارقائهم فكرة تضيء لهم سبيل الانعتاق من ربقة العبودية وتدفعهم لطرح نيره عن اعناقهم .

اما الامر الذي كان يفعم افئدتهم رعبا هو اتساع ممالك سلاطين الترك وقوتهم العسكرية وغزواتهم المتعددة . وكفاهم دليلا على شدة شكيمة اعدائهم علمهم بان اولائك الغزاة الآسياويين الذين تصورهم خيالاتهم متسربلين بجلباب الرعب قادمين هكذا من جزيرة العرب قد قطعوا افريقيا بدون ان يعوقهم عن قطعها امتداد اطرافها الى ان وصلوا الى بلاد الاسبان فوضعوا عصاهم فيها . فان هذه التصورات جعلتهم حيارى يفكرون في طريقة التخلص من هذه الاخطار . فدعتهم للاستعداد للقتال وافشت فيهم سموم الضغائن والبغضاء . وضف الى ذلك ان التجار المسيحيين الذين يقطعون هضاب البرينات (١) في رحلاتهم المسترسلة لبلاد المسلمين كانوا ينقلون هم ايضا صدى

---

(١) البرينات سلسلة جبال فاصلة بين فرنسا واسبانيا

ما كان عليه العرب من الرفاهة و الاذواق الرائقة والسلوك الانيق في معاشرة بعضهم وما كان عليه لبس نسائهم من النفاسة والبهاء .

على انه لم يكن الا التجار الذين يشاهدون مآثر الحضارة الاسلامية . بل ان من بداية القرن العاشر كان كل من اراد تهذيب اخلاقه او التمتع بالعيش الرغيد او كان يميل للترف ورقة الخلق يقصد اسبانيا . وهناك يحظى بمبتغاه . كانت اسواق قرطبة وطليطلة وكلياتها مجمعا يضم مثريي اوربا وسياحها الذين يقصدون تلك البقاع تعشقا في جمالها الموهوب و رونقها المكسوب .

ان هذا الشغف بمآثر المسلمين لايقل درجة عند النسوة المسيحيات . لا سيما زوجات الكبراء وربات القصور رغم جهلهن .

فكن يصغين كل الاصغاء للقصص التي تطرق مسامعهن . فينتقش في اذهانهن ما يهم النسوة من تلك القصص كالحقوق الاجتماعية المعطاة للمرأة المسلمة . منها حق التصرف الحر في مكاسبها . وهي حقوق تفوق بدون نزاع الحقوق الممنوحة للمرأة المسيحية . فان معرفة ذلك تثير في نفوس السيدات وغيرهن من النسوة المسيحيات رغبة معقولة شرعا في التمتع بمثل الامتيازات الممنوحة لاخواتهن المسلمات ببلاد الشرق

فعند ما تصور لهن مخيلتهن بحبوحة المسلمين و ما تتزين به نساؤهم من الحلل المزركشة ذهبا وظرافة شبان العرب وشهامتهم والاحتفالات التي تقام لاجل مطاردة الصيد والقنص ومواسم سباق الخيل يبدو عليهن ما لا تخلو منه انثى من منزع الغبطة والتشوق لتلك الحياة الانيقة . ويهتززن تعجبا واستغرابا حين يبلغهن ان المسلمات يكرمن و يمجدن البتول العذراء السيدة مريم مصدقات بعفافها وطهارة حملها بسيدنا عيسى عليه السلام . ولا يخفى ما ينشأ في نفوسهن من الغبطة و المنافسة عند مايقايسن شدة الذل والامتهان المسلطين على المرأة المسيحية بحالة المسلمة وهي متربعة على دست السعادة مكتنفة بجميع الحظوظ . فلا يبعد عن ظني لو نقب احد المنقبين

عن الداعي الذي دعا القديس سان برنار في عــام ١١٤٠ للحكم بقداسة السيدة مريم ان يجلها في نية انتشال المرأة المسيحية من وهدتها وترفيع شأنها حتى ترى في هذا الحكم ترضية ادبية لذاتها .



الغرب والشرق في القرن العاشر

قلت في تمهيد الكتاب ان السلطتين الدنياوية والروحية كثيرا مسا تتحد مصالحهما فتدفعهما في تيار واحد متكاتفتين تلقاء فائدة واجهتها او خطر فاجأها

كانت الهيئة البابوية ذات ثروة طائلة يصحبها طمع شديد ومهـارة نادرة لكن هيهات ان يمكنها ذلك من القيام وحدها بعبء العمـل لمكافحة المسلمين !

فكان رؤساؤها يترصدون الفرص المناسبة موجهين عنايتهم في التفكير في الموضوع والبحث عن انجع التدابير لازهاق روح المدنية الشرقيـة وتقويض كيانها . اذ في بقائها خطر على العقيدة المسيحية وعلى الشرائع المسنونة من لدن ملوك الطوائف بالبلاد المسيحية

غير انهم لم يوجهوا في القرن العاشر سهام احقادهم على مسلمي اسبـانيا . بل كانت انظارهم محدقة بالشرق خصوصا .

نعم لا يجهل البابوات وارباب القطائع ان المسلمين رابضون باسبانيا . لكنهم لم يفقهوا ان في هذا الامر على المسيحية خطرا على وشك الانقضاض . ضرورة ان اولئك المسلمين لا يقلون حضارة عن اخوانهم بمصر والعراق . وتحركهم للعمل فكرة حرة لا تقل مكانة عما هي عليه بالشرق . فكانت مدارسهم وكلياتهم منابع نور يضيء ما حوله . وفي ذلك خطر يتعاظم وباله على الكنيسة بقدر قربه من ابنائها . وقد ظهر ذلك فعلا للعيان بعد مضي قرنين

لكن الجهل كان في ذاك العصر اي في القرن العاشر سادلا غطاءه على وسط اوربا وشمالها لحد ان الرهبان انفسهم لم يشعروا بل لم يدركوا قيمة ما حوت عليه هذه المدنية من قوة الانتشار الاخذة في النمو والتي سيأتيها يوم لا محالة

تزعزع فيه أركان عقائدهم اللاهوتية . فلم تر الكنيسة في الامر موجبا للاكتراث . معتقدة انها في مأمن من جهة شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا) بفضل انتصار شارل مرتيل وشارلمان

وعن ارباب القطائع فلا تسأل . فانهم كانوا لا يحسنون الكتابة والقراءة . بل انهم يرون جهلهم من موجبات الرفعة والفخار . فكيف يتوقفون لادراك الخطر المحدق بنظاماتهم الجائرة من جهة اسبانيا ؟

اما الشعب فليس له صوت في المسألة . مثله كمثل الانعام المكبلة بقيود مكنتها بنفسه غياهب الجهل . له ما للرق من سوء الحظ تتجاذبه قوتان باغيتان سلطة ارباب القطائع وسلطة الكنيسة . كلتاهما مدعية استمداد سلطانها من الله .

قد لول هذه الحالة ان اولئك الملوك لم يعترهم ادنى ارتياب في بقاء عبيدهم واملاكهم في قبضتهم . بل ان الخطر الحقيقي في نظرهم وان شئت قلت ان الخطر المادي الذي يسهل على مداركهم القاصرة اكتناهه مقره الشرق . ولا يتخيلونه الا في صورة زحف من الترك .

من ذلك يتضح ان الجهل المطبق الذي كان عليه ذوو القطائع وعدم اكتراثهم بعرب اسبانيا هما اللذان حولا نظر اوربا عنهم . فالاوربيون اذ ذاك يعتقدون ان معركة بواتي الواقعة في عام ٧٣٢ كانت الضربة القاضية على عرب اسبانيا . وانه لم يبق في امكانهم ان يقابلوا الغرب في ساحة القتال . على ان ممالك اراغونيا وقشتاله ونفاريا تعد حاجزا منيعا حائلا بين المسيحية والعرب قاطعا الطريق في وجه الاسلام . فقد كانت هذه الممالك تشاغب بلا انفكاك مسلمي اسبانيا واقفة موقف الحارس الامين على كيان المسيحية .

وحقيقة ان الامراء الذين خلفوا موسى ابن نصير وطارقا ابن زياد لم

يعبؤوا كمن قبلهم بقطع جبال البرينات . فهناك اسباب كثيرة عاقت عن ذلك . منها ان انتشار العلوم والفنون المستطرفة كون ثروة ورخاء وعيشة بسطة ورفاهة افقدتهم حب القتال ، ولينت فيهم طباعهم الميالة سابقا الكفاح . يقول المؤرخ الفرنساوي فياردو «ان الخليفة الاعظم الحاكم بامر الله حول الرماح والسيوف معازق وسككا للمحارث . كما انقلبت جنوده الصناديد رعاة يبدو عليهم الهدو والسكينة او ارباب صناعات لا هم لهم سوى الكد في العمل . فان الطمأنينة التي انبثت في النفوس بفضل استتباب السلم المدة المديدة دفعت العرب في تعاطي الحرف النافعة . حتى ان قواد الجيش ورجال البلاط والقضاة والايمة يباشرون بانفسهم خدمة بساتينهم و مزارعهم . فكانوا قدوة لجميع افراد الامة »

على ان توغلهم في العلوم اكسبهم ملكة تمكنهم من ادراك قوة اعدائهم باوربا و تقدير قيمتها . كما احسوا ان موقعهم الجغرافي صيرهم بمعزل عن بقية العالم الاسلامي . فلا مطمع لهم في نجدة تأتيهم من الخلفاء بافريقيا او بآسيا . ولذا ما كانوا يشعرون في انفسهم بقوة تمكنهم من القيام وحدهم بحرب هجومية على بلاد الغرب

وضف الى ذلك ان البلاد الشمالية التي تغشاها مدلهمات الغيوم والتي لا يلائم طقسها البارد طباع العرب لم تجد في نفوسهم مكانا رحبا ولم يستفزهم موقعها لفتحها

انتصر المسيحيون في معركة بواتي انتصارا تغالى مؤرخوهم عمدا في وصفه وتضخيمه . وما هو في الحقيقة الا فوز احرزوا عليه ضد غزوة من غزوات العرب

لكن بعد هذا التاريخ استرسلت على المسلمين هجمات المسيحيين بالبلاد الشمالية . فلردها استنجدوا في عام ١٠٨٥ ببرابرة بلاد المغرب الذين هم اشد منهم بأسا في القتال واقل منهم علما . لكن بالاخارة انتشبت في المملكة فتن بين العناصر وقامت مشاحنات داخلية مزقت شمل المملكة . ومن ذاك الحين اخذ يطرقها التأخر والوهن

. كانت اسبانيا الاسلامية تنقسم الى عدة ولايات كادت ان تكون مستقلة عن بعضها . فمنذ دخلت القبائل الافريقية في الجيش العربي والادارة العربية ساد الارتباك عموما وانتشرت الفوضى وقامت حروب داخلية كانت الوبال على سكانها الهادئين . فاستفاد من هذه الحالة اجوارها المسيحيون كمملكة اراغونيا ومملكة قشتالة . فكانوا يجاهرون بعداهم ويدخلون معامع القتال منتصرين لشق دون الآخر ويدبرون المكائد ويدسون الدسائس ليسلطوا العرب على بعضهم . فيجدون في عملهم هذا أحسن معاضد من رجال الكهنوت اصحاب الثروة الطائلة و المهارة التامة . وناهيك من بيان ان طليطلة تلك القلعة التي لها مركز القلب من اسبانيا كانت اذ ذاك في قبضتهم

يتجلى مما تقدم ان الكنيسة و ارباب القطائع لم يكونوا على خبرة صحيحة من امر عرب اسبانيا بالنسبة لبقية المسلمين . بل كانوا يعتقدون وجود اتفاق سياسي موصول بحبل التضامن الاسلامي بين قرطبة و القاهرة ودمشق وبغداد، وحيث يرى المسيحيون فائدة في قطع تلك العروة ليقضوا على وحدة الاسلام ويثيروا الرعب في مخيلة المسلمين فانهم اعلنوا حرب الصليب على الشرق خاصة والحال ان ذلك التكاتف الاسلامي لم يكن له وجود . بل ـ وأسفاه ! ـ لم يكن بين رؤساء الممالك المحمدية الا المنافسات . حتى ان بعض الامراء بلغت في نفوسهم ملامح المكر والخيانة لحد ان اتحدوا مع الملوك المسيحيين لقمع اعدائهم في السياسة وان كانوا من المسلمين . و في ذلك الوقت نفسه كان الغربيون يهددون بتوحشهم وتعصبهم بلاد المسلمين وحقوقهم وحضارتهم

اني لاشعر بغمرات الحزن عند ما ارى الكنيسة والملوك المسيحيين و العظماء من ارباب القطائع يعقدون المحالفات للقضاء على الاسلام . وفي ذلك الوقت نفسه ارى ملوك المسلمين والامراء والفقهاء رغم ابغالهم في التشبث بالسنن

الاسلامية يواصلون الجهد في تمزيق بعضهم شر ممزق . فخلافاتهم هذه كانت احدى الاسباب الداخلية التي قضت على حياتهم وحياة مدنيتهم

مما اوقفنا عليه التاريخ ان هذه الاسباب وان كانت داخلية الا انها ناشئة في غالب الاوقات عن دسائس الاجنبيين . فانه ما دامت الحروب الصليبية موقدة نيرانها لم يبرح البابوات وقياصرة القسطنطينية عاكفين على بث دواعي الشقاق بين المسلمين كتسليط الفاطميين على السلجوقيين او تحريش مملكة القاهرة على مملكة دمشق . كل ذلك وسائل تفرقة لا زال دعاة الفساد يعملون بها الى يومنا هذا

فاذا ثبت ان اسبانيا كانت في ذلك العهد تقاسي عواقب الشقاق المسترسل ثبت ان اوربا كانت في مأمن على نفسها من تلك الجهة وانه لا يتهددها ادنى خطر اسلامي منها . لا شك ان المدنية هي خطر على الكنيسة. الا ان هذه الاخيرة لم تهتد لادراك قيمته الا بعد الحركة التي قام بها « الالبيون » او « الالبيجوا »(١) فكان النور الذي اضاء من جانب العلوم الاسلامية و آداب اللغة العربية هو الذي اشرق على جنوب اوروبا ففتح الابصار بالعالم المسيحي في عام ١٢٠٠ والفت الى اسبانيا انظار المجتمع المسيحي المفعمة عداء

اما في القرن الحادي عشر كانت الكنيسة موجهة عنايتها ومظاهر حنقها على مسلمي الشرق . ضرورة ان ما ينقله دواما واستمرارا القادمة من الروايات كان منبها لمنازع الكنيسة . ومما كان يدفع المسيحيين في توجيه انظارهم نحو

---

(١) « الالبيون » او « الالبيجوا » سكان مقاطعة من جنوب فرنسا اخذ فيهم تأثير مدنية العرب في القرن الحادي عشر حتى حكمت عليهم الكنيسة بالردة و اشهر عليهم البابا حربا صليبية دامت عشرين سنة وانتهت بابادتهم عن آخرهم

الشرق وجود تراث ثمين ذي شهرة دينية عظيمة خلفه الحوريون وبقي محفوظا بمدينة اورشليم . فان هناك يوجد قبر المسيح . وكيف لا يعتريهم اشد الحنق والاغتياض حين تحدثهم انفسهم بالعار الذي يلحقهم من استبقاء ذاك القبر المقدس في قبضة . . . الكافرين ؟ هذا من موجبات تحديقهم بالشرق . وزد ان اليونان كانوا يؤججون نار الغيض و يذيعون كل انواع الاكاذيب لاستنهاض العالم المسيحي ودفعه في الاجهاز على الترك . كما ان ارباب المتاجر ببلاد الغرب كانت لهم رغبة لا تنقطع تزين لهم فتح المراسي السورية لترويج تجارتهم والعود لربط العلائق التجارية مع القارة الآسياوية

وخلاصة القول ان المجال يلوح فسيحا لركوب الاخطار و خوض الغمار ومبشرا بثروة متزائدة و بتكوين ممالك جديدة يتبوؤن ارائكها

الم نر في اعمال الدول الغربية اليوم ما يذكرنا ماضيها هذا ؟ حقا ان التاريخ يعيد نفسه !

لكن لم يتجزأ احد على امساك اعنة الحركة بيديه و لم يخطر ببال احد — الى اواخر القرن العاشر — ان يترجم باعمال حسية على مشاعر الحنق المضطرمة في النفوس

التجهيز للحرب الصليبية

اول من فكر في اشهار حرب صليبية هو البابا سلفيستر الثاني وذلك في عام ٩٩٩ . وقد كاشف بذلك خفية عظماء الكنيسة ثم الملوك وشرفاء بلدان الغرب قبل ابراز عزمه من حيز الخيال الى العمل . فتفاوض جميعهم في امر هذه الحرب طويلا بما يستفاد منه نوع اعراض عن الفكرة نفسها او قلة الاهتمام بها. وبالاخارة التقى بطرس الناسك عند عودته من زيارة بيت المقدس بالبابا هربان الثاني وحمله على انجاز العمل . وما بطرس الناسك هذا الا احد قدماء الجنود اعتنق الرهبانية على اثر ما اصابه من المكاره الزوجية . قال في حقه المؤرخ الفرنساوي ميشلي انه كان يلقب « بكوكو الراهب » (١) فللانتقام عما تجرعه بآسيا من الامتهانات التي لم ينفك اليم ذكراها يتقد في نفسه اثار خواطر العالم المسيحي على الاتراك

سوف يرى قراؤنا الكرام في القسم الثاني والقسم الثالث من هذا الكتاب ان ملامح التعصب الشخصي والاحقاد النفسانية لعبت من عهد بطرس الناسك الى يومنا هذا دورا وان كان خفيا الا انه كان الاس المتين الذي انبنى عليه ما قاساه الشرق من مهاجمات الغرب المسيحي

في عام ١٠٩٥ عقد هذا البابا مجلسا حضره جميع اساقفة العالم المسيحي

---

(١) الصق باسم هذا الراهب كلمة « كوكو » التي تشبه من حيث النطق كلمة اخرى لا يليق التلفظ بها صراحة لانها تطلق على من كانت زوجته تخدعه من حيث تمكين غيره من نفسها

و انفصل على الدعوة الى الحرب المقدسة وتشكيل ارسالية لمحاولة تخليص بيت المقدس . وانـنا لنرى من المفيد جدا ذكر الخطاب الذي فاه به اذ ذاك البابا و قد بدت عليه مظاهر الطمع و استولت عليه المنازع السياسية. واليك نصه :

« مضى زمن طويل لم نرسم فيه حدا لعواطف الحلم و الصفح التي تخالج صدرنا . لكن قيامنا بواجبنا البابوي كشف لنا اليوم عن اعمـال عقوبة جديرة كلها بالزجر ولا يمكن التغاضي عنها بحال . ان الضعف الذي فطرت عليه الغريزة البشرية سبب لكم لحد الان سقوطكم في مهاوي الضلال . فاغتررتم لما تحلت به المفاسد والرذائل من الحلل الجميلة الفتانة حتى انقلب عليكم الحلم الذي كنتم مغمورين به من ربكم غضبا رهيـبا . انما هذا الغضب جزاء من خالف امر ربه

ان الدعانة البشرية بعثت بكم الى هتك حرمة الزواج الديني فلم تدركوا كل مفازع الزنا . وفوق ذلك فقد استفحلت في نفوسكم منازع الطمع لحد ان استبحتم القاء اخوانكم في اغلال الاسر وتجريدهم من ارزاقهم . فاغتصبتم منهم الاموال الطائلة فداء لحياتهم . مثلكم كمثل الغرقى تتخبطون في بحر الآثام .

لكن رغم ذلك كله قد جعل الله امامكم ميناء امينا هادئا . فادخلوه يمنحكم الله امنا دائما . و لا يحول بينكم وبينه سوى متاعب خفيفة تقتحمونها لمكافحة الاتراك . فقايسوا ان كـنتم تعقلون بـين العذاب الاليم الذي سيذيقكم الله اياه جزاء اعمالكم الشيطانية وبـين المتاعب التافهة التي ستلاقونها في القيام بمشروع انتدبكم ربكم اليه . اين هذه من تلك ؟

اذهبوا وقاتلوا اعداء الله ! يا لعار المسيحيـين ! ان اعداءهم لم يزالوا من عهد بعيد ناصبـين سرادقات تقوتهم على سوريا وارمينية . بل ارتكبوا ما هو ادهى من ذلك و امر اذانهم اختلسوا قبر المسيح ذلك المعهد العجيب لايماننا

ايها المسيحيون اقلعوا عن جرائمكم و اعتصموا بحبل الوفاق. فتشتروا لارواحكم الجنة غير باذلين الا اجسادكم . هلا تعلمون ان الشقاء في البقاء في هذا العالم ؟ وان السعادة في الانتقال لنعيم دار البقاء ؟ ان خيرات الدنيا وان كانت لذيذة لا تلبث ان تزول .. فلكل من يعرض عنها جزاء بمائة ضعفها . هذا ما جاءت به مشيئة الله»

هذا خطاب البابا يعد المسيحيين بالنصر في هذه الدنيا والسعادة في الاخرة فقوبل بهتاف كانت مظاهره البكاء والزفير . فقام الحاضرون باسرهم وخروا سجدا على قدمي الخطيب . وفي ذاك الحين نفسه اذ بلغت هذه الرواية التمثيلية المنظر المؤثر على الروح دخل من اوفدهم « الكونت دو تولوز » ووعدوا ان عدوا بالمال كل من يلبي الدعوة المقدسة

حقا ان القيام بمثل هذا المشروع ليس بالسهل. اذ يجب استنهاض الشعب في سائر المدن وتهيئة العقول للاقبال عليه حينما الناس لا يفقهون من هذا الامر شيئا . اما اذا تمت هذه التحضيرات لا يبقى الا اضرام الحرب المسيحية في قلب الاسلام نفسه . فالذين تصدوا لبث الدعوة كانوا الرهبان الخطباء .

لكن قهرا عن الجهود التي بذلوها لاقوا عدة صعوبات تحول دون ابراز الفكرة الى حيز العمل . فان الملوك والاعيان كانت لهم مآرب اخرى تشغل عقولهم غير ان الخطر الذي اشار اليه البابا سلفيستر الثاني والذي يهدد العقيدة المسيحية كان على وشك الانقضاض . وحيث كان يلوح ان الظروف مساعفة للعمل استؤنف دعاه رجال الكنيسة للاستمرار على نشر الفكرة بلهجة احر .

وحقيقة كان الوقت مساعفا للاجهاز على المسلمين . ضرورة ان مسلمي اسبانيا لم يكونوا يستطيعون التدخل بالعمل لنصرة اخوانهم الشرقيين . ومن جهة اخرى فان مسلمي آسيا وان كانوا ذوي قدم لا ينكر الا ان انقساماتهم على بعضهم تقعدهم عن

العمل الناجع . وبعبارة اخرى دخلت القوة السياسية الاسلامية في دور التقهقر والاندثار . فسوريا مثلا كانت في تصرف الاتراك في البعض وفي تصرف سلطان مصر في الباقي . وهذا يدبر المكائد للاخر والعكس بالعكس . اما خليفة بغداد فلم يكن لديه من القوة المادية ما يسد الحاجة . هذه كلها ظروف انتهزها الصليبيون واستثمروها . فلولاها وخصوصا لو لم يترتب على خيانة احد الخائنين سقوط قلعة انطاكية لما امكن الصليبين البلوغ الى اورشليم البتة .

كانت وقتئذ الكنيسة في اعظم سلطانها . ولديها من الثروة ما لم يكن لدى غيرها . بل ان تلك الثروة الطائلة اخذت في تزايد غريب من جراء المقازع التي ادخلوها على العقول بمناسبة قرب عام الف من التاريخ اذ كان الناس يعتقدون وسعت الكنيسة في تأييد هذا الاعتقاد ان ذاك العام هو ميعاد فناء الدنيا . فبقدر ما يقرب حلوله يزداد الروع تمكنا من قلوب المتدينين حتى ان الكثيرين منهم وهبوا املاكهم للكنائس . لكن انقضى اليوم المفزع الموعود بدون قارعة . فقالوا ان ذلك بفضل ادعية الرهبان و تضرعاتهم للخالق . فهل يعقل بعد ذلك انّ يطالب الاغنياء بتمكينهم من ارزاقهم الموهوبة ؟ فبدل ان يقوموا بهذه المطالبة استمروا على حياتهم السالفة مطاطئي الرؤس امام البابا

لم يبق بعد هذا البيان مجال للريب في ان تحفز اوربا للحروب الصليبية كان بايعاز الكنيسة و بتدابيرها . وكانت تؤمل من وراء هذه الارساليات المقدسة فوائد جمة سياسية ودينية . منها انها توقف تيار العرب والاتراك الذين يحملون معهم مبادئ المدنيتين اليونانية و الفارسية لكي لا تذاع في اوربا فتزعزع اركان اللاهوتية المسيحية . تعتقد الكنيسة ان بعملها هذا تكون قد قضت على ذوي الافكار الحرة مثلما فعلت ذلك في اواخر العصر الروماني . ومنها ان سلطانها الدنيوي يشتد ازره . فان البابا او كما يقولون خليفة اليسوع في الارض

طامع ان يسود على القياصرة والملوك بما تكسبه اياه السلطة الدينية من الافضلية عليهم . غير ان هؤلاء القياصرة والملوك لم يبد عليهم استعداد للخضوض لسلطانه ، وجزاء لعصيانهم كانت الكنيسة تحجر على رجالها ان يقبلوا توليتهم وظائفهم الدينية من ايدي الولاة المدنيين . فكثيرا ما كانت تنشب المعارك والفتن بين رئيس الاساقفة والملوك وبعبارة اخرى بين قوتين متصادمتين تزاحم احداها الاخرى وكلتاها تصبو الى الحكم المطلق . فالبابوية دفعت الملوك والاعيان للحروب الصليبية راجية من وراء ذلك توهين قوتهم وتضعيف سلطتهم . كما انها قد شعرت باحتياج سلطانها الروحي الى تدعيم اركانه التي اصبحت متداعية للسقوط من جراء موبقات الرهبان الاغنياء . فقد ظل غالبهم ينسجون على منوال طبقة الاشراف يقاسمونهم الفحشاء ويقضون اوقاتهم في الولائم ومجتمعات الفجور . فذهبت هيبتهم وسقط اعتبارهم وعمت البلوى من جراء هذا الاستهتار . حتى ان البابوات وقد زهوا بنفوذهم الدنيوي نبذوا ما كان اعتاد به اسلافهم من الاشتغال بالامور الروحية . ضرورة انه يستحيل عليهم ان يجمعوا في آن واحد بين طاعة الله وجمع الحطام حسبما جاء في الانجيل . وكثيرا ما انحصرت مساعيهم في ابتزاز اموال المتدينين باحتكاراتهم الماهرة لتنمية ما جمعوه من الكنوز . هذا كله من شأنه التنقيص من نفوذهم الادبي والاضرار بالاعتقاد

اما اذا خلصت الكنيسة ضريح المسيح من ايدي المسلمين فانها تؤمل استرجاع نفوذها واعلاء شأن سلطانها الروحي . على ان البابا هربان الثاني نفسه المعلن للحرب الصليبية الاولى لم يكن في صدر ولايته من المحرزين على ثقة العموم

هذا الداء الذي تتألم منه البابوية وترجو له دواء ناجعا من الحمل على المسلمين قد زاد امره تفاقما بالطعنة التي لحقتها من الخارج . فان فصل الكنيسة

اليونانية عن الكنيسة اللاتينية في عام ١٠٥٤ كان ضربة صادفت البابوية في قلبها اذ نقص عددا عظيما من المؤمنين بها وجزءا وافرا من مواردها

ان الصليبيين لما ارسلوا لفتح اورشليم اتخذوا الطريق التي تمر بهم على الاستانة . لكن لا يظن القارىء انهم سلكوا هذه الطريق لمجرد تلبية دعوة امبراطور بيزانطا في طلب النجدة بل كان الغرض من ذلك نصب الرسوم الاولية لعملية مقبلة سياسية وعسكرية برزت لعالم الوجود على عهد البابا اينوصانت الثالث

ان يونان البيزنطينية وان لم يزالوا اذ ذاك محافظين على استقلالهم الا انهم قد تفشت فيهم عوامل السقوط . ونظرا للفشل الذي اعتراهم في القيام وحدهم بمهمة مقاومة الاتراك استغاثوا بالكنيسة اللاتينية وبملوكها . وحثوهم على الحروب الصليبية اذ كانوا هم ايضا متخوفين من عواقب الحركة التحريرية القائم بها المسلمون . فمن عهد الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية ولا سيما من عهد الامبراطور تيودوز الثاني انعدمت بالامبراطورية اليونانية حرية الاعتقاد بالنسبة للوثنيين وللخوارج . ودمرت جميع المعاهد الدينية القديمة وقتل اربابها . فانبثاق فجر ارسل من خلال اشعته الوضاءة ديانة جديدة وهي الديانة الاسلامية ادخل عليهم اشد الفزع والانذعار . قال المؤرخ الانكليزي سيلس « من المحقق ان الامبراطور اليوناني الكسي الاول استنجد الغرب ويوجد في نسخة من الكتاب الذي بعث به الى اوربا ما مؤداه ان الاجر الذي يبذله للاوربيين في مقابلة اغاثته هو التنعم بغواني البلاد اليونانية »

مضى قرن وقياصرة البيزنطينية يمتون لبلاط الخليفة الاندلسي بقرطبة بحبال الملق والزلفى حتى ان في عام ٩٤٩ بعث الامبراطور «قسطنطين بورفيركنيت» بعثة رسمية الى عبد الرحمان الثالث لاستدعائه الى عقد تحالف ضد الاتراك

وكانت اذ ذاك المسيحية متشعشعة اغصانها في ثلاث مدن كبرى . فسقطت منها اثنتان في حوزة المسلمين وهما الاسكندرية وانطاكية . فبقيت القسطنطينية . الا ان مصيرها اصبح محل تخوف للامبراطورية البيزنطينية ولعرش البابا . ضرورة ان في عام ١٠٥٦ كان الاتراك محتلين لبلدة ازنيك بمقربة من القسطنطينية . على ان بلدة ازنيك نفسها كانت مقدسة عندهم اذ كان اجتمع فيها مجلس الاساقفة لاول مرة فينبغي ان لا تبقى بايدي الكافرين ـ اي المسلمين

تلك هي على سبيل الاجمال الدواعي الاساسية التي هيأت حرب الصليب . غير ان القائمين ببث الدعوة كانوا يتحاشون عن الاعلان بها صراحة . بل ابقوها في طي الخفاء ولم يبوحوا الا بداع واحد وهو تخليص الارض المقدسة . وأي داع اثبت من هذا لاثارة خواطر الجماهير وتحريك عواطفهم وغرس الاحساس والحماس فيهم ؟ على انه لا يخفى على الكنيسة ان عملها ربما كان محل ارتياب لو اسندته رسميا وبصورة علانية الى المقاصد الاخرى التي ترمي اليها والتي هي ليست من متعلقاتها

وبهذه الطريقة بات السواد الاعظم القاصر عن درجة الادراك الصائب يعتقد ان الارسالية الصليبية لا يقصد منها الا الاستيلاء على بلاد فلسطين وطرد المسلمين منها ومحق من لا يقبلون بعقائد الكنيسة . والحال ان بلاد فلسطين لم تكن في نظر الحق ملكا من املاكا البابوية او الممالك الاوربية . قال ميلس في تاريخه نقلا عن الراهب فلوري « من التغرير والتضليل بل من العبث بمعاني الالفاظ ان ندعو بلاد فلسطين ارثا للمولى اوانها هي الارض التي وعد بها امته . فانه لا يوجد في كتب الدين ما يشعر بان الله امر المسيحيين بتشييد المدينة المقدسة »

ومن ذلك الحين اصبح زوار بيت المقدس من المسيحيين بعد ان كانوا يقتصرون عند عودتهم لاوطانهم على نقل الحوادث ببساطة خالية من الاغراض

يتحاشون عن ذكر المدينة الشرقية ووصف عجائبها . بل انهم صاروا لا يقصون الا القصص المهيجة لحفائظ الناس حتى تتمكن من النفوس ملامح الانتقام ويستولي عليها الطمع في الحصول على خيرات يبالغون في التنويه بشأنها . فاحسوا بانطلاق العنان لهم في اختلاق الاكاذيب ودس النمائم في جانب الاتراك . ولم يكن اذ ذاك من يستطيع سبر قيمة التهم الافاكة التي يرميهم بها الخطباء ودعاة الحروب الصليبية . ولعمري فانا نرى ليومنا هذا ارباب العقول متغاضين عن سبر قيمة تلك التهم ولو ان لديهم من الوسائل و المعلومات والتسهيلات للقيام بهذه المهمة ما تنوع و تعدد

فلا وسيلة لاثارة لواعج التعصب المسيحي انجع من ذكر القساوات التي يقاسيها زوار بيت المقدس من تلقاء الاتراك . ولذلك نرى الرواة لا ينقلون الا انين المسيحيين تحت الشتائم و المعاملات الجافية . نقلت هذه القصص من قرن الى قرن و كل ناقل يلبسها ما استطاع من الضخامة حتى اصبحت خرافة تحكي اساطير الاولين. فاوجدت في اللغات الاوربية آدابا ذات احساسات عدوانية نحو الاسلام . منها ما كتبه الكاتب الفرنساوي الشهير شتوبريان في رحلته من باريس الى اورشليم . وهو بمزيد الاسف كتاب ذو رواج لم تبلغه بقية تآليفه . ولقد ذكر فيه كما فعل غيره من قبله ان تعاليم الديانة الاسلامية هي التي قضت على مكتبة الاسكندرية بالحرق اذ انها ترى من الفضل تحقير الاداب والفنون المستطرفة . سنرى فيما يلي هل ان الاداب والفنون المستظرفة والعلوم باسرها استهان بها المسلمون ام احلوها من انفسهم مكانا عليا

من الممكن ان الاوربيين في القرن العاشر لحقتهم بعض اذايات خلال اسفارهم لزيارة بيت المقدس . بل انه يغلب على الظن وقوعها . لكن اي عجب في ذلك حين كان الاوربي لا يستطيع التنقل في نفس بلاده بدون ان تحفه

اخطار ؟ الم يتعرض الكاتب الالماني شيلر الى لصوص الغاب الذين ما كانوا يسطون على عابري الطريق بغابات بوهيميا فقط بل حتى في المدن ؟ فاذا اقام الولاة من العرب العراقيل في وجوه زوار بيت المقدس من المسيحيين فلا شك ان عملهم هذا غير مبني على منزع تعصب ديني . بل لانهم كانوا يرون لزوم تشديد المراقبة على الاجانب منذ ناصبتهم مدينة بيزة اليونانية بايعاز من البابا سلفيستر وهاجمت شواطىء سوريا . وعلاوة على ذلك فان الزوار الذين يربو عددهم احيانا عن السبعة آلاف يفدون مسلحين في الغالب وفي حالة خلط من المان وانكليز ونرمنديين ويونان . فتشب المعارك بينهم ويعكرون صفاء الراحة و الامن بالبلاد

اما الامر المهم الذي استلفت اهميته انظار البابا هو ان المقادسة كانت زيارتهم مورد ثراء لخزينة الضريح المقدس . فان القديسين هناك يبيعون باثمان باهضة للزوار التراث والرياش المخلفة عن الحواريين . وهي تجارة رائجة حيث كان المسيحيون يبذلون كل نفيس للحصول على بعض شيء منها ليس للتبرك فقط بل لاعتقادهم ان من خصائص تلك المخلفات ابراء جميع الامراض . فرأت الهيأة البابوية فائدة مادية محسوسة في ان تدير وتراقب بنفسها هذه المبادلات . وهي غاية لا تبلغ اليها الا اذا استولت على المدينة . فاوغرت صدور المسيحيين على المسلمين حتى اصبح الذ حلم يحلمون به تخليص الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين

هذه هي الغاية التي تصبو اليها البابوية . اما زعمها ارادة انقاذ المسيحيين هناك فما هو الا عذر كاذب تستر به حقيقة بغيتها . ضرورة ان المسيحيين ما كانوا قط يشكون الضيم من المسلمين . قال مسيو لافيس في تاريخه « فبفضل ما يبدو على العرب من عواطف التسامح كان المسيحيون القاطنون باورشليم في راحة

وهناء بالنسبة لغيرهم . وهناك عدة كتابات تشهد ان كنائسهم ومستشفياتهم كانت زاهرة يانعة ويتصرف اربابها في ثروات طائلة . فلا سبيل والحالة هذه للتصديق بصحة ما تحاول الكنيسة ايهامنا اياه من ان الزوار من المسيحيين يعاملون هناك بالجفاء ». سوى ان هذا المؤرخ نفسه ـ يا للعجب ! ـ بعد هذا النقل بزهاء الاربعين صحيفة قال «ان حالة المسيحيين بسوريا بعد ان كانت مرضية الى اواخر القرن الحادي عشر تغيرت فجأة ». فما هذا الا اختلاق من اختلاقات الكنيسة ترى فيه الحج علة تعلل بها الحروب الصليبية . فان الشرق الف مشاهدة مثل هذه الاكاذيب

ومن جهة اخرى فان الاشراف المسيحيين لم تخل صفوفهم من المتعصبين ذوي المطامع ولا من الفلتاء الذين تتوق انفسهم الى مواطن الطعن والضرب . فان العيش بالقصور المنيعة تركهم يتقلبون على فراش القلق وبعث في نفوسهم اشتياقا لاقتحام المخاطر . على انهم كانوا يتعاطون سائر انواع النهب ويتجسسون على بعضهم . وما بقي لهم من الوقت يقضونه في الفسق والفجور . لكنهم لم يروا كفاية في ذلك لتعمير حياتهم بشيء يذكر . فكثير من المجاهدين ما بارحوا اوربا وانصرفوا الى آسيا الا بغية اكتساب الفخر والمجد في ساحات القتال . وبلغ بهم التشبث بما تبديه لهم مخيلاتهم لحد ان بات احقر المشعوذين منهم يحلم باستحصاله على افخر تاج من تيجان آسيا

واذ استحال على الاشراف التحارب داخل مقاطعاتهم طفقوا يتطلبون الاسباب التي تدفعهم للقتال بالبلاد الاجنبية . لا سيما وانهم محتاجون لاغتنام الغنائم . فكانوا يصطحبون نساءهم وهؤلاء يصطحبن خادماتهن اذ لم يحجر عليهم البابا الا اصطحاب الكلاب والبزاة

وبالاخارة تشكل جيش من الولدان رغم معارضة اوليائهم . فامتطى هؤلاء البؤساء متن البحر بثغر مرسيليا . فكان حظهم ان بيعوا بصفة ارقاء !.

اما سكان البوادي الذين قد استحكمت عيشهم حلقات التعاسة فقد كانوا في تشوق لمغادرة اوطانهم والانصراف الى الشرق تخلصا من بؤس حالهم . فالعاطفة البشرية التي تدفع الانسان لتطلب الحرية ابانت لهم حقيقة ما يعاملهم به اسيادهم الفداديين من الاضطهاد والازدراء . وذلك رغم العناية التي يحيطهم بها الرهبان تنكلا على الاشراف .

قال الفيلسوف الفرنساوي ديدرو مشيرا الى حرب الصليب « هذا الحادث العجيب هيأته ظروف متعددة منها مصلحة البابا وكثير من ملوك اوربا و بغض المسيحيين للمسلمين وجهل الاهالي وخضوعهم لسلطة الكنيسة وجشع الرهبان والشبق باراقة الدماء و بصورة خصوصية لزوم اشغال الافكار بحوادث خارجية لتوقيف تيار القلاقل الداخلية القائمة منذ عهد طويل »

فالظروف كانت مساعدة للاجهاز على الاسلام من سائر اقطار اروبا . سوى انه ليس من السهل على اروبا ان تجمع في جهات مختلفة جيوشا عظيمة وتجهيزهم وترسلهم في آن واحد وهو لعمري امر مهم يتوقف على تحضيرات عظيمة . فبينما كان بطرس الناسك يرعد ويبرق على المسلمين في خطبه التي كانت تلتهب حمما وغساقا عليهم كانت الكنيسة تعد المنصرفين لتخليص ضريح المسيح بضمانها في حفظ ارزاقهم وغفران ذنوبهم والسعادة الابدية في الاخرة . فاكرهت رجال الحرب من الفداديين - وانذرتهم بزواجر العقاب عند المخالفة - باحترام الهدنة الالهية التي تمنع الحروب الخصوصية والنهب بين المسيحيين (١) ومدت الفقراء بالاسلحة

---

(١) الهدنه الالهية اسم قانون ديني سنته الكنيسه عام ١٠٤١ في تحريم حمل السلاح والقتال بين المسيحيين اربعة ايام من كل اسبوع

والصدقات . اما البابا نفسه فقد حكم بانه لا يسوغ بحال منع اي مسيحي كان ومهما كانت حالته المدنية من حمل الصليب والانصراف الى الارض المقدسة . قال الكاتب الانكليزي ميلس « فعملا بهذا الحكم اطلقوا سبيل الجناة ليتسنى لهم التكفير على جرائمهم الدنياوية بانقطاعهم في سبيل الله . وصارت المحاكم تعتبر من الاعتذار المقبولة لعدم خلاص الديون ما يعتذر به غريقو الذمة من ان القيام بما اوجبه عليهم الله من تخليص الارض المقدسة اوكد من الوفاء بما التزموا به نحو عباده .



حرب الصليب

لما بلغ نفوذ السلطة الكنيسية من القوة منتهاها والحياة المادية بالممالك المسيحية من التعاسة اشدها استطاب جماهير من الناس ـ وهم تحت عوامل الجنون ـ تلبية دعوة البابا وبطرس الناسك . فاخذ الغرب يتحفز للوثوب على الشرق وبعبارة اخرى ان عالما متوحشا تأهب لمصارعة عالم متمدن . فترى بعض الناس يتخذون من تطوعهم في الجيش الصليبي ذريعة للتخلص من محنة السخرة وألم المسغبة . وآخرين منقادين للطمع وحب الابتزاز . اما البسطاء واهل السذاجة فقد سحرت البابهم جاذبية الاستطلاع على الجديد . وليس بالقليل عدد القتلة وافراد العصابات الذين اتيح لهم ان يتسربوا بين مؤمني المسيحية ومتنوريها والمتوهين من ابنائها قال الراهب انكتيل في تاريخه « قليل من الصليبيين كانت لهم غايات دينية حقيقية » . وكتب الراهب فلوري « ان حرب الصليب انتهزها غريقو الذمة فرصة للتفصي من خلاص ديونهم . والاشقياء للتخلص مما قضت به عليهم جرائمهم من العقاب والرهبان الجانحون لتغيير حالتهم القارة والانصراف عن ديورتهم . والنساء التائهات للاستمرار باكثر حرية على التهتك والخناء . ومن هنا يتصور المرء ما كان عليه الصليبيون من اضطراب الحال وارتخاء حبل الاخلاق »

قال المؤرخ الفرنساوي لافيس « ان نفس هذا الحادث التاريخي يثبت ان رؤساء الحرب الصليبية كانت افكارهم تشتغل بمصالحهم الخصوصية اكثر من اشتغالها بارشليم . وان المنازع الدينية كانت دائما متأخرة لديهم عن مصالح تجارتهم »

وقلما كان فاقدو الذمة كالقتلة والفجار واللصوص والقراصين والنهبة ـ

وهم الذين وجه لهم خطابه البابا هربان الثاني - يصرحون بانهم يريدون من انخراطهم في سلك الصليبين غسل جرائمهم في دماء الاتراك . فمما يرثى له - حسبما لاحظه فولر - ان يشاهد الانسان اخبث اعضاد الشيطان انقلبوا مجاهدين في سبيل الله ».

ان اولئك الجماهير الذين استحكمت في قلوبهم حلقات التعصب اخذوا في السير ناشدين ضريح سيدنا عيسى عليه السلام وهم لا يهتدون له سبيلا . حتى انهم حسبوا اورشليم كل مدينة وصلوا اليها . ومنذ قطعوا حدود بلدانهم اقترفوا من الفظائع اشنعها . فالتاريخ لم يرو لنا ان قوما من الاقوام الاسياويين الهمج بلغ توحش اعمالهم الدرجة التي وصل اليها هذا الجيش المتسربل بجلباب العقيدة فيما ارتكبه افراده من الفضائح والجرائم لا سيما نحو الشعوب البريئة . فنهبوا وخربوا جميع القرى القائمة على طريقهم بمهاد نهر الدانوب ومروج المجر وبلغاريا . ولم يصدهم عن صنيعهم هـذا كون سكان تلك البقاع متدينين مثلهم بالدين المسيحي وملازمين للهدو والسكون وذبحوا بدون رافة ولا حنان جما غفيرا من اليهود معتقدين ان في ابادة بني اسرائيل تحت العذاب الاليم انتقاما مبررا لمقتل اليسوع .

حل الصليبيون بآسيا الصغرى « فالبسوا اعمالهم الوحشية اكثر شناعة . فنقلا عما روته « آنكونين » ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحي « ان الذ ملاهيهم ان يقتلوا جميع الاطفال المسلمين الذين يصادفونهم ويصلونهم نارا ثم ياكلوا لحومهم » . هذه الرواية ايدها المؤرخ الانكليزي « ميلس » ايضا قائلا « ان الصليبين ياكلون لحم البشر . ففي بلدة انطاكية ذبح « بهموند » احد قواد الجيش زمرة من اسرى الاتراك وشواهم امام الناس . ثم دعا الحاضرين صائحا بوجوب اقناع الجوع من الموجود » .

ان سيرة بهموند المتوحشة - وما ادراك من بهموند ! بهموند هو حفيد

ملك فرنسا فيليب الأول ـ تنبئنا عن الدرجة من التوحش التي كان عليها من هم دونه منزلة من حيث التربية والاخلاق ، وهم لعمري السواد الأعظم .

ان المؤرخين الفرنسويين لافيس ولوشان الذين يريان ان حرب الصليب مشروع فرنساوي محض وانه موجب للتبجح والافتخار به لم يتمالكا عن التضيص ـ ولكن ببعض احتشام ـ على « مشاهدة الصليبيين يأكلون لحم بني آدم الامر الذي ايده جميع المؤرخين . كما شوهدوا يتغذون من جثث الاتراك » . واعترفا ايضا ان بهموند كان يشوي الاسرى الاتراك .

اثناء حصار بلدة انطاكية كان حصن من حصون البلدة تحت قيادة احد الارمنيين يدعى فيروز . وقد ادى يمين الاخلاص للاتراك . فنكث يمينه وسلم الحصن للمسيحيين بان رمى للمحاصرين في الليل حبالا كثيرة من اعالي الاسوار ، فتمكن الصليبيون من فتح المدينة . وعندما دخلوها ذبحوا عشرة الاف تركيا واحرقوا المساجد .

كتب احد شهود العيان روبير لوموان « ان رجالنا كانوا يجوبون الشوارع ويجهزون على الاطفال والشيوخ » . الى ان قال « وقعت هذه المجزرة التركية في الثاني عشر من ديسمبر ولكن حيث لم يكف ذلك اليوم لاتمام العمل فقد استؤنف من الغد وفيه قتل رجالنا البقية الباقية » .

هذا ما قام به في الطريق جيش حرب الصليب الاولى . وهو لعمري جيش مبهم النظام جمع بين اشراف الفرسان والرهبان وسكان البوادي يقودهم « قود فروا دي بويون » ، وبعد ان خلت من صدر هذه الارسالية ثلاث سنوات وصلوا بالاخارة لبيت المقدس ، فدام حصارها اربعين يوما . واذ دخلوها انقض هؤلاء الابطال الاتقياء على السكان المسلمين وضحوا سبعين الف نفس بشرية اعني كامل السكان المسلمين منهم النساء والاطفال قدموهم قربانا لآله السلم والعافية !

عشرة الآف مسلم التجأوا لجامع الامويين المسمى بجامع سيدنا عمر رضي الله عنه

فذبحهم ايضا . وزد انهم أتلفوا عـددا كثيرا من اليهود بل وحتى من المسيحيين الخوارج . فدامت المذبحـة بالمدينة المقدسة ثمانية ايام . وهي المذبحـة الاولى .

اما الثانية فقد كتب في حقها فولر « ان المذبحة الثانية باورشليم لم تكن ناشئة عن غضب تلبس به الصليبيون ردحا من الزمن بل هي محضرة من قبل وسبقتها تدابير في كيفية اجرائها . ولقد نفذت على اتم صورة متوحشة حتى انهم قتلوا الاطفال البكم الذين لا قدرة لهم على التلفظ بعبارات الاسترحام والنساء اللاتي يكتسبن عادة من ضعفهن البدني واقيا يقيهن من ضربات الابطال ذوي المروءة والشهامة »

كان العرب حاصروا مدينة اورشليم وافتكوها من المسيحيين مرتين . المرة الاولى على عهد سيدنا عمر بن الخطـاب رضي الله عنه في القرن السابع . والمرة الثانية على عهد السلطان صلاح الدين الايوبي في القرن الثاني عشر . فليتنازل حضرات المسيحيين الذين يتهمون المسلمين بالتوحش الى المقايسة بين سيرة « قود فروا دو بيون » الذي يصفه ابناء جنسه بالتقوى والطريقة المثلى المكللة بعواطف الشرف والكرامة التي سلكها هذان الفاتحان المسلمان . فما اعظم الخلف بينهما وما اشد وقعه في النفس !

اليك ما كتبه مبشو في هذا الموضوع « حين استـولى عمر على اورشليم لم يمس المسيحيين بسوء . وحين استولى المسيحيون على المدينة المقدسة سفكوا بلا رحمة دماء المسلمين واحرقوا اليهود »

وقال القس انكوتيل مشيرا الى هؤلاء الصليبيين انفسهم « ما من جريمة فظيعة وما من نهب مريع وما من فعلة مخجلة الا ارتكبوها »

ان الراهب دوبرولي المشهور بالعلم والمطالعة قد اثنى على سيدنا عمر رضي الله عنه وعلى خلفه بقوله « اتصفا بالثبات والعدل والتجلد والحزم في اعمالهما بقاتا بكثير اعداءهما القياصرة والولاة المسيحيين »

انتحل الصليبيون فيما بعد ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا قائدا لهم. فكانت فاتحة اعمالهم ان نكثوا عهدهم بقتل ثلاثة آلاف اسير من المسلمين سلموا انفسهم بعد ان امنهم ريكاردوس على حياتهم .

ثم باشروا كاسلافهم سائر انواع القتل والنهب

ان المؤرخ الانكليزي ميلس ندد بعنف بسيرة ملكه المدنسة بنكث اليمين . فقال « اذن ريكاردوس السفاك بقتل اعدائه وهم مجردون من السلاح وبالقائهم في البحر . بيد انه تغلب عليه منزع الطمع - وهو لا يقل استحقارا عن قساوته - فلهب به للمحافظة على ارواح الرؤساء الذين يعلم منهم المقدرة على فداء حياتهم بالفديات الثمينة »

قال غالب رؤساء الصليبيين لايرون وجوب احترام وعودهم وتقديسها . وناهيك بسيرة بهموند الثاني التي بلغت من الشناعة والرذالة ما لم تبلغه سيرة ريكاردوس قان بعض اغنياء المسلمين بلدة انطاكية بعد ان فدوا ارواحهم بما كفاهم شر بطله احرزوا منه على الوعد بصيانتهم . غير انه بعد ان جردهم من امتعتهم باع الجميلين والاقوياء منهم كارقاء واراق دماء الشيوخ والعجز

هذه الارساليات التى قام بها المسيحيون في الشرق تجددت ثمان مرات ودامت قرنين من عام ١٠٩٥ الى عام ١٢٧٠ وكلها تدنست بالنهب والسفك . الا انها كانت كلها خاسرة خاسرة كالحملة الاولى . وبالرغم عن قوة تودفقوا فيها فان اقبال الناس على الجهاد وحميتهم اخذا في النقصان مع توالي الارساليات . فلاح شيء من الفتور والفشل في الاحساس الديني وفقد المؤمنون منهم الغيرة المقدسة التي كانت تدفعهم نحو الغاية المنشودة . هذا بطرس الناسك الذي كان روح الحروب الصليبية لما رأى خيبة امانيه التجأ الى الفرار . فبعث في البحث عليه « تنكريد » احد قواد المسيحيين ولما قبض عليه وأوتي به تلقاه هذا القائد بالضرب بالعصا

فلم تجد الكنيسة سبيلا لاستنهاض ميول المسيحيين لاقتحام المصائب والشدائد في سبيل الدين ولم تتمكن من القيام بارساليات جديدة الا بالاستعانة بخطباء ودعاة يلبسون خطبهم طلاء الجذابهم للاستحواذ على العقول الضعيفة . كان الملوك وضعوا على من لايلبون دعوة الكنيسة ضريبة تدعى « عشر صلاح الدين » وباعوا الاراضي واسندوا الوظائف الدولية لمن يبتاعونها بالمال

ومما يدل على فقد الغيرة الدينية المضطرمة سابقا في نفوس المسيحيين المسلك الذي سلكته جمهورية البندقية مع الصليبيين . فانها وان كانت دولة مسيحية لم تقبل بنقل الصليبيين على سفنها مجانا . بل اشترطت قبل اعارة اسطولها ان تتقاضى اجورا لا تخلو من الشطط في ذاك التاريخ وان تخاصص بحصة من الغنائم المنتظر اغتنامها . فلتسديد هذه النفقات اضطرت الكنيسة واضطر الملوك الى ابتزاز الاموال على طريق الموالي ارباب القطائع واقتراض القروض الفاحشة . وحيث لم تأت هذه الوسائل كلها بما يسد الحاجيات تمموها بالجور على اليهود المرة بعد المرة وبتجريدهم من امتعتهم .

ان الملوك والاشراف لم يقبلوا كلهم بكل جوارحهم دعوة الكنيسة . حتى ان بعضهم مثل « كونت دوتولوز » و « فريدريك الثاني » امبرطور المانيا لم يشاركوا في الحروب الصليبية الا مخافة من اللعنة الكنيسية وما يعقبهامن هجر رعاياهم لهم اذ ان اللعنة الكنيسية تحرم هؤلاء من طاعة الرعايا (١) او سعيا وراء التكفير على اعمال مستنكرة صدرت منهم فيما مضى . مثل ملك فرنسا لويز السابع الذي كان

---

(١) اللعنة الكنيسية تأمر باشهار الملعون . ففي القرون الوسطى سلطت هذه اللعنة على بعض الاشراف . فنفرهم جميع الناس حتى خدمتهم وازواجهم وابناؤهم فلم يجدوا اينما حلوا ولو بلغة من الطعام يتبلغون بها ورفعت مقاطعتهم من كل فرد تقديسا للعنة الكنيسية فماتوا جوعا .

قتل سكان مدينة فيتري باجمعهم واحرق ثلاثة عشر مائة نفس كانوا ملتجئين بالكنيسة (عام ١١٤٤) . فاشار عليه ولي امره الروحي برفع السلاح في حرب صليبية ضد الاتراك تحقيقا لتوبته واذ كان الخوري برنارد في يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ يدعو الناس ببلدة فيزلاي للحرب المقدسة ضد الاتراك تقدم لويز السابع - أليس هذا من فصيلة حملة التيجان الذين غشي على ابصارهم تغاليهم الديني ؟ - فسجد امام الخطيب وأخذ الصليب من يده علامة على تلبية الدعوة .

بيد ان المشاكل المحلية والمشاحنات القائمة بين ارباب القطائع رغم مقتضيات الهدنة الالهية والمنافسات المقامة على كوامن الحقد والبغضاء التي اثيرت بين طريقتي «الهسبتاليين» و«التمبليين» عاقت كثيرا عن تجنيد جيش جديد لحماية الدين

فأخذ البابوات على عاتقهم ان يديروا بانفسهم هذه الحرب المقدسة باذلين جهودا لا تفتر في اقناع الملوك المسيحيين بوجوب تأدية اقدس فرض ديني . غير ان الحمية الدينية عند الصليبيين بلغت من الضعف اقصاه حتى انهم بدل ان ينصرفوا للسعي في تحقيق الغاية المجندين لاجلها صاروا يتطوحون بالاعراض عن مهمتهم الدينية منصرفين لخدمة مصالح بعض مئات من المتاحيم الافاقين ومن بيدهم اعنة المشاريع التجارية . وقد لاحظ الكاتب الاقتصادي الفرنسي «بيجونو» في كتابه تاريخ فرنسا التجاري «انه بقدر ما يدرك الغربيون قيمة للمصالح الاقتصادية وبقدر ما تحصل لهم المعرفة بالطرقات الموصلة للشرق تنقلب الحروب الصليبية الى ارساليات سياسية تجارية» . كما ان كل شريف من شرفاء الغرب كان يطمح الى ان يتوج ملكا بمقاطعة شرقية . فافضى هذا الطموح الى قسمة اراضي «ايديس» و «انطاكية» و «طرابلس» بين رؤساء الصليبيين . فكانت اليد الطولى لهؤلاء الطغاة الذين ارادوا ان يستنسروا - وهم احقر من البغاث - في تخريب البلاد ارضاء لتهافتهم على الاثراء . فغدوا اسوة لاضرابهم رؤساء الحرب الصليبية الرابعة

الذين اختاروا الاكتفاء بنهب القسطنطينية بـدل الانصراف الى الشام اذ سبق نهبه وهتكه

تزينت القسطنطينية بالقبب المزوقة ذهبا و بالقصور الرخامية الضخمة الملانة بالتحف الثمينة والخيرات المتنوعة . كل ذلك سحر عقول جنود الحرب الصليبية الاولى بروعة جماله ونفاسته . فما بلغ خبر هذه القصور الشاهقة وتلك النفائس الغريبة الى من انخرطوا في جيش الحرب الصليبية الرابعة بل وما صورت لهم مخيلتهم نعومة الحور اليونانية وجمال غواني اليونان حتى استيقظت في نفوسهم من لواعج الطمع ارداها ومن دواعي اللذات الحيوانية اسفلها . واذا اضفنا الى ذلك تعطشهم الممقوت للنهب وانقيادهم الاعمى لايعازات الكنيسة نكون قد ادركنا اسباب انقضاضهم على بلاد اليونان دون بلاد المسلمين . فبعدان استولوا على القسطنطينية احتلوا ثلاثة ارباع مملكة البزنطينية ووزعت قطعا على الاشراف من الصليبيين ومن عواقب هذا التقطيع الذي اصاب الامبراطورية البزنطينية ان اخذ الفرنساويون في حصتهم بلاد تراكيا وتيساليا وغيرها وذلك في عام ١٢٠٤ .فاستدروا خيراتها سبعة وخمسين سنة اي حتى تمكن اليونان من استرجاعها واسترجاع عرش ملكم . منتهزين ما ظهر بين الملوك اللتينيين من التحاقد والتفرقة فرصة منتحلين الحيلة والخيانة سلاحا . ان القسطنطينية التي كانت اخر حصن لعلوم الاقدمين تكررت عليها المرة بعد المرة بلايا الحصار والحرق والنهب الذريع . فاحرقت خزائن كتبها المحتوية على مخطوطات فريدة في بابها . واتلفت منها جميع الاشياء الثمينة والتحف العتيقة . قال المؤرخ الفرنساوي فيلهاردوان احد رؤساء حرب الصليب الرابعة «من يوم قدوم الافرنج للبلاد اضرمت النار في القسطنطينية لثالث مرة . فاتلف الحريق من الديار عددا يفوق عدد المساكن باكبر المدن الثلاث من مملكة فرنسا» كنيسة آية صوفيا نفسها هتك حرمتها اولائك الجيوش الملقبون « بالجيوش المقدسين»

الزاعمين شد الرحال الى اورشليم لا نجاز عمل ديني . فان من يطالـع كتاب هـذا المؤرخ المسمى « تاريخ استيلاء الفرنسويين على القسطنطينية» يقف على تفاصيل مرينة محزنة . ولا ننسى ان هذا المؤلف كان من شهود العيان — منها « منبر هذه الكنيسة المدعو « منبر العذراء » ذلك المنبر الذي كان من معجزات الفن ومن مفاخر آية صوفيا كسر قطعا وان رداء المعبد مزق رقعا » ومنها ان «الصليبيين اتخذوا الموائد المرسومة عليها رسوم الحواريين آلة للعب الطاولة وثملوا بالكؤوس المقدسة المحفوظة هنالك وادخلوا الخيل والبغال حتى المحراب . . . وانتصبت احدى البغايا بالمنبر البطريركي وغنت الاغاني الفاحشة ورقصت امام المقادسة المزعومين . فهكذا سقطت القسطنطينية تحت نير الجنود اليسوعيين يوم ١٢ افريل ١٢٠٤ » .

لقد نهبوا كل ماوجدوا بالمدينة ماعدى الكتب . فان تلك المخطوطات النفيسة لم ترق لهم ولم تكن لها ادنى قيمة في اعينهم . ضرورة انهم كانوا يقولون « كل كتاب باللسان اليوناني لاتجوز قراءته » . بل ان اعظم شيء في اعينهم متروكات القديسين والصناديق المحفوظة بها . وناهيك بهم انهم نتفوا شعور البغل الذي كان يركبه بطرس الناسك ليجعلوها تحفا يتبركون بها . وهو لعمري فعل يدل على قيمة اخلاقهم

فاذا اردت ان تعرف ما للدعاة للجهاد الصليبي من الخلال الادبية فاليك ما قاله المؤرخ الفرنساوي لافيس في شأن قسيس بلدة نويي المدعو فولك « كان هذا القسيس يخطب باحدى ساحات باريس تسمى ساحة شمبو داعيا الناس للجهاد في سبيل الله . فالتف حوله المرابون والنساء العاهرات ومرتكبو الكبائر مجردين ملابسهم رافعين قضبانا في ايديهم . فسجدوا بين اقدامه مقرين بذنوبهم راجين غفرانها . واتته المرضى محمولين على الاكتاف ليأسو صاحبنا اسقامهم . وتسارع الجمهور من خلفه ومزقوا قيصه واقتسموه رقعا على سبيل البركة »

لكن أتريد أن تعرف من هو هذا القسيس فولك الذي تهافت الامة المسيحية

على تقديسه ؟ هو ذاك الرجل الذي الحق به ريكاردوس قلب الأسد انواع السباب والشتائم علانية واتهمه باختلاس الاموال المستودعة عنده للتجهيزات الصليبية .

حقا ان خطباء الحرب المقدسة ودعاتها ممن يستأمنهم المرء على المال والحريم !

قال المؤرخ الالماني هيرن في شان الحرب الصليبية الرابعة « هذه الخيرات الادبية وغيرها من نفائس اللغات اتلفت في ايام قلائل . بيد ان اتلافها لم ينجر عن فواحش المنغوليين او توحش الوثنيين بل صدر من المسيحيين الذين كانوا اكثر من سواهم توحشا . فالحقوا بالاداب والفنون المستظرفة اضرارا لاسبيل لتعويضها

تعرض الكاتب الانكليزي ميلس الى نهب القسطنطينية فقال « اني اتحاشى عن ذكر تفاصيل الجنايات المخزية التي جناها الاتينيون على النساء وانما اقول لاالقصور الشاهقة الفخيمة مسكن الملوك والامراء . ولا الأكواخ الحقيرة مأوى الصعاليك والفقراء سلمت من فاجعة النهب والتفتيش . فان يد المتغلبين الاثيمة كسرت حلى الكنائس وتوابيت الملوك ومعاهد الفنون » .

وقال المؤرخ الفرنساوي لافيس « رجال الكنيسة اللتينية بدل ان يتملكوا قلوب الشعب اليوناني اظهروا صلابة غير صائبة ، حتى ان نائب البابا المدعو بيلاج اغلق الكنائس واودع السجن الرهبان والقسيسين اليونانيين . فكان ذلك مما حال دون توحيد الكنيستين . في بلدة بتراس تخاصم الاشراف مع مطران المكان ، فسجنوا واعتدوا على نائبه وبالاخارة قطعوا انفه » .

لا ينبغي ان ننسى ان الصليبيين أتوا الى القسطنطينية بصفة حلفاء استنجدهم اليونان للتخلص من تهديدات الاتراك . فليقايس القاريء الكريم ما صدر من المسيحيين عندما دخلوا المدينة وهم حلفاء لاربابها بالطريقة التي سلكها السلطان محمد الفاتح عند فتحه لها وهو عدو لاهلها . فقد حاصرها محاصرة العدو المجاهر . واذ اخذها سلك فيها مسلك الحبيب الشريف ، مظهرا مـا يكنه صدره الرحب

من عاطفة العدل تلك العاطفة التي طالما تقلصت في نفوس رجال الحرب المنتصرين وتقشعت وراء تأثيرات الانتصار .

حقا ان اليونان الذين استغاثوا الكنيسة اللتينية لحمايتهم من الاتراك امتلئوا انذعارا ورعبا لما لا قوة من مغيثيهم . فالتجأ الكثير منهم الى الاتراك واتوا الى « طرابزوند » وآخرون كانوا يرسلون البعثات للعثمانيين طالبين الجادهم وملحين في الطلب ، بل وعقدوا منهم الاتفاقات تحت طي الخفاء

اما اليونان الذين قاموا بالدور الاخير من المدافعة عن البزنطينية فانهم كانوا يعلنون بملء افهم ان قلنسوة الاتراك احب اليهم من قبعة الباباوات الرومانيين ضرورة ان في ذلك العهد كان اليونان يبغضون الجنس اللتيني اكثر من بغضهم الجنس التركي . كانوا يبغضون الغربيين لما اتصفوا به من الغطرسة والغلظة . كما ان الغربيين كانوا يعاملونهم بالمثل وينفرونهم عما وسموا به من الميل للغدر والخيانة .

دامت الحروب الصليبية قرنين قاسي الشرق فيهما كل انواع السفك والتخريب . فقضت على الملايين من النفوس البشرية الزكية واسعرت في النفوس لظى القساوة والفظاظة . واستنزفت القوة العسكرية الاسلامية التي كانت محافظة على التوازن وتقرير السلم ومؤيدة للسير الى الامام في سبيل الرقي . بل من جراء تلك الحروب الشنعاء اختل نظام الحياة الاجتماعية والسياسية ووهنت الصناعة والتجارة ، فكانت بالاخارة السبب المعطل للحركة الادبية التي قام بها المسلمون منذ القرن السابع بكل جد وكد .

من الوجهة الادبية كانت للحروب الصليبية على العالم الاسلامي عاقبتان وبيلتان لم يتخلص لحد الآن من ربقتها . اولاهما ان الجفاء الوحشي الذي جاء به الصليبيون وخشونة معتقداتهم وسوء وفائهم باليمين ونقضهم لوعودهم وسفالة سلوكهم مع الاسارى كل ذلك ابقى في نفوس المسلمين اسوء ذكرى لاوربا المسيحية .

والثانية ان اخلاق اللاتينيين الذين اتصبوا بسوريا لا تقل دناءة عن اخلاق المسيحيين بالبزنطينية ، فانهم لما حلوا بهذه الاصقاع البعيدة عن اوطانهم واحسوا في آن واحد ببعدهم عن كل رادع وعن مظنة العقاب لم يبرحوا عاكفين على الفسق والفجور معتبرين القتل والنهب ارقى مدارج المجد والفخار ، ومن سوء الحظ انهم افشوا نقائصهم الادبية في عوائد اهل البلاد ، فالحقوا بالاداب الشرقية نقائص كانت فيما بعد من اعظم عوامل الشقاق وتقهقر المدنية الشرقية ،

من الاعتقادات التي تعود الناس التسليم بصحتها ـ ولو انها تضاد على خط مستقيم كل ما عددته للحروب الصليبية من الاسباب ـ ان هذه الحروب لم تبن على انفجار تعصب ديني وتعطش الى الاستثراء ، بل انها حروب دفاعية عادت بنفع محسوس وان شئت قلت حروب قامت بها مدنية لتتغلب على مدنية اخرى . فترى انصار هذه الفكرة يحاولون تأييدها بزعمهم ان الغربيين خشية الزحف عليهم من المسلمين بادروا بالهجوم لا سيما لما شاهدوا العرب يهددونهم باسبانيا وبايطاليا . حتى ان الفيلسوف الفرنساوي اوقست كونت نفسه كان يصدق بهذه الخرافة وباحقية « هذه العملية الصادرة من المجتمع الغربي » وكان يصفها بقوله « ارسالية دفاعية باهرة كللت بالنجاح »

ليت شعري ! كيف امكن لهذا المفكر العظيم ان يوفق بين الكلمتين « ارسالية دفاعية » ؟ ان الدفاع عن البلاد يقع في تخومها . فلا وجوب للذهاب الى اورشليم للدفاع عن لندرة التي لم يتهددها ادنى خطر على كل حال. اما مقابلة احدى المدنيتين بالاخرى فقد بينا قيمة كلتيهما بما نرى فيه كفاية

لكن عفوا ! دفاعية حقيقة كانت هذه الحرب . لكن على ما ذا كانت تدافع ؟ كانت تدافع على ربقة الاستعباد الضاغطة على العقول لكيلا تصلها الافكار الحرة فتطلقها من عقالها ، كانت تدافع على الجهل لكيلا تمحوه العلوم المحررة التي كانت تخشاها اوربا وتمقتها

لقد رأينا فيما مر بنا ان الحروب الصليبية لما تأججت نيرانها كان العالم الاسلامي في حالة انقسام داخلي ، فلا خطر حينئذ كان يهدد الممالك الغربية . لكن مهما يكن من الامر اذا سلمنا هنيهة من الزمن صحة ما يرمي به الاوربيون المسلمين من انهم حاولوا احتلال البقاع الاوربية بنية ترويج مدنيتهم التي يظهر سموها من جميع الجهات واذا حملنا امرا على هذه المحاولة فبأي وصف يا ترى نصف احتلال الصليبيين لجانب من سوريا والقسطنطينية ؟ ذلك الاحتلال الذي لم يعقبه انتصار مدنية نيرة على مدنية دونها ، بل كان مصحوبا بالمذابح ومملوءا بالنهب الذريع والتخريب المريع . ذلك الاحتلال الذي افضى بالاغارة الى اتلاف انفس الكنوز الموروثة عن الاقدمين ؟ بل وكيف نعلل الحروب الاستعمارية التابعة للحروب الصليبية ؟

على اني لا انكر ان اوربا لما حملت السلاح على المسلمين في القرن الحادي عشر لانجاد البزنطيين او اهل اراغونيا باسبانيا ربما كان لعملها هذا وجه سياسي ففي هذا المقام ولا سيما في بداية الامر كمعركة بواتي ربما كانت اوربا في حالة دفاع ولو انه مبالغ فيه . لكن على كل حال كانت في ذلك التاريخ اعمال التخريب والتدمير التي طالما نسبها المؤرخون اللتينيون للعرب تصدر من كل الفرق والاجناس

وبمناسبة ذكر هذه المعركة التي سماها الكاتب الفرنساوي كلود فرير «مصارعة البربرية للمدنية» قد يحسن التعرض لما رآه فيها احد وجهاء المؤرخين وهو هنري مرتان الذي تدرس تواريخه بالمدارس . فقال في كتابه «تاريخ فرنسا» « في هذه المعركة تقرر مصير العالم بحيث لو انهزم الافرنج لاصبح الدين المحمدي طافحا على كل المعمور . وفي طفحه الطامة الكبرى على مستقبل اوربا ومستقبل العالم ، لان دواعي العمل التي تدفع البشر نحو الرقي ليست من شيم المسلمين . ضرورة ان سيمتهم مشتقة من صورة اعتقادهم في صفات الاله . فانهم يعتقدون ان

الاله بعد أن خلق العالم انزوى يستريح في الوحدة والسكون الابدي . فهي فكرة لا تبعث في البشر وازع الارتقاء »

يسرني أن أوكل عهدة الرد على هذا المؤرخ لعالم فرنساوي أيضا ومن أوجه المؤرخين الا وهو « قوسطاف لوبون » قال لا فض فوه « لنفرض أن المسيحيين لم يستطيعوا قط رد هجمات العرب ، ولنفرض أيضا أن المسلمين وجدوا بشمال فرنسا طقسا يشبه طقس إسبانيا عوض طقسه البارد الذي لا تألفه طباعهم. وأنه تعلق بغرضهم الاقامة تحت سمائه بنية البقاء ، فلادراك ما يكون مصير شمال أوربا مع هذه الاحتمالات المستحيلة يكفينا أن نعرف ما كان حظ إسبانيا ، فنرى أنها بفضل مآثر العرب باتت ترفل في مدنية مشرقة بينما كانت بقية أوروبا تسبح في ظلمات الجهل . وعليه فمن البديهي أن الامم المسيحية يكونون حسب حالة التمدن في ذلك العهد ممن رجحت تجارتهم لو دخلوا تحت لواء رسول الله

وبهذا الانضمام تكون قد تغيرت طباع رجال الغرب ويكتسبون لطافة تكفيهم شر الحروب الدينية كدواوين التفتيش (١) وواقعة « سان برتلمي » (٢) وبعبارة أوجز

---

(١) كناية عن محاكم أسست بإذن البابا في القرون الوسطى للتفتيش على المرتدين وقتلهم . هذه المحاكم توجدت في جل الممالك الاوربية ودامت من عام ١١٨٣ إلى عام ١٨٠٨ حيث أبطلها نابليون . ثم أقيمت من جديد من عام ١٨١٤ إلى عام ١٨٢٠ . فقضت على عشرات الالاف من الابرياء . ومن خصائصها أن أبحاثها سرية لا حق في الاطلاع عليها لاحد لا وحتى المتهمين . وبعد أن كانت في بداية الامر ذات نزعة دينية اتخذها الملوك وسيلة للقضاء على أخصامهم السياسيين

(٢) واقعة مشهورة في تاريخ فرنسا وقعت على عهد الملك شارل التاسع . وهي كناية عن مقتل المسيحيين المتمذهبين بالمذهب البروتستاني . كان الملك قام احتفالا عظيما بمناسبة زفاف أخته . فأتى لباريس المدعوون من كل فج عميق ومنهم عدد كثير من الاشراف البروتستان ، ومن الغد أمر الملك بقتل كل البروتستان انقيادا لرغبة أمه . فأبتدأت المجزرة بباريس يوم ٢٣ أوت ١٥٧٢ مساء ومن جملة القتلى كل من كانوا بالامس مشاركين لبقية إخوانهم المسيحيين في أفراح الزفاف ودامت عدة أيام بل انتشرت بسائر جهات فرنسا وأعقبتها حرب داخلية كانت الخامسة من هذا النوع .

جميع الجوائح التي خضبت أوربا بدماء أبنائها القرون العديدة والتي لم يذق المسلمون أليها » .

قال السياسي الفرنسي كونت دوكستري « يتساءل المفكرون احيانا عن مآل أوربا المسيحية لو لم يوقف شارل مرتيل التيار المحمدي في مروج بواتي . يلوح لي أن هذا السؤال لم يعرض بالصورة المعقولة وأن الاصح أن يحول هكذا : لماذا كان يؤول أمر أوربا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين متهافتين على إكراه غيرهم على اعتناق دينهم ؟

أني استسمح القراء في وضع احتمال آخر : ماذا كان يقع في العالم لو كانت الحروب الصليبية بالنصر أي لو فاز فيها البابوات ولم يمحق صلاح الدين الايوبي بسلطتهم الزمنية الضربة القاتلة ؟ هذا من جهة ومن أخرى لو لم تكن للعلوم الرياضية التي كان علماء المسلمين حاملين ألويتها الفضل العظيم في إنقاذ عقول الغربيين من سباتها ولم تزلزل عقائدهم الأهوتية ولم تقض القضاء المبرم على السلطة الروحية المعترف بها سابقا للبابوية ؟ ألم تكن الحروب الصليبية ترمي إلى غاية تمكين البابا من الحق المطلق في نشر سيادته على الدنيا بأسرها ؟ .

إن معركة بواتي التي فاز فيها المسيحيون بفضل مساعدة الشعوب الجرمانية المعتنقة للمسيحية لم تزل معجدة العهد بفرنسا . فهل يأتي يوم نشاهد فيه الرجال المتمدنين حقيقة مجتمعين للاحتفال بذكرى المعركة الحاسمة التي فاز فيها صلاح الدين العظيم ؟

مهما يكن من أمر الاسباب التي تسببت عنها الحروب الصليبية فمن حسن الحظ أنها لم تأت بالنتيجة التي كانت الكنيسة تصبو اليها .

لا فائدة في زيادة البسط في هذا الموضوع ولو أنه حري به لما حواه من الفوائد التاريخية كيفما كان الملحظ الذي يلحظ منه ؛ فلا شيء يدعوني لتسطير تاريخ

الحروب الصليبية . إنما ذكرت بعض وقائع لاظهر للملاء الينبوع الذي تدفقت منه الاحقاد المتراكمة على المسلمين الذين لم يزالوا ضحايا هذه الاوهام العتيقة المتأصلة في عقول المسيحيين ، ففي القديم كانت الكنيسة تصارع الاتراك لتوقف سيرهم نحو الغرب لانهم يحملون معهم مدنيات اليونان والفرس والعرب. أما اليوم واحسرتاه ! فإنهم لا يحملون شيئا وبالرغم عن ذلك فإن لواعج العداوة التي أنشأتها الكنيسة لم تخمد نيرانها . إنما الحروب الصليبية حلقة من سلسلة غزوات بلاد الشمال على بلاد الجنوب ، تلك السلسلة التي عقدت بقية حلقاتها في يومنا هذا تحت أسماء مختلفة منها الاستعمار والتمدن والتوغل السلمي ومنطقة النفوذ والإنتداب الخ

فما هي إلا براقع تبرقعت بها وجوه غزوات ما أشبهها بالغزوات السابقة من حيث المشاعر التي انبنت عليها والاغراض التي ترمي اليها



ظهور الفشل بين الأمم الغربية

من خصائص الحروب الصليبية بل من أهمها ظهور فشل في العزائم وجمود في النفوس بعد الارسالية الثانية . فما هي يا ترى أسباب هذا الفتور الذي لم يحسب البابا والملوك له حسابا ؟ فإن البابا لم ينفك عن استدعاء الناس لاراقة الدماء في سبيل الله ولو أن الله نهاه عن استخدام السيف . كما أن ملوك الدول العظام الثلاث أي فرنسا وألمانيه وأنكلترا كانوا يقودون بأنفسهم جنود الكنيسة . وزد على ذلك أن الهتاف المألوف إذ ذاك سماعه وهو « سحقا للمسلمين ! » لا زال يرن بين جدران المعابد والهياكل . لكن رغم تلك المساعي المتواصلة فقد فقد الناس حرارتهم الاولى وأخمدت في نفوسهم تلك النار الوقادة التي حمي وطيسها أثناء الارسالية الاولى ، فالفلاح الذي كان يترك محراثه في منتصف الخط والراعي أنعامه والخادم سيده لتلبية دعوة بطرس الناسك أصبحوا لا يقبلون بالتجنيد إلا مرغمين مكرهين .

فلذا نتساءل ونعيد السؤال من أين اتى هذا الفشل ؟ فلا شك أن الهزائم العسكرية التي كانت نصيب الجيوش الصليبية لها الحظ الاوفر في إخماد نار الحمية في نفوس المسيحيين فإن في مثل ذلك العصر المتأخر الذي ضرب فيه على العقول بغشاوة من المعتقدات الدينية الحائلة بينه وبين إدراك الامور على حقيقتها يصعب جدا على تلك العقول أن تحتمل تغلب جيش المجاهدين على جنود مسيحيين يعتقدون وهم يخوضون غمار الهيجاء أن الله معهم ، فما كانت تلك الهزائم في نظرهم إلا تكذيبا لما وعدهم به دعاة الحرب الصليبية من أن النصر يكون حليفهم وما حققه لهم أولائك القسيسون من أنهم في نشر الدعوة لهذه الحرب إنما هم يبلغون ما أمرهم الله بتبليغه وأن الله الذي لا تعلو على قدرته قدرة تعلقت إرادته بنصر أوليائه حاملي الصليب . فاستولت

الهواجس على العقول وبات الناس يقولون لو أن الله حقيقة هو الذي أمرهم بتخليص ضريح المسيح لكان غمرهم بعنه وإحسانه ومدهم بسائر الاعانات الحسية والمعنوية حتى تكلل مساعيهم المقدسة بالنجاح . فما راعهم إلا أن شاهدوا لهذه الحرب نتيجة باءت من الخسران الساحق ما لم تبلغه غيرها من الحروب . ضرورة أن عدد من رجعوا سالمين لاوطانهم كاد أن لا يبلغ عشر المجندين . فإن الارسالية الاولى خرجت في ستمائة الف صليبي لم يصل منهم إلى أورشليم إلا ستون الفا . أما الحرب الصليبية الثانية إذا نظرنا إلى نتيجتها فنرى ان ملك فرنسا لويز السابع الذي قام بعبئها رجع منها بعد أن فقد جميع جنوده ... وعدد أيضا . إذ خرج في مائة وخمسين الفا مقاتلا فلم ينج منهم الا مائة وخمسون فارسا . فلا عجب حينئذ اذا كبر على المسيحيين مثل هذه الخسائر المفرطة وحنقوا على من دفعهم الى هذه الحرب الضروس الفتاكة بل لا عجب اذا اعتراهم من بعد ذلك الفشل والفتور

وهناك سبب ءاخر وهو سبب مادي كان القاضي على ذلك التيار الجارف الذي أخذ الالباب أثناء الارساليات الاولى : وهو أن رجال الدين المسيحي استمدوا من الحروب الصليبية فرصة ثمينة لابتزاز أموال الناس بدعوى إنفاقها في سبيل إعلاء كلمة الدين وتخليصه من عبث الجاحدين . بحيث أسفرت كل إرسالية عن زيادة في أموال الكنيسة ونقصان في مال الشعب . بيد أن هذه الاموال لم تنفق إلا لنشر الدعارة والاخلاق الذميمة لا لتوطيد أركان المسيحية . فظهر للعيان أن الحروب الصليبية إنما هي مكيدة عظمى دبرت لاختلاس الاموال . فأينما حل المتبصر لا يسمع إلا ضجيج الناس وتأنيب البابوية عما أظهرته من المطامع الذميمة . وهو لعمري تأنيب جاء على قياس التوبيخ الذي وجهه المسيح للحواري بطرس إذ قال له حسبما نقله الحواري مارك « أغرب عني إنك لشيطان رجيم . لا تهتم بشؤون ربك بل همك الوحيد بأمور دنياك » .

لكن رغم ذلك كله لا زالت خزائن رومة محتاجة للمال إذ لم يف بالقدر المطلوب اتجار الكنيسة في الامور الروحية وبيع الاعفاءات من الواجبات الدينية وبيع المناصب الدينية ومخلفات الحواريين .

فما فتىء البابا اينوسان الثالث يغري ملوك المسيحية بجزء عبلاته ويسن الضرائب على كل أمة مسيحية ليتسنى له تجهيز حرب صليبية أخرى . إذلا يرى بدا من إشهارها ليفوز بالفوائد الجمة التي كان يتطلبها . فعند ذلك ابتكر مشروعا كان وبالا عليه وهو سن ضريبة على أملاك رجال الدين راجيا من وراء ذلك توفير أموال طائلة بقدر ماكانت تلك الاملاك شاسعة . وقد رأينا بأية طريقة حصل رجال الدين على تلك الثورة الباهضة وهو أنه أثناء الحرب الصليبية الاولى إذ كان الناس مضروبا على مداركهم بحجاب من التعصب كانت الاراضي تباع بابخس الاثمان . وهي فرصة انتهزها الرهبان إقتداء بصنيع الكنيسة . فرأت هذه من الانصاف جعل أداء على أملاكهم . لكن فاتها أن رجال الدين وإن تظاهروا بالنزاهة والابتعاد عن حب الدنيا إلا أنهم لا يلبثون أن يكشروا عن ناب الغضب إذا مدت الايدي لارزاقهم . وإذ أيقن اولائك الرهبان والقسيسون أن لا مناص لهم من المشاركة بأموالهم في تخليص أرض القدس تدفقت قلوبهم غضبا فكان ذلك من الاسباب التي حالت دون مواصلة العمل في التجنيد الصليبي

واليك السبب الاخير وهو من الاهمية بمكان . فأن الصليبيين عند ماتفتحت أذهانهم بما شاهدوه بالشرق تجلت عن قلوبهم عوامل البغض نحو المسلمين . إذ من مؤالفتهم العدو ومعاشرتهم إياه تبددت عن أبصارهم غياهب الاوهام وغشاوة الضلال . فأدركوا كم غرهم أولياء أمرهم في شأن العرب والترك . وهنا يحق لي أن أقول أن هذا التطور الاحساسي شاهدنا مثيله من بعد ثمانية قرون في نفوس القواد البواسل الذين قادوا جنود المتحزبين في ميادين الحرب الكبرى وعاينوا الاتراك من قرب وسبروا قيمتهم الادبية

رأى الصليبيون أن احتقارهم لاصحاب صلاح الدين الايوبي ذلك السلطان الذي

اعترفوا له بالفضل والكرامة لم يصادف محله . رأوا أن جنوده كانوا أرفع شأناوأعلى همة من أنصار المسيحية الذين لادأب لهم سوى قتل النفوس ونهب الاموال . فان الحصار الذي كان نصبه الصليبيون على مدينة عكة بالشام في عام ١١٩١ قد خلد ذكره التاريخ من حيث معاملة الفريقين لبعضهما معاملة ملؤها الشهامة الحقة والاداب العالية ذلك لان الاحقاد الدينية دخلت دور التقهقر بقدرما أخذ التعارف الصحيح يتوطد بين الفريقين ضرورة أنه بقدر انقشع غبار الاوهام الباطلة الناشيء عن إختلاف العناصر وتباين الاديان وسطع من ورائه نور الحق يظهر الرجال بما وهبهم الله من الصفات الحميدة وبما انفطرت عليه نفوسهم من العواطف الجميلة . فحل امراء المسلمين و قد برهنوا عن الهمم العالية و الشيم الكريمة والمعارف المتسعة محل الاعجاب من قلوب الاشراف والفرسان المسيحيين ولسان حالهم ناطق بما خطه يراع الروائي الفرنساوي الشهير « فلتير » في مأساة « زهير » لما أخذت تلك الفتاة النصرانية تمدح الامير عصمان حبيبها ومولاها فقالت :

فمجد وإحسان سخاء وهمة * فلو مسحيا لم يزده مفاخرا

في ذلك العهد كان أمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني يواصل العلائق الودادية مع عظماء المسلمين وأمرائهم . وناهيك بعلو همة هذا الملك العظيم أنه كثيرا ما تعكر صفاء علائقه مع البابوات بسبب الافكار الحرة التي كان يجاهر بها . وقد سلطت عليه خمس مرات اللعنة الكنيسية التي تحرم الملعون من الحقوق البشرية وذلك لما أظهره في نظر الكنيسة من الزندقة و الكفر . كان يحسن اللغة العربية وأوكل تربية بنيه إلى عهدة أحد أبناء ابن رشد ذلك الفيلسوف الاندلسي الشهير

فإن القسيس برنار الذي دعا المسيحيين للحرب الصليبية الثانية لم يكد يتحمل وطأة الحزن الذي تولاه لما علم أن البعض من الصليبيين اعتنقوا الاسلام ولئن تمكن فيما بعد من إيقاف تيار هذا الانسلاخ عن الدين المسيحي فإن ذلك لم ينتج عن أدعيته ولا عن تبتله بل الفضل فيه لما بذلته الكنيسة من النقود الرنانة التي أغوت بها النفوس

حنق الكنيسة

لم تأت الحروب الصليبية بالنتائج المهمة التي كانت تنتظرها منهـا الكنيسة وترجو لها دواما . بل قد اعتبر المؤرخون أن البابوات هفوا هفـوة سياسية في إضرامهم نيران هذه الحروب. حقا أن سهمهم لم يصب المرمى في ثلاث نقط : أولها أنهم لم يهتدوا لتقدير قيمة ما للاتراك والعرب من القوة وشدة البأس في ميادين القتال ثانيها قد غاب عليهم أن المسلمين أيضا يعتبرون أورشليم مكانا مقدسا تجتمـع فيه أرواح البشر كافة يوم البعث . وأن واجبات دينهم تقضي عليهم بالدفاع عنه . ثالثها لم يدركوا أن ما انفطرت عليه طبيعة البشر من الانقياد إلى حكم التقليد و إن تمت قلت إلى شريعة تجاذب العقول بعضها لبعض بما يخامرها ، تلك العاطفـة الغريزية في الانسان التي تبعث به إلى تطلب ما يشاهده عند غيره من الرغد وخفض العيش والكمالات الادبية فتدفعه أحيانا إلى التطورات الفجائيـة ، قلت تـلك العاطفة لا تلبث أن تؤثر تأثيرها في نفوس الصليبيين.

لقد أخفقت آمال الكنيسة من جميع الاوجه حتى أن الارباح المادية التي انجرت لها من وراء الحروب الصليبية لم تبلغ بها إلى معادلة الملوك في قوتهـم فإن الموالي أرباب القطائع والاغنياء كانوا عند سفرهم إلى أورشليم يبيعون أراضيهم أو يحيلون ريعها على وجه الرهن ، بحيث جنى رجال الكنيسة من وراء ذلك فوائد عظيمة، كما كانوا استثمروا الفزع الذي القوه في النـفوس بمناسبة اقتراب آخر يوم من القرن العاشر . غير أن هذه الارباح الجديدة لم تف بأماني الكـنيسة التي كانت ترمي لتوطيد سلطانها الزمـني وتوسيع نطاقه ، ضرورة أن الملوك الذين لهم حق السيادة على أرباب القطائع كانوا يستحوذون من جهتهم أيضا على أوفر نصيب من الاملاك التي انقرض مستحقوها ، فيحرمون الكـنيسة منها بقدر ما

يوفرون أملاك التاج ويؤيدون عروشهم ، بحيث صارت أملاكهم ضعفي ما كانت عليه قبل انتشاب الحروب الصليبية ، وهذا ينبئنا عن وفرة عدد الاسياد الاوربيين الذين لاقوا حتفهم بالشرق .

ومن الوجهة الادبية ايضا لم تستفد الكنيسة بفائدة ، بل كان الامر بالعكس إذ عدت الحروب الصليبية سببا لاول خيبة أدبية للغرب ، كيف لا وقد انبنى عليها فساد في الاخلاق وانهماك في اللذات والشهوات ؟ ألم يعد البابا قبيل انتشاب الحرب بغفران جميع الذنوب ؟ ألم يصرح علنا بان المخالفة لما جاءت به الشريعة قابلة للمحو بل أن المسيحي مهما ثقل عبء جرائمه يمكنه التبرئ منها باحتمامه في دماء المسلمين ، أو عند عدم القدرة على ذلك يمكنه افتداء آثامه بالمال ؟ هل بعد هذا التصريح الصادر من اكبر ولي للنفوس المسيحية يبقى رادع أو شبهة لصد الانسان عن التدهور في مزالق الشرور ؟

ومن الوجهة الروحية فان امتزاج الصليبيين بالاتراك والعرب قد زعزع العقائد الدينية وأوهن الوازع الديني لدى الطبقات الراقية ببلدان الغرب ، وهي لعمري نتيجة غير مترقبة أنتجتها حالة الغرب على المدنية الشرقية ، فمن تصادم العنصرين لمعت بروق الحق فارتبكت العقول في صحة معتقداتها واستولت عليها الشكوك ، فاستيقظت من سباتها عاطفة الرغبة في البحث والاطلاع ، تلك العاطفة الداعية إلى درس الحقائق والتنقيب عن صحتها ، وحيث كان أرباب القطائع لا يعبؤن بمآل العقيدة عند الناس فقد أصبحت المبررة في الدين مطلقة العنان بسائر أقطار اوربا الجنوبية ، فان السكان هناك وبالاخص أهالي الثغور البحرية كانوا في صلة مستمرة مع المسلمين . نخص منهم بالذكر سكان مدن طولوزة وألبي ومنبيلي بفرنسا . فقد انجر لهم من جوارهم لغرناطة واتصال العلائق بها تحلية آداب لغتهم بقصص ذات مواضيع عجيبة وشعر كان غاية في الرقة . كل ذلك

مقتبس من الآداب العربية . فقد كان شعراؤهم يطرقون أبواب القصور لينشدوا على أربابها القصائد الغرامية والاناشيد الروائية . وما هي إلا صنف من أصناف الغزل العربي والاناشيد الغرامية التي جادت بها قرائح شعراء الشرق .

هذه المبادىء الحرة التي أخذت العقول في جنوب فرنسا ما كانت تهتز لها الكنيسة اهتزازا وتحنق عليها حنقا لو بقيت محصورة في ميدان آداب اللغة . لكن تلك العقول تطوحت الى توجيه الانتقادات المرة على أركان العقيدة . والذي زاد الامر خطورة أن تلك الانتقادات صدرت من فقهاء أيضا مثل روسلين وكوتشالك وأبلار وأرنودي بريسيا ، انتقد بعضهم المسلك الذي سلكه الفقهاء المسيحيون في مسألة القضاء والقدر ومسألة تقدير التثليث مستندين في انتقاداتهم على اقوال العلماء المسلمين . وانكر البعض الاخر سر « الافخارستيا » (١) فصاروا ينيرون كيفما يشاؤون الواجبات الدينية ويخففون من وطأتها .

ومن القرن الثاني عشر انتشر مذهب المانويين (٢) انتشارا عقليا وراجت

---

(١) « الافخارستيا » عبارة عن عملية دينية يقوم بها الراهب لفائدة كل مسيحي يطلبها اذا أحس بقرب أجله لانقاذ روحه من عذاب الآخرة ، فيتناول المحتضر نبذة من الخبز ورشفة من الخمر يتحولان عند بلوغهما الى معدته الى جسد اليسوع ودمه تحويلا حقيقيا ماديا . بحيث إذا احتضر عندئذ ذلك المريض يكون قد فارق الدنيا وهو حامل في بطنه روح اليسوع وصفته الربانية . فيكون مصيره نعيم الآخرة بالطبع ! ! !

(٢) مذهب ديني فلسفي ظهر بمدينة ماني من بلاد الفرس في خلال القرن الثالث المسيحي . مؤداه أن الخليقة لها ناموسان أحدهما منبع الخير وهو الاله أو الروح او النور والآخر منبع الشر وهو الشيطان او المادة أو الظلام . وفي وجود هذين المنبعين يرى أرباب هذا المذهب سبب وجود الخير والشر وبعبارة أخرى الهداية والضلال .

تعاليم الفلاسفة الناطقة بتوحيد الآله وبتشخيص وجوده عز وجل داخل مجموع الكون . وكانت مدينة ألبي مركز الهذا التطور الديني .

إن الفيلسوف الانكليزي سكوت أريجين المتضلع في العلوم الدينية قد قبل بكل إقدام بصحة المبادىء التوحيدية التي جاء بها الشرقيون وجحد فرض دعوى التثليث . كما ان برلجي ذلك الملحد الفرنساوي الشهير الذي حكم عليه الاساقفة بالالحاد في مجالس كثيرة كان ينقد بكل حرية العقيدة المسيحية ويباحث في نفس أصولها . والاساقفة نفسهم كان حمل البعض من كبرائهم الحملات العنيفة على البابوات وأنكروا عليهم جرائمهم .

لننقل هنا بعضها على ما كتبه جربيرت (١) الذي درس العلوم بمدارس قرطبة . فقال « إن البابا جان الثاني عامل جان الكردينال بقطع انفه ولسانه والبابا بونفاس السابع قتل خنقا زميله جان الثالث عشر . والبابا جان الرابع عشر حكم عليه من المنصب المنصة منه بالموت جوعا في سجون قصر سانتانج » ثم قال ختما « عجبا كيف يطيع الرهبان اوامر صادرة من مثل هؤلاء الوحوش الضارية المتشبعين من الفواحش المجردين مما فيه شائبة علم سماويا كان أو إنسانيا ! »

وقد أعلن الاسقف بيار دميان عظيم مقته لذنوب البابوات وجرائم الرهبان . وشدد النكير على انتشار مثل هذه الموبقات . كما أن الذين اعتنقوا الطريقة الكنيسية المعنونة بـ « الاخوة السائلين » تلك الطريقة التي أحدثت لتأييد البابوية ما لبثوا أن شقوا عصا الطاعة في وجوه البابوات .

لكن هذا كله لا يضاهي من حيث الخطارة على الكنيسة ارتداد « التمبليين » وما أدراك من « التمبليون » هم اصحاب طريقة كنيسية كانوا في مقدمة المسيحية حين مصادرتها للاسلام . وكانت وظيفتهم حماية القادسة او حجاج بيت المقدس

---

(١) جربيرت اسم البابا سلفيستر الثاني الذي كان أول من دعا الناس للحروب الصليبية

لكيلا يغتروا لما عسى أن يطرق اذهانهم من مبادىء الاسلام . ولكن تخشى عليهم اقترابهم من المسلمين أن تطرق الشكوك عقولهم في صحة معتقداتهم الدينية . فصدر الاذن بحل طريقتهم التي رميت بالكفر والميل الى الاسلام . وحيث كان غالب هؤلاء الفرسان الكنيسيين على خبرة تامة من حالة المسلمين ببلاد فلسطين وباسبانيا فانهم انقلبوا يمدحون سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام « لانه أتى بأصول توحيدية تفوق غيرها من حيث التنزيه والطهارة » ويمجدون السلطان صلاح الدين الايوبي « لانه من أشجع الفرسان وأكثرهم إقداما على أهوال النزال وأشدهم ميلا لاحترام مبادىء الانسانية » . فان ملك فرنسا فيليب لوبيل سعيا وراء قمعهم وتوقيف تيار آرائهم أودع السجن ستين منهم وجردهم من أرزاقهم . ثم أمر بحرقهم أحياء بباريس . فنفذ أمره وإذ تكاثر تصاعد الدخان وامتدت الالسنة النارية أتى هذا الملك وحضر بنفسه على تعذيب هؤلاء الشهداء على انه لم يكن أكثر أيمانا بالمسيحية من ضحاياه . فانه ذات يوم اعتراه حنق شديد من جراء تدخلات البابا في امره ومن دسائسه فقال « كم أنت سعيد يا صلاح الدين فلا بابا فوقك ! ليتني كنت مسلما مثلك ! »

ما خدت الاحقاد التي كانت تضطرم في نفوس رجال الكنيسة من تلقاء انتصارات المسلمين حتى باغتهم هذا الخطر الجديد ، وهو تفشي المبادىء الاسلامية بين طبقات المسيحيين . فأبسلت الملحدين وأسرعت الى مدينتي ابي وطولوزة اعوانا يحملون اوامر الابسال مع الاذن بنصب محكمة دينية للقضاء على المرتدين وكذا انتصب لاول مرة ديوان التفتيش

في القرن الثالث عشر كان الارتداد يعتبر في نظر الكنيسة جناية أكبر وأشد فظاعة من السرقة والزنى . فكانت تعامل بغاية الشدة والغلظة من وهنت عقيدتهم متغاضية عن الجناة والمجرمين . ناهيك بانها أكرهت الناس على الاقرار

بالإيمان الصحيح ، واتخذت من الوشايات وتقارير الشرطة الكنسية سلاحا للبلوغ لغايتها الوحيدة ، وهي مكافحة الارتداد وتكبيل الفكر البشري فتوخت في ذلك طرق التغالي في الدين وسلكت نحو الاهالي مسلك الرعب والارهاب وسنت قانونا يقضي على المرتاب في امرهم بأشد العقوبات وأقصى

في ذلك الوقت كان الاتراك قد أحرزوا على بعض انتصارات على الارمنيين فقام لها العالم المسيحي وقعد . وانتهزها الشرد والبطالون والمستفيدون من الاضطرابات العمومية فرصة للعمل على الاتراك

طالما شاهدنا في يومنا هذا مثل هذه التدخلات الجافية من أمم مسيحية لم يمسها ضر من الاتراك غير انها تنتحل مبررا لتدخلاتها من خيبة أمة مسيحية في إضمارها الشر لنا . ولقد أدرك القارىء بلا شك ان هذا المسلك قد سلكوه معنا من عهد بعيد

فانتدب البابا ملك فرنسا لاعلان حرب صليبية على الاتراك . غير أن ما كان لانكلترا من المرامي السياسية حسبما شرحه المؤرخ الانكليزي ميلمن حال دون انجاز المشروع بعد أن اجريت التحضيرات اللازمة وهاج الفكر العام وماج . فكانت في هذا الهيجان وفي تلك التحضيرات فائدة للبابا . أذ تمكن من إيقاعها على المشركين بداخل البلاد المسيحية بل على الاعداء السياسيين للعرش المقدس

إن التعصب الديني يشتد أزره وتتضاعف تغاليه بقدر ما يحس أربابه بالخطر فأوغل الرهبان في سائر أنحاء البلاد يدعون الناس لحرب صليبية بيد أن في هذه المرة أعلنت لا على المسلمين بل على « الالبيين » وعلى سائر سكان فرنسا الجنوبية . فانهم وإن كانوا فرنسويين ومسيحيين كاعدائهم إلا أن العلوم العربية قد أنارت عقولهم ومزقت بها حجب الجمود ، وهو ذنب لا يغتفر

إن هناك سببين حملا الكنيسة على إسعار لظى حرب داخلية . أولهما ان جنوب فرنسا كانت تديره إدارة ذات اسلوب جديد يحاكي الاساليب الجاري بها العمل في قرطبة وغرناطة . فاكتسب من ورائه ثروة ورفاهة معدومتين في شمال فرنسا المسيحي . كما أن الفلاحة هناك أحرزت على رقي باهر بتعاطي زراعة نباتات وحبوب جديدة جلبها السكان من الشرق . وزد أن الصناعات ايضا اتسع نطاقها وأخذت في النمو بفضل معلمين أوتي بهم من عرب اسبانيا وصقلية . بحيث يخال المتبصر كأنما فرنسا الجنوبية تسكنها امة مستقلة بلسان وآداب ومدنية تخصها . وهذا السبب الثاني الذي حمل الكنيسة على اشهار عداها على هؤلاء السكان . قال المؤرخ الفرنساوي ميشلي « إن العنصر السامي المتركب من اليهود والعرب كان ذا مكانة ببلاد الانكدوك . وقامت مدينة نربونة زمنا طويلا تحتا للعرب بفرنسا . وكان اليهود صلة بين المسيحيين والمحمديين وبين فرنسا واسبانيا فاصبحت العلوم التطبيقية المستعان بها على قضاء الحاجيات المادية من طب وحساب وغيرها متداولة الدراسة من ارباب الديانات الثلاث بدون ميز . فامحت الحزازات الناشئة عادة عن اختلاف اللغات وتباين الاجناس والشعوب . وكذا الجد في العمل والمنزع المارقون عن الدين المسيحي والكافرون (اي المسلمون) . وحصل التقارب بينهم من كل جانب . بحيث يصدق ان يقال ان مدينة منبلي المسيحية تواصل مدينة صليرن الاسلامية بايطاليا ومدينة قرطبة باسبانيا أكثر من مواصلتها لرومية نفسها . بل ان الكفر والالحاد حطا رحلهما حتى بكنيسة طولوزة » بجنوب فرنسا كان الاشراف يضاهون الملوك من حيث الغنى والبأس . فلاح للكنيسة أن من أعظم الخطر على ايرادها أن تسمح بالانفصال عنها لبلاد كهذه ذات خصب وثراء . على أن الطريقة الحرة التي توخيها ادارة البلاد أسفرت عن اشتعار الردة باشكال متعددة . فخفت صوت الاحساس الديني في النفوس لحد ان نجد رجال

الكنيسة تلك الاحترام الاعمى الذي تشعر به عادة النفوس البشرية ضعيفة الادراك او قليلة التهذيب مثل نفوس سكان فرنسا الشمالية في ذلك العهد . فرأت الكنيسة حينئذ من واجبها الحتمي ان تضيق على منافس هذه المدنية اللاحقة في النمو وان تهدم انتشار الارتداد بيذلها في هذا السبيل كل مرتخص وغال .

انطلق العنان لنزاع التعصب الديني ودواعي النهب والقتل . والفضل في ذلك لدعاة هذه الحرب الصليبية الجديدة التي فاقت سابقتها شناعة وفظاظة . إذ كانت هي ام ذلك الوحش المفترس المريع الا وهو ديوان التفتيش . فشوهت جبين رومية بشائبة من الدم لن يمحوها الدهر .

فما لبث سكان شمال فرنسا الا ان انقضوا على مدينة بيزي ، وما هؤلاء الا زمرة من الشرد الطغاة ومن الرهبان سفاكي الدماء تسمت نفوسهم بالعداء الكنيسي وهاج طموحهم الى اغتصاب خيرات البلاد الجنوبية

فوثب رجال الشمال على رجال الجنوب وغزوا البلد سياسيا ودينيا من نهر الغارون الى سواحل البحر المتوسط . نهبوا كل ما اعترضهم نهبا ذريعا ودمروه تدميرا فظيعا . وذبحوا الآلاف المؤلفة من النفوس البشرية . فما من قصور الا ونهبوها وما من صنائع الا وقوضوها ، ففي مدينة كركسونة قبضوا على اربعمائة وخمسين ملحدا وتلوهم حرقا بالنار . وفي بلدة لافور شنقوا ثمانين من اشراف الفرسان . فلجأ السكان الابرياء الى الفرار . وهم تحت عوامل الفزع والاندعار . لكن سرعان ما أدركوهم وأخذوا في مطاردتهم والفتك بهم والراهب سيتو يصيح « اقتلوهم ، اقتلوهم عن آخرهم والله يصطفي من بينهم أولياءه »

وتمت هذه الفضائع في عام ١٢٢٦ . فما كان أبعد هؤلاء الاشرار المتقمصين بأثواب الدين عما قاله المسيح للحواري بطرس « لا تستعمل السيف أبداً » فـان عبث البابوية ببلدة الرصافة كلفها تلقب سلطانها الزمني . نقل عن ابن مريم عليه

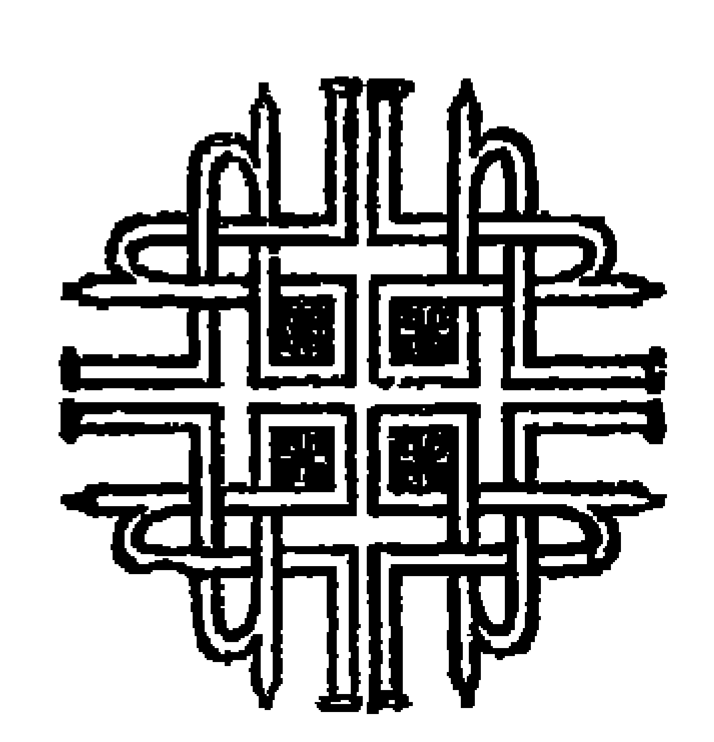
السلام أنه قال « من يضرب بالحديد يموت بالحديد » . ولقد صدق قول من قال كما يدين الفتى يدان .

لم يهتز ملوك ذلك الزمان لهذه المجازر المسيحية ولم يرفعوا صوت الاحتجاج عليها . اولائك الملوك المتناهون في الاعتصام بحبل الكاثوليكية الذين خلفهم اليوم من يظهرون غاية الحنو ومنتهى الانعطاف نحو مسيحي الشرق . بل كانوا يعاضدون تحت الخفاء القائمين بتلك الاعمال الدموية . فان ملك فرنسا لويز الثامن خرج بنفسه على الموسومين بالردة سكان مدينة أفنيون وبأمره وقع ذبح جميع من عثر عليهم بالمدينة .

كان الملوك يرون لهم في هذه المذابح فائدة سياسية وهي تضعيف قوى أرباب القطائع المزاحمين لهم في السلطة . فظلوا يعطون أرزاق هؤلاء ومناصبهم لمن يقاتلهم على سبيل الجزاء . وسعيا وراء توفير الاسلاب عم القتل كل « الالبيين » بدون ميز بين الباقين على السنة الكاثوليكية والمرتدين عنها . فاتفقت السلطتان الدينية والسياسية وتعاونتا . وإن شئت قلت تواطأ رجال الكنيسة لما لهم من المطامع الذميمة مع ارباب السلطة المدنية . فكأني بهم يقولون لبعضهم « قد قضيت على اعدائك فقم بواجبك نحوي أن تقضي على اعدائي » . هذا التعاهد الشنيع الذي ربما جحدوه اليوم لما يجر لهم من الخجل لم يزل معمولا به ضدنا ليومنا هذا .

كتب المؤرخ الالماني هيرن في هذا الموضوع « دامت هذه الحرب المبيدة احدى وعشرين سنة بجنوب فرنسا قضى فيها التعصب الديني المتناهي والوحشية القاسية والتعطش الى النهب والابتزاز على تلك البلاد الجميلة . فدمرتها ونسفتها مدة جيل كامل . وذلك بدون أن تقضي على الارتداد الذي أتانه لاستئصال شوكته » .

لا غرض لي في إطالة وصف هذه الفضائع المفزعة وإظهارها في شكلها الرهيب . وإنما اكتفي بان الاحظ أن الاتراك لم يصدر منهم ابدا مثل هذا التوحش المفرط . فان نفس مذابح التي نسبت اليهم لا تبلغ من حيث الفضاظة والقساوة ما بلغته هذه المجازر المسترسلة . ولعمري يحق لي ان أقول إن من كان له ماض كهذا سطره التاريخ في سجلاته يلزمه ان يتبصر طويلا في امره قبل أن يصف الاتراك بسفاكي الدماء .





الحرب الصليبية ضد مسلمي اسبانيا

إن المحاكم القضائية التي نصبها ديوان التفتيش والسلوك الفاحش الذي سلكته في مراقعاتها من الجهات سرية وتلقي شهادات تبقى أسماء المؤدين لها تحت طي الخفاء كشفت للكنيسة أن ريح الارتداد يهب من اسبانيا على اوربا . بل أن جميع المرتدين يستمدون حججهم ومباديهم من كتب العرب . وإذ كانت هذه الكتب منبع الافكار الحرة فهي بالطبع في نظر الكنيسة منبع الشر والفساد

من المحقق إنه لحد القرن العاشر لم يتجرأ المرتدون باوربا على مقاومة مبدأ التنزيل أو جحود عين الاصول المقام عليها الدين المسيحي . بل كان رجال الكنيسة وأفراد الشعب يعيشون عيشة السوائم مستسلمين لما يلقى على مسامعهم استسلاما مشينا لناموس الادراك البشري . أما وقد جاءت مدنية العرب بما حوته من تحرير العقل من ربقة العبودية انتشر الارتداد الحقيقي وكذلك التمرد السياسي . فسلط البابا اينوسان الثالث المسيحين باسبانيا على مسلميها . وقد كنا ذكرنا أن هذا البابا هو الذي دفع الغرب مرتين متواليتين في الحروب المقدسة (الرابعة والخامسة) . وهو الذي شن الغارة من شمال فرنسا على « الالبيين » بجنوبها .

قبل أن أبسط القول في هذه الحرب الصليبية الجديدة استسمح قراءنا في ذكر واقعة حال ملفتة جدا للنظر . وهي أن جزيرة صقلية التي احتلها العرب في القرن الثامن أحرزت في عهدهم على رقي أدبي ومادي لم تعرفه من قبلهم ولم تسترجعه من بعدهم . فان سكانها المسيحيين كانوا متشبثين –

كما هو حظ كل مسيحي بسائر الممالك الاسلامية ـ بكامل الحرية في تأدية واجبات دينهم . وكانوا شاعرين بسعادتهم

غير أن هذه الجزيرة أصبحت منبع نور ساطع يلقي أشعته على ما حوله كمشكات تبدد ظلمات الليل . ولقربها من رومية أغشت بنورها بصر البابا فتحير لامرها . ولم يطل به الامر حتى دبر لها المكائد وحرش السكان وأثار ثائرتهم على ولاتها المسلمين . والحق يقال إن عرب الجزيرة كانوا اذ ذاك منقسمين على بعضهم لمنافسات داخلية . فبعث ذلك الانقسام المشؤم بأمير سراكوسة الى الارتداء برداء الخيانة . فاستنجد المسيحيين واتفق مع النرمنديين لتسقيط حكومة السلطان بمدينة بليرمو .

في بداية الامر نزل بالجزيرة الفرسان النرمنديون واشياعهم بصفةمهاجرين ثم لما استقر بهم النوى شرعوا في القتال تحت قيادة قائدهم « روجي »وبمجرد ما استووا على عرش الجزيرة أجروا فيها من الفظائع عين ما أجراه من قبلهم اخوانهم المسيحيون بالشام والبيزنطينية . فنهبوا ليس المسلمين فقط ـ الامر الذي ما كان ينكره عليهم مسيحي ـ بل وحتى سكان كامل الجهات المجاورة للجزيرة بتراب إيطاليا نفسها . فتذمر البابا من افعالهم هذه واستمد من اليونان والالمان قوة عسكرية لطردهم من تلك الفيافي . كتب هذا البابا في الكتاب الذي بعث به الى منجديه ما نصه « عزمت على تخليص إيطاليا من هؤلاء النرمنديين الذين بلغ بهم التكالب لحد لا يحترمون معه شيئا إذ صاروا يصادرون ويذبحون حتى المسيحيين بعد إذاقتهم من اليم العذاب ما لم نعرفه من قبل . فاقدين كل شعور انساني ناقمين على كل من يظفرون به مهما كان سنه بدون ميز بين الذكر والانثى ، فنهبوا الكنائس بل أضرموا النار فيها وهدموها حتى اصبحت قاعا صفصفا لا ترى فيه عوجا ولا أمتا . وخلاصة القول انهم برهنوا على جشع في نفوسهم وتكالب في اخلاقهم لم يدع في قلوبهم مجالا للرحمة والشفقة .

بيد أن استنجاد البابا لم يحل محل القبول إذ لم يرد له عن كتابه جواب. وما كان هذا الأمر ليثني عزمه . فجهز جيشا قليل العدد وهجم به على النرمنديين إخوانه في المسيحية . فطاش سهمه وأُخذ أسيرا .

دام استيلاء النرمنديين على الجزيرة إلى عام ١٢٨٢ وفيه تقوض بغتة وكان زوال سلطتهم نتيجة مؤامرة دبرها الصقليون وأنجزوها بطريقة مرعبة يوم عيد الفصح. فحينما دقت الاجراس مؤذنة بالصلاة كنت ترى النرمنديين يؤمون الكنائس جموعا كثيفة حتى اكتظت بهم . فهجم عليهم المؤامرون من سكان الجزيرة وذبحوهم عن بكرة أبيهم إلا فارسين تمكنا من الفرار .

يرى المؤرخون في هذا الحادث المعروف في التاريخ بلفظ Vêpres Siciliennes أي « صلاة الصقليين » انتقاما من الله ، لكنهم لم يدققوا النظر فيما إذا كان هذا الانتقام للبابا أم للمسلمين أولائك الذين عاملهم النرمنديون بسائر أنواع المصادرات حتى قضوا عليهم بالجلاء النهائي من الجزيرة .

لنعد الآن بصدد بسطه فنقول أما وقد انقرضت القوة الاسلامية بصقلية فدارت الدائرة على مسلمي إسبانيا . على أنه من القرن الثامن والقتال متواصل هناك بين المسيحيين والمسلمين . وكثيرا ما شارك يونان البيزنطينية في هذه الحروب في صف المسيحيين . أما في هذه النوبة ــ وهي النوبة الاخيرة ــ أشهرت حرب صليبية جديدة بإعانة البابا . فكانت أعظم خطارة وأشد قساوة من سابقاتها حيث تقاطر المجاهدون من سائر اقطار الغرب للفتك بمسلمي شبه جزيرة إيبيريا . وأحدث البابا طريقة جديدة للفروسية لخصوص طرد المسلمين من إسبانيا واعدا من ينخرط في سلكها أن يجازيه بحصة من الامـلاك والاراضي الشاسعة التي تفتك من أيدي المسلمين .

ولما استولى المسيحيون على قرطبة وإشبيليا وقادس كان حظ المسلمين بهذه

المدن الثلاث أن قتلوا جميعا بحد السيف بإذن من الملك فرديناند الثالث الذي أحرز عندهم على درجة الصلاح ولقب بالملك الصالح لما أظهره من الاغراق في سفك الدماء البريئة . ثم لما استولى الملك فرديناند الخامس على مدينة غرناطة وقضى بهذا الاستيلاء على الاحتلال العربي قضاء مبرما وبما أنه عاضد ديوان التفتيش في احكامه المفزعة استحق جنابه أيضاً أن يلقب بين المسيحيين بالملك الكاثوليكي. على أن هذه الالقاب الشرفية وإن كانت في ذلك العهد من أنفس ما يتحلى به المسيحي لم تكن الداعي الوحيد لتطوح الملوك وتهافتهم على اجتياح مدينة زاهرة اجتياحا أثيما . بل أن الذي دفعهم وأضرابهم لهذا العمل المشين هي الاحقاد الدينية وحب ابتزاز خيرات عظيمة طالما تاقت نفوسهم إليها . كتب المؤرخ الفرنساوي فياردو « ذهب الملك الصالح فرديناند إلى الجامع الاعظم ذلك المعهد شامخ الذرى الذي بناه عبد الرحمان الاول وحوله كنيسة . اما بقية الابنية الضخمة التي لم تكن لها صبغة دينية تقيها من شر الفاتحين المنهمكين في منازع التوحش ومظاهر الحقد والتعصب فإنها اتلفت أثناء عمليات النهب والتخريب . فإن البناءات النفيسة التي كانت تحيط بالمسجد وكذلك قصر الزهراء الذي كان يعد من أعجب ما شيدته يد الانسان أصبحت أثرا بعد عين . لم يبق منها إلا بعض سوار تشكو عزلتها في بقاع صيرتها يد الانسان الاثيمة قفراء وتشهد بين يدي الناظر أن أمة متمدنة كانت في سالف التاريخ تشغل هذه البلاقع مبدلة وحشتها بالانس والعمران »

وكتب الفيلسوف الاجتماعي الفرنساوي قوسطاف لوبون في كتابه « مدنية العرب » « يستحيل على المرء أن لا ترتعد فرائصه حينما يقرأ مـا رواه الرواة في شأن أنواع المصادرات وضروب الاعتداء التي قام بها المسيحيون المنتصرون ضد المسلمين الذين أخنى عليهم الدهر بكلكله . فقد أكرهوهم بالقوة على اعتناق المسيحية . وسلموهم فريسة لديوان التفتيش الذي قتل منهم ما استطاع بالحرق

إلى أن ابتكر رئيس الاساقفة بمدينة طليطلة طريقة من شأنها أن تسهل العمل . وهي أن يقتل بالسيف جميع العرب الباقين على دينهم . . . وكفى !

لكن سرعان ما رأوا أن في هذه الطريقة نفسها تطويلا ، فالتجأوا إلى طريقة أنجع وأخصر جاء بها الراهب بليدو وهي قطع أعناق جميع العرب بدون ميز بين من تنصروا وغيرهم وبدون استثناء النسوة أو الاطفال . فأقيمت مجزرة شنعاء أطلت من دماء المسلمين أنهارا إلى أن عيل صبر الحكومة فأصدرت أمرها بدفع ما بقي من المسلمين خارج التراب الاسباني . ولقد نقل الراهب بليدو أن أثناء المسير بهم إلى منفاهم قتل أكثر من ثلاثة أرباع عددهم . فإن في إحدى البعثات التي احتوت على مائة وأربعين ألفا مسلما قاصدين بلاد إفريقية أزهقت أرواح مائة ألف نسمة منهم في الطريق . والخلاصة إن نخبة العرب باسبانيا من علماء وأدباء ومفكرين وأرباب صنائع راقية وإن شئت قلت ثلاثة ملايين من المسلمين النيرين كان نصيبهم القتل أو الطرد . بحيث أن مدنيتهم المشرقة التي أنارت حنادس الظلام وألبست أوروبا من أشعة نورها ما تفتقت به عقول أبنائها مدة ثمانية قرون متوالية ذهبت أدراج الرياح إلى الابد . فانا إذا قايسنا مجازر كهذه بواقعة « سان برتلمي » التي تهتز لها النفوس كراهة تظهر لنا هذه الواقعة كمعركة طفيفة لا أهمية لها . بل أن الامر الذي ينبغي الاصداع به هو أنه قلما نجد من بين الغزاة الذين ضرب المثل بتوحشهم وقساوتهم على اختلاف العصور وتباين الاجيال من اقترفوا مثل هذا التذبيح الجافي » .

إنه لمنظر محزن ومكدر للغاية منظر مشروع عظيم بل منظر ثمرة فاخرة أثمرتها سبعة قرون قضيت في العمل المتواصل والكد الشديد الذي كان مبنيا على قاعدة تضحية المصلحة الشخصية في سبيل المصلحة العامة . قلت إنه لمنظر محزن منظر اجتثاث هذه الثمرة النفيسة شر الاجتثاث . منظر مدنية جميلة

أشرقت من ربوع العرب على العالم فبددت عنه حجب الظلام . لكن سرعان ما أدركها الانقراض وسرعان ما سقطت في الاتون الاثيم الذي أججت نارة أوربا المسيحية .

إن مخيلتي لا تكاد تصور لي وجود نفس بشرية حساسة أو متبصر ينظر بعين متجردة عن الاغراض إلى تلك الاطلال الرهيبة بدون أن يشعر بتحرق في أحشائه تحسرا على زوال تلك النتيجة الباهرة في مدرج الرقي ، مرتجفا من أولائك القتلة الاشرار المتسترين — يا للدعارة ! — بأثواب الاتقياء . أولائك الذين أبادوا بتوحش مفزع شعبا هادئا مسالما اشتهر بالعمل الناجح وتمثوا مرتقى العلوم والاداب . أولائك الذين خربوا مدنا شائقة بل أزهر مدن القرون الوسطى وأرقاها . فأطفأوا منبعثا من الانوار قد أخذ يضيء بشعاعه الساطع قمم الاداب الغربية . أطفاوا هذا النور مخافة أن يعم كامل العالم المسيحي فيبدد حجب الغيوم الكثيفة المتراكمة عليه .

لقد وصف المؤرخ الانكليزي درابير في كتابه « تاريخ الترقي الادبي بأوربا » ما أحرزت عليه إسبانيا من التمدن والنضارة على عهد العرب ورسم لهذه المدنية رسما لا تشوبه شائبة اقتطفت منه هذه القطعة واليك نصها :

« بمجرد ما تسلم العرب مقاليد الامور بإسبانيا بادروا بالشروع في مشاريعهم النيرة . فكان كل خليفة من خلفاء قرطبة عند استيلائه يعلن ويجاهر بولائه للعلم وذويه مقتديا في ذلك بالمبدإ الذي اتخذه مسلمو آسيا قاعدة لسياستهم ، فكانوا مثلا للاداب وحسن الخلق بما أعطى اتساعا خارقا لمسافة الخلف بين أخلاقهم الراقية وما كان عليه إذ ذاك ملوك أوربا من خشونة الطباع وسذاجة الاخلاق . ففي عهد أولائك الخلفاء بلغت قرطبة إلى ذروة الرقي وغاية السعادة بعد غروب الشمس يمكن المرء أن يقطع عشرة فراسخ على خط مستقيم وهو

مستنير بضوء الفوانيس المصففة بالشوارع . ويجدر بنا أن نذكر هنا أنه بعد هذا العهد بسبعمائة سنة لا زال التنوير العمومي مجهولا بلندرة .

وعلاوة على ذلك كانت شوارع قرطبة مفروشة بكيفية منظمة . ولا ننسى أن في باريس نفسها ما كان يستطيع الانسان أن يجاوز عتبة داره بدون أن ترتطم رجلاه في الوحل إلا بعد هذا العهد بأربعة قرون . أما قصور الخلفاء فقد كان فيها من التزويق والتنميق ما يبهر العقول . إنه ليحق لهم أن يرمقوا بعين ملؤها الاحتقار منازل الملوك بجرمانية وفرنسا وأنكلترا . تلك المنازل الحقيرة التي كادت أن تكون فاقدة المداخن والنوافذ ما عدى ثقب في السطح يصعد منه الدخان مثل ما جاءت عليه أكواخ الجلود الحمر الذين كانوا يقطنون بأميركا

« ولقد جلب المحمديون معهم لبلاد الاسبان كل ما اشتهرت به آسيا إذ ذاك من البذخ والابهة . بحيث يرى الناظر مساكنهم تتيه عجبا تحت القبة الزرقاء او تتوارى في دواخل الغابات تحت ظلال الاشجار المحيطة بها من كل جانب . فإذا اقترب منها الزائر يقع نظره على شرف من صقيل المرمر وحدائق معلقة في الفضاء زاهرة بأشجار البرتقال . وإذا دخلها يجد من الغرف الهادئة المظللة بالاغصان الفائحة ما يدعو للذيذ النوم عند ما يشتد حر الهجير . وبوسط كل منزل صحن تزيده زخرفة أحواض تنسجم منها المياه وقاعات للراحة ذات سقوف مموهة بالذهب الوهاج ومزدانة بالبلور مختلف الالوان . وفيها من القنوات المائية ما يكسبها برودة مستديمة في اعتدالها . أينما حل بصره سواء بالارض أو بالجدران يرى من أنواع الجليز ما يستوقف النظر ويأخذ اللب بروعة جماله . هنا ماء سلسبيل يندفع من فوارة فيصعد باستواء ثم يتفتح كغمر من السنبل فيستحيل إلى قطرات متتابعة تترقرق من اختلاطها بأنوار الشمس . وما تلبث أن تنعطف فتقع في حوض معدني مصلصل تنبعث منه نغمات تشنف الاسماع ...

حنينها العجيب . وهناك مخادع شائقة تتحلى في المصيف بمراوح تجعل الهواء في تجدد دائم وتجلب النسيم من الحدائق المكسوة زهورا . وتتوقى من برد الشتاء بقنوات تجري داخل الجدران يتخللها هواء دفيء معطر يفور إليها من حمام يشغل ما تحت سقوف الطبقة السفلية من المنزل . ما كان عرب إسبانيا يكسون جدران مساكنهم بالخشب بل يزركشونها نقوشا ويبرقشونها ألوانا بما يمثل المناظر البرية أو مشاهد الجنة على حسب ما تصوره لهم مخيلتهم الوقادة . ومن السقف المحوط بطنف مموه ذهبا تتدلى ثريات عظيمة

« مخادع الملكات كانت مقامة على أساطين من البلور العتيق ملونة بالاخضر ومرصعة بالازورد وغيره من الحجارة الكريمة . وأثاث البيت مصنوعة من عود الصندل أو عود الليمون ومرصعة بالجواهر ومنزلة بالعاج والفضة وموشحة أوشحة من ذهب أو من حجارة الدهنج . موضوعة على تلك الاثاث النفيسة في حالة اختلاط ظاهري يشف عن تفنن ورقة في الذوق أوعية من البلور الطبيعي وأوان صينية . أما الموائد فإنها مجزعة بانواع الرخام . ولزمن الشتاء غرف مخصوصة مكسوة بالرياش النفيسة .

إلى أن قال « صحن المنزل وكذلك البيوت نفسها تكتض بالازهار الجميلة والنباتات الغريبة النادرة . أما النضافة فقد كانت الشغل الشاغل لمسلمي إسبانيا . فهم لا يتركون صغيرة ولا كبيرة في سبيل المحافظة عليها . ما خلا منزل من قنوات معدنية تنتهي في أحواض من رخام وتجلب لها الماء الفاتر أو البارد حسبما تقتضيه فصول العام

« لم تفق أمة من أمم العالم عرب إسبانيا في فن تكوين الخمائل والحدائق . بل لم يبلغ أحد الدرجة التي أوصلتهم إليها رقة ذوقهم في تزيين المنتزهات . لقد تساهى العربي في دراسة الفنون المستظرفة حتى صار من شدة اعتنائه بأشكال

النباتات وألوانها لا يزرعها في حديقته إلا بما يجعل تلك الاشكال والالوان متتابعة متعاقبة بكيفية رائقة . بل أنه إذا اقتصر على ذلك لا يرى نفسه قد وفى بما تطلبه منه رقة شعوره ولطف حواسه . إذ هذا التدرج في الالوان والاشكال وإن كان مرضيا لحاسة النظر إلا أنه لا يعطي لحاسة الشم مرتضاها . فتراه سعيا وراء هذه الغاية يرتب النباتات لحديقته بحيث يمكن للمتجول فيها أن يشعر بتدرج ليس فقط في الالوان والاشكال بل وحتى في الروائح المتصاعدة من الازهار بقدر ما يتوغل ذلك المتجول في الحديقة »

حل العرب بإسبانيا خالين من الاحقاد الدينية غير مصحوبين بدواوين التفتيش . بل أتوا بشيئين من أنفس الاشياء وعليهما يدور محور مجد الامم لاوجه شتى . وهما التسامح في المعتقدات والاعتناء بنشر جميع العلوم حتى علم الفلاحة . فبفضل مهارتهم واتساع معلوماتهم الفلاحية تمكنوا من التوفيق بين طقس البلاد وأشجار ونباتات كانت لحد عهدهم مجهولة بأوربا كشجر التوت والخرنوب والنخيل والعوينة وقصب السكر وشجرة القطن والذرة إلى غير ذلك من الاشجار التي كانت لا تلتئم مع الطقس الغربي بحيث كان أول شيء اهتموا به مع نشر التعليم وإنشاء المدارس استخصاب الارض بنوامر جديدة

للمؤرخ درايبر إحصائية تشتمل على تسعمائة حمام بمدينة قرطبة. أليس هذا من أعظم الشواهد على تقدير العرب النضافة ولوازم حفظ الصحة حق قدرها ؟ لقد تجولت زائرا في بلدات إسبانيا اليوم فألفيت الشوارع على حالة قذارة فاقت بها شوارع نابلي وبعض أزقة الاستانة . أين ذهبت يا ربا تلك الفوارات والحمامات وتلك القصور الشاهقة التي جمعت بين ذكرى العصور الوثنية الغابرة وفخامة الفنون الاسلامية ؟

من المسلم أن القصور والمدارس والحمامات والبساتين إنما هي أبنية ومزروعات في الامكان استعادتها بإنفاق الاموال . لكن من لي بتلك الكتاتب

الثمينة التي ضمت أثمن المخطوطات وأنفسها ؟ بل من لي بتلك العلوم التي اعتنى العرب بتدوينها لتتناقلها الاجيال المتوالية فتستمد منها الانسانية نفعا دائما ؟ لقد نقل لنا المؤرخ الفرنساوي فياردو أن عدد المجلدات المحررة بلغات شتى وظفر بها جنود الملك فردناند وطاوعتهم نفوسهم المفعمة تعصبا على إحراقها يفوق المليون . هذا في مدينة قرطبة دون غيرها . وقال المؤرخ الفرنساوي كند « أمور يمجها العقل ويستهجنها في عصرنا هذا حتى يكاد المرء ان لا يصدق بها لو لم تثبت لنا كتابات المعاصرين صحتها . صورتها أن الملوك الكاثوليكيين بعد أن استولوا على غرناطة جمعوا فيها كتب العرب من سائر أنحاء إسبانيا واقاموا إحتفالا عظيما يوم إحراقها وعدوه يوم عيدهم . فإن المؤرخين المعاصرين لهذا الحادث الاسيف حصروا فوق المليون عدد الكتب التي جعلت طعمة للنار والناس تهتز نفوسهم طربا وسرورا »

يوجد اليوم بعض كتاب لا زالوا يتكلمون بلسان ملؤه الحنق ــ وإن كانوا مخطئين ــ على إحراق مكتبة الاسكندرية بإذن ــ على زعمهم ــ من سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . لكنهم يتغافلون عن ذكر ذلك الكنز الجزيل الذي أبادته المسيحية بإسبانيا . فبان في غرناطة وحدها أحرق رئيس الاساقفة « كسمنيس » ثمانين ألف مجلد من المخطوطات العربية

على أن الفيلسوف والمؤرخ الفرنساوي رينان قد فندها تفنيدا لا يحتمل الرد التهمة التي ألصقت بسيدنا عمر وأقام الدليل على أن إحراق مكتبة الاسكندرية سبق قدوم العرب لمصر حينما كانت البلاد في قبضة اليونان المسيحيين . فلما صار الدين المسيحي هو الدين الرسمي لليونان توعد الامبراطور « تيودوز » بالقتل كل من بقي على عبادة الاوثان وأمر بهدم معابد الاديان الوثنية وبتكسير الاصنام في كامل بلاد الشرق . لقد قال هذا الامبراطور المسيحي مشيرا لكتب العلوم الدنياوية

« إنما هي مظهر أثيم من مظاهر العجب البشري » . فبما أكره هذا الملك الناس على الدين الجديد بطريقة جافية قد أحلته من النفس محل المسيح والابالة حتى تفجرت عنها حرب داخلية بالاسكندرية كانت مصحوبة بسائر أنواع الاضطهاد وضروب الاعتساف ففي أثنائها أضرم المسيحيون النار في المكتبة فتلف كل ما احتوت عليه من النفائس . وإذ طفح الكيل على المصريين من جراء اعتداآت المطارنة بالاسكندرية وفصيلة الرهبان بها التجأوا للعرب واستنصروا بهم على مضطهديهم . . . .

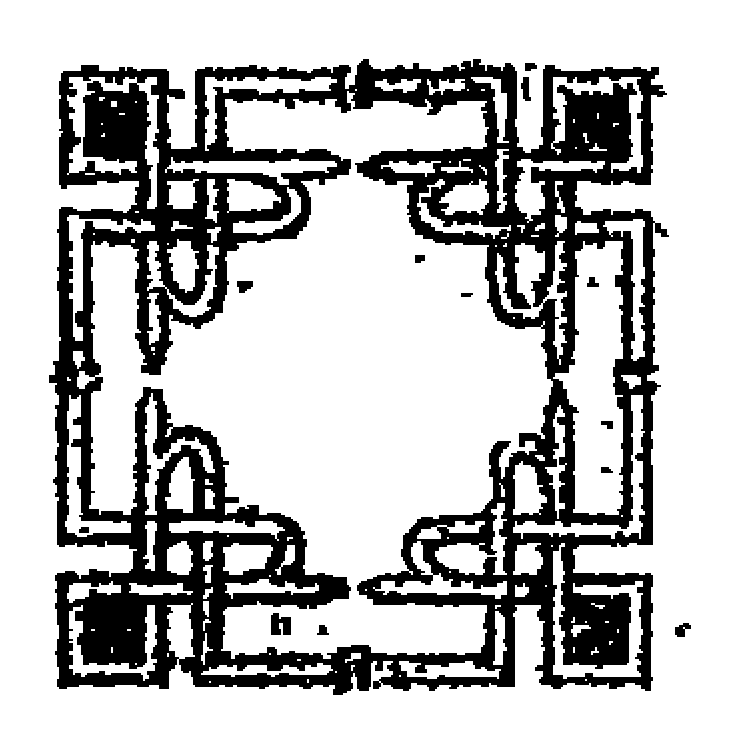
فالحقيقة التي تمحضت مما تقدم أن العلوم التي كانت زاهرة بالاسكندرية وطمس على نورها المسيحيون قد ازدهرت من جديد على عهد العرب . . .

قال قوسطاف لوبون إنه لجدير بالتأسف والتحسر ما نقله الينا التاريخ من أن باكورة أعمال الناشرين للدين الجديد الذي حل محل عبادة الالهة اليونانية والرومانية كان هدم الابنية العظيمة التي كانت منظورا اليها بالاحترام من جل الفاتحين مدى خمسة آلاف عام . إنه لعمل « فندالي » أفضى إلى اجتياح المدنية المصرية . فما تدينت بلاد مصر بالدين المسيحي حتى سقطت في هوة الانحطاط سقوطا لا زال يتفاقم أمره حتى أقبل العرب فأنقذوهم منه . أما دعوى إحراق مكتبة الاسكندرية فإنه مجرد اختلاق. ضرورة أن المسيحيين أتلفوا جميع كتب الوثنيين بالاسكندرية قبل قدوم العرب بزمن طويل . وأظهروا في إتلافها إعتناء لا يقل عن الاعتناء الذي أظهروه في تكسير الاصنام ، بحيث لم يتركوا للعرب شيئا يمكن إحراقه » . (وكفى الله المؤمنين القتال)

بيد أن معاصرينا من الاوروبيين لا زالت لهم أقوال في اتلاف مكتبة الاسكندرية ولا زالوا يلازمون الصمت في شأن مكاتب إسبانيا لان في هذا الصمت خدمة لسياستهم الجافية نحو المسلمين ، يقولون إن مكتبة الاسكندرية جديرة

بالاعتبار إذ كانت تحفظ كتب علماء اليونان . أما مكاتب إسبانيا لم تحتو إلا على كتب العلماء المسلمين وهي بالطبع لا قيمة لها .

ليت شعري ! فهي كتب لا تعلم قيمتها إلا في نظر من أعشى التعصب على بصيرته فإن الحكم على الأشياء بهذه الطريقة الحائدة عن سبيل الصواب ترتبت عليه غلطات يؤسف لها . فإن أردت أن تبحث عن مأتى هذه الأخلاق المنافية للعدل والانسانية تجدها في سياسة ذات وجهين طالما سلكتها أوربا وجه بشوش تواجه به الغرب ووجه عبوس تحدق به إلى الشرق .



عاقبــة التعـــريض

لقد تعطل تدرج المدنية الاسلامية في مدارج الرقي بسبب عدة عوامل أهمها الحروب الصليبية . فقضت أوربا المسيحية على هذه المدنية كما قضت قبلها على المدنية اليونانية الرومانية من قبل . فما هي الفائدة الدينية التي جنتها أوربا من تقويضها هذه المدنية ؟ ولا واحدة !

نعم قد بسطت الحروب الصليبية في ثروة البابوية ورجال الكنيسة ومدت في أجل دين مسيحي مزور . ودعمت لمدة محدودة أركان الممالك البابوية التي دأبها الجور والاضطهاد . هذه هي المنافع التي كانت تنشدها أوربا وتنتظر حصولها بيد أن الحروب الصليبية أسفرت عن نتائج أخرى لم تكن في الحسبان وهي تنبيه العقول عند نخبة الشعوب وانتشار منازع الردة حتى بين رجال الدين

لقد رأينا كيف أبادت الكنيسة الاعتقادات الجديدة بجنوب فرنسا . وسنرى فيما بعد ما هي الوسائل التي دبرتها الكنيسة لكي تخضع لسلطانها « هــذا الشعب الجسور الذي أصبح مثالا غريبا يؤتسى به في تبديل دينه » . فمن ذلك العهد ابتدأت المصارعة بين العلم الصحيح والكاثوليكية تلك المصارعة التي كان لها أعظم تأثير على مستقبل أوربا حتى قال الكاتب الفرنساوي الشهير شاطوبريان « إن الحروب الصليبية كانت فاتحة تاريخ سقوط الدين المسيحي »

لقد كنت أغض الطرف عن هذه الحروب لو أن في مهاجمة أوربــا العالم الاسلامي مقصدا شريفا كالسعي في صيانة دين صحيح من التلاشي وبقاء آدابه خالصة من كل شائبة مثلا أو حفظ مشاريع فيها وقاية للنفوس من الاعتداء عليها أو صون مدنية عالية من أن يدوسها ويفتك بها قوم متوحشون جائرون

أو استدامة الرخاء على الشعب ورد جحافل المسغبة والبؤس إلى غير ذلك من المقاصد القابلة للغفران والتي خلت منها الحروب الصليبية . فإن حالة أوروبا في القرن العاشر كما رأينا لم يدخل عليها أدنى تحسين مدة الحروب الصليبية . بل أن الكنيسة لم تقم بأي عمل من شأنه أن ينشر في الامة لواء الرخاء والسعادة .

لم يكن الشعب ليعرف من دينه شيئاً سوى تمجيد التمائم وتراث الاولياءحتى ظل لا يميز بين عبادة الله وتمجيد تراث الاولياء والاشياء التي كانت لسيدنا عيسى أو للسيدة مريم . أما رجال الدين الذين يقضي عليهم واجبهم بإنارة عقول الناس بالتعاليم الصحيحة لم يكن لهم أدنى اعتناء بتفهيم غيرهم شيئاً من القواعد الاصولية للدين

كتب المؤرخ الفرنساوي لافيس « لما استولى القداودون الفرنساويون وأهل البندقية في عام ١٢٠٤ على القسطنطينية دخل سرور على فرنسا بأجمعها . وسببه أن الناس كانوا يؤملون رجوع اشراف الفرسان والقادسة بحصصهم من الاسلاب المقدسة المتكونة من نهب الكنائس البيزنطية نهبا منتظما ، فإن أول امبراطور لاتيني اقتصب بالقسطنطينية وكذلك المطارنة الذين شاركوا في الغزوة أرسلوا إلى رومة وملوك الغرب تمائم قد جرب مفعولها وشهد الجميع بحسن تأثيرها . ومن ذلك العهد صار القياصرة اللتينيون يتجرون في التمائم .

فيقطع النظر عن توجيه التمائم بالصورة الرسمية التي أشرنا اليها كان يوجه كثير منها خفية بطريقة التهريب . ودام ذلك بلا انقطاع كامل مدة الملك فيليب أوقست . وعما وردت من الشرق تمائم ذات أهمية اقتبلوها بأعظم أبهة وأقاموا الافراح يوم اقتبالها . فيأتي المتدينون من أقصى البقاع إذ بقدومهم يحرزون على غفران ذنوبهم أو التخفيف منها بحسب أهمية ما يبذلون من النقود . ولا عجب في ذلك إذ في ذلك اليوم تظهر معجزات وخوارق بفضل وصول التمائم !!

وكان الشعب منغمسا في أباطيل الاعتقادات واكتسب بذلك أخلاقا تضارع أخلاق أسلافه الوثنيين . فنقلا عن المؤرخ لافيس كان « الكونت دوتولوز » عقد معاهدة من المعاهدات أثناء الحرب الصليبية ضد الالبيين ، لكن عندما هم بتقبيلها رأى غرابا يطير على شأمه الامر الذي يتطير منه الناس في ذلك التاريخ . فأبى تقبيل تلك المعاهدة إذ أنبأه ذلك النبأ أنها معاهدة لا يعقبها إلا الشؤم والوبال . هذه هي الدرجة التي كان عليها الشعب من سذاجة الاخلاق . فلا غرابة إذن في أن تكون أسواق السحر والرقية في نفاق والسحرة والرقاة قد تكاثر عددهم حتى ضاقت بهم الارض بما رحبت .

أما الكنيسة وقادتها فقد كان أعظم شغلهم إقامة صلوات يتقدون منها . تعويذة وافرة لدرء حيل الشيطان وإغراءاته ومصادرة الكوارث التي تنذر بها النجوم في السماء والتأثيرات المضرة التي لبعض الكواكب المذنبة ولكسوف الشمس الخ فأول ما يشتغلون به كان نشر الاعتقادات الباطلة وإفشاء سموم التحاقد في النفوس وبيع أكثر ما يمكن من أدعية الغفران للمذنبين . فبحكم الضرورة كانت مصلحة الكنيسة في تكثير عدد المذنبين وبالتبعية في تعميم البلايا والشرور

والامر الذي كان يوجب السخرية — لو لم يكن فيه ما يوجب الحزن — هو أن تربية الشعب كانت منوطة بمهمة رجال الكنيسة . ضرورة أنه لا يوجد مؤدبون سواهم . رجال الكنيسة هم الذين كانوا يغرسون في العقول ملكة التفكير ويعطلونها . قلبا لا يسمحون بغيره . وإذا أردت أن تعرف قيمة . هذا التعليم ونتيجته الادبية فما عليك إلا أن تتذكر ما أظهره الصليبيون من التوحش .. فهو دليل ساطع على أن المسيحيين في ذلك التاريخ وقد أخذوا مبادىء آدابهم على الكنيسة كانوا عارين عن الاخلاق المهذبة . كما أن الدين المسيحي لم يستطع رغم استيلائه على سلطة التعليم ورغم ما له من العزم تهذيب الآداب العامة وترقيتها .

من بداية القرن الرابع إلى أواخر القرن العاشر كان الغرب خلوا من كل فن و فقيرا من كل علم وايضا من كل دين بأتم معنى هذه الكلمة . فلا سبيل لايجاد أي رقي عقلي لفقد الظروف المساعدة على . بل هناك من العوائق العضال التي تصير هذا الرقي أمرا مستحيلا . أهمها استغناء المذهب الكاثوليكي عن كانوا قائمين بثه من اليونان والرومان ووقوف هذا المذهب موقف العدو في وجه المدنية الاسلامية واستبداد البابوية على الضمائر وتغاليها الديني والسياسي . هذه العوائق هي التي رجعت بالرومان القهقرى حينما اعتنقوا الدين المسيحي لا هجومات الاقوام الاجنبية عليهم كالجرمانيين وغيرهم . فهي هي التي عاقت أيضا يونان البيزنطينية أو تصرهم عن المحافظة على المدنية التي كونها اجدادهم . فهي هي التي حالت دون استمرار ارتقائهم في سلم التمدن

هذه حقائق تاريخية أشار اليها الفيلسوف الفرنساوي كندرسي بقوله « قرون المسيحية كان سببا لما اعترى العلوم والفلسفة من الانحطاط المبرم » . ولنذكر هنا ما سطره الراهب دي بروي الذي درس من وجهة أخرى تدرج العالم الروماني في الهبوط الذي قابله تدرج الدين المسيحي في الطلوع . فأبان بهذا التنظير « ان الامبراطورية الرومانية كانت تنحل بقدر ما تنمو قوة الكنيسة . وان الوحدة المادية التي بلغ إليها العالم كانت تتمزق أطرافها بقدر ما تتقوى وحدته الادبية » .

إني لا أرى حاجة لمناقشة هذا الراهب الحساب الا اني اقول له إني نشدت بدون طائل عما عسى ان ينجم عن هذه الوحدة الادبية من انتشار اسباب العدل والانصاف بين طبقات الناس او منازع العطف على الانسانية

قال العالم الفرنساوي ليتري « كل من اشتغل بتاريخ العلوم لاحظ من غير بد ان علم الطب كان في زوايا الاهمال من عهد سقوط المدنية الرومانية إلى حد القرن الحادي عشر . بحيث لم يعتن احد بدراسته . فإن الامبراطور شارلمان

كان لا يحب الاطباء ولا يقدرهم حق قدرهم بعد ان كانوا على عهد القياصرة الرمانيين محفوفين بكامل الاعتبار . وكان الغرب المسيحي في حالة هجوع وإن شئت قلت في حالة فترة فصلت بين المدنيات الغابرة والمدنيات التالية حتى فاجـأ الغرب حادث أتاه من الخارج . الا وهو الطب العربي . واذ ظهر هذا العلم الجليل بين اللتينيين أعقبه انقلاب عظيم من حيث الاجتماع والادب » .

بينما كانت المواهب والقرائح آخذة في التيقظ بالشرق بينما كانت مدارك البشر هناك باذلة مجهودها في اختبار الحقائق الفلسفية . بل بينما تمكنت العقـول من تبديد ما تلبد حولها من غيوم الاعتقادات الواهية حتى تجرأت على الاصداع بالريب في صحتها وتفرغت للمبـاحث العلمية الموصلة للحقيقـة المجردة . وذلك كله بفضل ما يبدو على حكومات الشرق وشرائع الشرقيين من التسامح وسعة الصدر . كان الغرب يسبح في بحور الاوهام الدينية وما يترتب عليها من مناواة كل علم وضعي وكل منزع فلسفي . هذه العلوم كانت محل ارتياب في نظر المذاهب المنزلة ومخطرة على شوكة الملوك . وإن شئت قلت إن البابا والملوك يتـبرمون من هذه العلوم الصحيحة إذ في انتشارها الضربة القاسية على تيجـانهم . فالبابـا كان صارفا همته إلى تنشيط الغباوة الدينية وبثها في العقول وتحريض الناس على الانقياد لاوامر الملوك انقيادا اعمى . فإذا احتاج البابا إلى مسـاعد على ردع منزع حر ظهر في نفوس الشعب او على إكراه قوم على عقيدة يأبونهـا فالملوك يمدونه بما لديهم من القوة المادية .

أما الحالة الاجتماعية والسياسية فمن أهم خاصياتها استفحال التغالي في الدين واستحكام العسف الفادح في النفوس . كل ذلك نتج عن ضيق نطاق الشرائـع الدينية التي أصبحت شادة أزر هذه النقائص الادبية .

فالمدن كبيرة كانت أو صغيرة كانت تئن تحت نير الفداديـن المستبدين بكل

توحش لافراد الشعب . قال المؤرخ الفرنساوي لافيس «العبد الفدادي كان في ربقة عبودية لا أشد منها وطأة بل لا تتحملها النفوس الابية . فلا حق له في التنقل من مكان إلى مكان ولا في التزوج خارج تراب مالكه . وهذا الاخير له أن يبيعه أو يجعله توثقة لدين أو يعطيه لمالك غيره على معنى الهبة . العبد في نظر القانون سفيه لا يستحضر لدى حاكم ولا تقبل شهادته . فلا قانون يحميه ولا شريعة تمكنه من رفع أية قضية كانت . أولاده يعتبرون كالانعام ويجوز في حقهم ما يجوز في الانعام من قسمة وتوزيع على أرباب متعددين . فلنضع تحت أعين القاري نص اتفاقية مزعجة وقعت بين جماعة من الرهبان وهي واحدة من مآت مثلها : « نحن رهبان بلدة سرمنتي بعد أن استقر على ملكنا عبيد من ذكور واناث على الشياع وحيث حان وقت قسمتهم الخ ... » إلى أن قال «وقد كنا اقتسمنا في خلال عام ١٠٨٧ الاولاد ذكورا واناثا المولودين عن آباء مختلفين الخ » .

إن هذا الكتب المريع يبين تعاسة الحالة التي كان عليها الشعب . أيمكن بعد هذه المعاينة أن نغتر ونتخدع لمن يقول إن النصوص الكنيسية قاضية بأن الناس سواء وأن الله كرم بني ءادم ؟ »

لنضرب صفحا عن هؤلاء العبيد الفدادين المحرومين من جميع الحقوق حتى من حق الاقتران خارج تراب اسيادهم والذين هم لا فرق بينهم وبن الارقاء ، ضرورة أن مواليهم لهم عليهم حق المعاوضة ، فإننا نجد من دونهم نفرا ءاخرين تتوفر فيهم صفات الرق تماما . فقد كنا ذكرنا أن ولدانا وقع بيعهم في خلال الحروب الصليبية . ولننقل هنا ما كتبه المؤرخ الانكليزي هيد في كتابه تاريخ التجارة بالشرق « إن الاتجار في الارقاء في القرن الثاني عشر بلغت أرباحه حدا صيرته مباحا حتى بشوارع رومة نفسها . ففي كل عام يعرض على البيع بمدينتي دمياط والاسكندرية الفان من الاوربيين . ومن هؤلاء يؤخذ المماليك الذين كانوا من اشد الجنود بأسا بالشرق » .

لم يستفد العبيد الفدادون من الحروب الصليبية إلا بتحرير وقتي . ضرورة ان من رجع منهم إلى مسقط رأسه بعد ان شارك في الحرب وضع من جديد تحت نير الاستعباد . بحيث مضى زمن طويل بعد الحروب الصليبية ولم تزل اوربا الوسطى تقاسي مضاضة العبودية والفاقة ، كتب البارون دلباش في كتابه «الهيكل الاجتماعي» ما نصه «في خلال السنين الاخيرة من عهد الملك الفرنساوي لويز الرابع عشر كان سكان مقاطعة شمبانيا وقد أثقلت الضرائب كاهلهم يعلمون أبناءهم صورة دعاء يلتمسون فيه من الله ان يمن عليهم بقبض أرواحهم في ذلك العام . ويقرؤنها هم وابناؤهم في كل يوم»

عثرت على تقرير لاحد وزراء الملك الفرنساوي لويز الثالث عشر مخاطبا به مليكه تضمن ما نصه

«إن رعايا مولانا في غبطة لا مزيد عليها . فإنهم لا يزالون لحد الآن في غنى عن ارتعام الاعشاب» .

فلئن رأينا اليوم الشعوب قد تخلصت من وطأة الفاقة وخلعت ربقة العبودية فلا فضل في ذلك للكنيسة ولا للملوك . بل الفضل فيه لشقهم لعصا الطاعة في وجهها ووجوههم . على أن هؤلاء الشعوب لم يستشقوا لحد الآن نصابهم من التحرير بكل معانيه

إننا لعلى بينة من الحالة المشينة التي كانت عليها المرأة في اوربا قبل القرن الثاني عشر . ونعلم بما كان يصفها رجال الكنيسة . لقد سبق أن بسطت القول في هذا الموضوع في كتابي «إزمة الشرق» . فالذي أعطى للمرأة الغربية رفعة وحسن حالتها الاجتماعية إنما هو التأثير الذي حصل في نفوس الصليبيين من مخالطتهم للشرقيين ومشاهدتهم لحسن معاملتهم للجنس الضعيف لا الدين المسيحي

فلا الملوك المتصرفون التصرف المطلق في ممالكهم والذين يلقبون انفسهم

«بالملوك الكساليٰ» لاعتقادهم أن العمل مشين لأعراضهم . ولا القدادون الذين كانوا يضارعون الوحوش من حيث الجهالة والغطرسة حتى أن الكثيرين منهم كانوا يتبجحون بجهلهم القراءة ولا أي فرد من حماة الدين المسيحي ممن يفقه شيئا من دينه او يقصرون قليلا عن الالوهية خصوصاً وان المبدأ القائم عليه الدين المسيحي مبدأ توحيد الاله في تثليثه او تثليث الاله في وحدانيته كيفما يشاء النصارى مما حارت الالباب في ادراك كنهه . قال الفيلسوف الانكليزي باكون «افضل أن لا يكون لي أدنى المام بمعنى الاله من ان اتصوره بصفات لا تلائم عظمته» .

فرغم جهالتهم المطبقة كان الملوك يتغالون في دينهم لحد ان قال الملك الانكليزي جاك الاول في بلاغ بعث به إلى امته عام ١٦٠٣ «الله هو الذي شرع الملوكية الوراثية وهو الذي أناط بعهدة الملوك بالنيابة عنه ادارة شؤون البشر وأمرهم ان يتصرفوا فيهم تصرفا مطلقا بحيث يمكن للملك ان يأمر بكل ما يراه صالحا . بل حتى اذا صدرت منه وعود لرعاياه له الحق في نقضها» فما هذا إلا نسج سداه المبدأ الكنيسي القائل «أطيعوا القوة كيفما كانت لان كل قوة وكل سلطة مستمدتان من الله» .

نقل المؤرخ الفرنساوي لافيس ما كتبه راهب من رهبان مدينة الجي بفرنسا وإليك نصه «سبقت مشيئة الله ان يكون الناس بعضهم أسيادا والباقون عبيدا» . فلنعد على مسامعكم كلمة احد الحواريين حيث قال «أيها العبيد أطيعوا سادتكم في الحياة الدنيا بخوف وارتجاف» . فكثير من اعيان الكتاب النصرانيين كالخطيب الفرنساوي بوصوي وجول دميستر وهيجل وحتى الفقيه الالماني ستول أيدوا في كتاباتهم ان الملوكية حق مستمد من الله . او كما يقولون إن الملك خليفة الله في الارض . لا انكر انه جرت عادة بين الشرقيين بتلقيب خليفة المؤمنين «بظل الله في الارض» هذا الوصف زيادة عن خلوه من كل معنى فهو مناف لما جاءت به الشريعة الاسلامية المطهرة فإنها تتبرأ منه .

على ان اتحاد الكنيسة مع الملوك كان ظاهريا اكثر منه حقيقيا . ولا يلتجئون إليه إلا إذا تهددهم خطر او راموا اغتنام غنيمة . اما في غير هذين الصورتين فكثيرا ما يفضي بهم طمعهم في السيادة إلى إشهار حرب ليست معها رحمة ولا شفقة فالكنيسة قد تزلزلت قوتها وضعفت سلطتها بقدر ما أخذت مبادىء الردة في الانتشار وبقدر ما تطوح البابوات في العبث بحقوق الغير ومصادرة كل منزع راق . فحلت الجامعة الكنيسية محل الازدراء والبغض من نفوس الشعب الذي قد يدفعه تجاوزه هذا إلى ارتكاب القساوة ومناوأة العداء لرجال الدين . ففي عام ١٣٠٣ ذهب أحد وزراء الملك فيليب ويدعى نوقاري إلى قصر «أناني» حيث مقر البابا ومعه رجل يدعى كولونا ولطم الحبر الاعظم على وجهه . فما وسعه وقد لحقته هذه الاهانة إلا ان فر مسرعا إلى رومة . ومن غرائب الصدف ان كان هذا الوزير نوقاري المعتدي على الممثل الأكبر للدين المسيحي إبنا لاحد الالبيين وقد مات ابوه حرقا بالنار بحكم الاساقفة اعضاء ديوان التفتيش !

هذه المعاملة الجافية كان يلاقيها رجال الدين ليس من الملوك وأشباههم فقط بل وحتى من الاشراف حتى أصبح الرهبان والقسيسون في موقف حرج . ولكي يتخلصوا من الامتهان والاعتداء صاروا يختلقون امورا من شأنها ان تجعلهم في مأمن من كل خطر باستمالة الافكار الساذجة . منها أنهم إذا توقعوا خطرا يبادرون باشاعة ظهور معجزات غريبة بالاديرة التي يسكنونها . فكيف بعد هذا لا ترمق تلك المنازل ومن يشغلها بعين ملؤها الاحترام والاعتبار لا سيما من القرويين الذين تروج على عقولهم البسيطة أمثال هذه الخرافات ؟ فيغدون من أشد أنصار أولائك الرهبان والقسيسين ومن أتبعهم قديما .

كتب المؤرخ الفرنساوي لافيس « ما من ناحية سكان فيها صرح أحد

الشرفاء إلا وكان خطرا محدقا بالدير القائم هناك . وما من بلدة أقسلم بها راهب وشريف الا وكان الشقاق ضاربا أطنابه بينهما . ولقد بلغ ما يقوم به الاشراف بتراب البابوية من السلب والنهب الغاية القصوى . ورغم ذلك فان الاشراف طالما تشكوا من أن المحاكم الكنيسية والسلطة الزمنية المطاة لرجال الدين تحول دون تنفيذ أحكامهم وظهور سلطانهم . أما الاساقفة وقد كان لهم من الحقوق ما جعلهم في صف الملوك من حيث الاطلاق في التصرف فإنهم ما كانوا ليقبلوا بأن يكون للاشراف أدنى سلطان عليهم . . . . . إلى أن قال اشتد الشقاق بين رجال الكنيسة والأشراف وتكافحوا حتى صار هؤلاء يعتدون بالقتل على أصحاب الاديرة والاساقفة »

وزبدة القول إن رجال الكنيسة تخلقوا بأخلاق كان لفظاعتها الوقع السيء عند العموم . ولما أفرطوا في تعاطي بيع التمائم ومخالفات الحواريين وفي الاقتران بالنسوة السراري شعرت الكنيسة بأن ما لها من السلطة حتى على العقول الخشنة صار معرضا للتلف . ذلك أن زمرة من الاساقفة العارين عن كل عاطفة دينية وعددا لا يستهان به من البابوات الذين استبدلوا الحياء بقساوة فاقت كل وصف ألحقوا بالدين المسيحي أشد العار وألبسوه حلة الشنار . لقد قضت الجامعة المسيحية ثلاثة أرباع قرن أي من عام ١٣٧٨ إلى ١٤٤٩ وهي تشاهد منظراً لا أبشع منه. وهو أن بابوين أو ثلاثة يتجاذبون العرش البابوي وقد رمى بعضهم بعضا بتهمة الاختلاس وبارتكاب موبقات وجرائم مختلفة الانواع والاصناف وقد تقاذفوا اللعنة الكنيسية المريعة . قال الاديب الفرنساوي جبهار في هذا الموضوع « إن ما افتقده العالم المسيحي من الانعطاف للدين افتقد الحبر الاعظم مثله من الحرمة والاعتبار . فكل نداء وجهه البابا إلى الشعوب والملوك في سبيل حرب صليبية كان برهانا ساطعا عن قصر باعه وضعف تاثير كلمته . دامت هذه الحالة إلى القرن السادس عشر »

وفعلا قد دعا البابا بيوس الثاني ثم البابا بولس الثاني الامم الغربية إلى حرب صليبية جديدة ضد الاتراك . لكن من حسن الحظ أن نداءهما كانت كصرخة في وادي لم يرجع لهما صداه .

على أن الفوائد السياسية والمالية التي انجرت للبابوات من الحروب الصليبية لا تنكر . فقد مر عليهم اكثر من قرنين وهم يتصرفون التصرف المطلق . وخضعت لاوامرهم أوربا بأسرها . عند صعود البابا بونيفاس على العرش الحبري كانت الكنيسة تملك ما يقرب من ثلث تراب أوربا . وفي هذه الممالك كانها لم يكن للحكومات المدنية أدنى حق بخولهم من الضرائب .

ما ذا فعلوا يا ترى بهذه القوة التي كلفت الشعوب نزف دمائهم وإتلاف أموالهم ؟ هل استخدموها لفائدة استتباب السلم وربط العلائق الودية بين الشعوب ؟ هل استعملوها لتدعيم مصالح الجامعة الغربية ؟ أين هي الاوامر والتراتيب التي سنوها لفائدة المبادىء الادبية العالية أو لتحقيق حقوق الشعوب ؟ لقد وعد البابوات من يتطوع لقتال الاتراك بمواعيد علنية رنانة : هل أنجزوها ولو في البعض ؟

الحقيقة إن البابوات كجل ملوك الغرب ـ وكذلك بعض ملوك الشرق ـ لم يفكروا إلا في مصالحهم الخصوصية . فإن تكالبهم على جمع المال وتهافتهم على التسيطر هما المحركان لاعمالهم . أما دس الدسائس وتدبير المشاحنات وإضرام نار الحروب إنما هي لديهم وسائل للظفر ببغيتهم . فما ضيقوا على منافس العلوم الحرة وحرية البحث والنقد وما قضوا على ترقي العلوم الوضعية إلا ليبقوا الشعوب في ربقة العبودية مطأطئين رؤوسهم أمام استبدادهم

هذه كانت عاقبة تقويض المدنية الاسلامية وتلك كانت حالة أوربا من بعد . نعم لكل شعب ولو كان في حالة التوحش نظامات اجتماعية وسياسية . ولكن

أية مدنية تلائم أخلاقها وعوائدها وتقاليدها مستوفاة الاركان كانت تلك المدنية أم لا . وعليه فإن وصف التوحش الذي أصف به مجموع العالم الغربي في القرن الثاني عشر يجب أن يؤخذ على معناه النسبي لئلا يفهم منه فقدان كل مدنية وكل نظام . فلا أنكر أن مدينة طولوزة بجنوب فرنسا كانت في ذلك التاريخ أرقى درجة مما هي عليه الآن مدينة بروسه بتركيا . وهناك مدن أخرى بجنوب فرنسا وبايطاليا قد حافظت على البقية الباقية من المدنية الرومانية . فظهر فيها نوع حركة أدبية وبعض رقي في فني البناء والهندسة وسارت الخطوة الاولى في سن النظامات البلدية . لكن بقية أوربا لا سيما ممالك الوسط والشمال كممالك المانيا وشبه جزيرة سكندينافيا إذا قايسناها بممالك قرطبة ودمشق وبغداد نجدها متوحشة بكل معنى الكلمة مثلما كان قوم ياجوج وماجوج بالنسبة لبلاد اليونان في القرون الغابرة .

وقبل الختام نضرب مثالا فيه عبرة لذوي الالباب . وهو أن اسبانيا التي بلغت على عهد العرب من التهذيب والحرية والنضارة ما لم تبلغه دولة من دول اوربا سقطت في هوة التقهقر بعد أن مضى نصف قرن على إجلاء العرب عنها أو إبادتهم . فصارت تعتبر دولة من الدرجة الثانية في السلم العالمي . فأقفرت المدن واندثرت الصنائع والفلاحة وتولى الفشل كل حركة أدبية . فلم يبق من الكتب في إسبانيا بأسرها إلا ذات المرامي التعبدية . بل لم يبق شغل شاغل الناس إلا المباحث الدينية . فقد قرر المؤرخان الفرنسيان دوروي وسيديو أن من منذ غزوة الملك فرديناند إلى سقوط غرناطة انحط ثلاثة ملايين من عدد سكان إسبانيا . فيحق لنا أن نقول إن في صيرورة هذه البلاد دولة كاثوليكية مثالا لما يكون من أمر شعب شجاع شريف إذا استولت عليه الكنيسة .

نعم قد ظهر بإسبانيا الكاثوليكية بعض ملوك تدعم طوايا حسنة . فحاولوا

إدخال نظامات على البلاد وانتشال الشعب من هوة السقوط المفرط . فجلبوا من الخارج العلماء وأرباب الحرف . غير أن هؤلاء العلماء والفنيين لم يستطيعوا الاقامة ببلاد استوبأوا الهواء المحيط بها لحد أن تعسرت على نفوسهم الأبية استنشاقه . ضرورة أن العقل وديوان التفتيش لا يتجاوران أبدا . وهناك من الملاحين من نجوا من المذابح التي أقيمت بالبلاد لابادة كل ذي علم . فساعدتهم المقادير حتى أصبحوا أساتذة ومعلمين لغيرهم . فكان النوتي الشهير « كرستوف كولمب » من استفاد من علومهم . ولكن قد نقل لنا التاريخ كيف اقتبله الملك وكيف جزاه عند عودته من أسفاره الخالدة . الخلاصة أنه مات على حالة إملاق مغمورا بالاحزان

إن الاقطار التي اكتشفها كرستوف كولمب والبلدان التي فتحها « فاسكو دوقما » لم تعد بأدنى نفع على إسبانيا المسيحية سوى تمكنها من إطلاق العنان للمبشرين بالدين المسيحي في القارة الجديدة وتنصير الناس قهرا الامر الذي كلف هنود أميركا إتلاف مآت الالاف من أرواح بنيهم . حقا إن هؤلاء التعساء كانوا في جنة النعيم قبل قدوم المبشرين . فما كانوا ليعرفوا معنى الاضطهاد ومرمى الحروب الدينية التي أعلنتها عليهم إسبانيا الكاثوليكية « لنشر فخر الكنيسة » فقتلهم الاسبان والبرتغاليون تقتيلا مريعا ليذيقوهم حلاوة طعم الدين المسيحي ولم يصدهم عن ذلك ماشاهدوه من هؤلاء الاقوام من بساطة العقل والاستسلام والاستكانة . أما من أشفقوا عليهم وأبقوهم بقيد الحياة فقد ألزموهم بأشغال شاقة لخدمة الاراضي المناجم . وأظهروا في بعض الجهات من القساوة والجبروت ما أفضى بهم إلى استئصال العنصر الاهلي بالقارة الجديدة . لقد اطلعت على تقرير بعث به المسمى لاس كازاس أسقف مدينة شيابا إلى الملك شارل الخامس . فالثبت فيه أن هذا القسيس قدر بخمسة عشر مليونا عدد الضحايا الذين لم يرتكبوا جريمة سوى أنهم لم يكونوا مسيحيين . وذلك باعتراف قاتليهم . وفي هذا التقرير بسطة في القول

عن بعض هايتي وجامايكا وكوبا وعن بلاد المكسيك وما كانت عليه هذه الاصقاع من الثروة والعمران عند اكتشافها . وما كانت عليه سكانها من نعومة الاخلاق وحسن الطوايا . فأتاهم الاسبان وما لبثوا إلا أن انهالوا في اغتصاب خيراتهم وافتضاض بناتهم بصورة متناهية في التوحش . أما الاولاد فإن الاسبان كانوا يدفنونهم على الارض أو يسحقونهم بالصخور . وكان هذا الاسقف وراهب آخر يدعى ماورك دونيس من شهود العيان لهذه الفظائع المرعبة

هذه هي الآثار - ويا لها من آثار ! - التي اجتناها أهالي القارة الجديدة - المسماة اليوم بأميركا - من حرص الاسبان على ابتزاز الخيرات ومن قساوة تعصب رهبانهم . كان الاسبان هم السابقون في انتهاج هذا المنهج الفظيع . فالتحق بهم الانكليز والالمان فكانوا بسابقيهم من المقتدين . فدامت مطاردة الجنس البشري قرونا

لقد كانت أشار الفيلسوف الفرنساوي ديدرو لهذه الفظائع الجافية بقوله « حادث غريب في بابه قد حارت العقول في اكتناهه وهو أن الحكومة الاسبانية جمعت بين الغباوة والتوحش لحد أنها باتت مؤيدة لهذه الفظائع السامجة . بل أنها لم تقف عند هذا الحد . فانها جندت جنودا من الكلاب ومرنتهم على مطاردة الجنس البشري والتغذي بلحومه . إني لا أدري هل كان الوزير الاسباني يفقه أن هؤلاء الناس يحسون ويشعرون ويمشون على قدمين كالاسبان انفسهم ام لا ! »

كثير من الكتاب المسيحيين أنكروا على المسلمين امتلاك الارقاء . لكن فاتهم ان في القارة الجديدة كان المسيحيون يملكون أرقاء مسيحيين مثلهم . فكونوا في ممالك اسبانيا - تلك الدولة التي حازت قصب السبق في التمسك بالتعاليم الكاثوليكية هيئة اجتماعية دامت إلى اواخر القرن التاسع عشر مقسامة دعامتها على امتلاك المسيحي لاخيه في المسيحية . ومما يبهر الافكار أن ممثلي الدين المسيحي لم ينكروا

على هؤلاء الطغاة معاملتهم الجافية لاخوانهم في الدين . بل لم يحركوا ساكنا لتلافي ما يتجرعه الارقاء المسيحيون من المذلة والامتهان .

هنا ينبغي أن نوقف القراء على حادث تاريخي ذي أهمية فلسفية كبرى . بعد سقوط بلنسية وقرطبة وإشبيليا لجأ المسلمون الذين أطردوا من هذه المدن وساعدتهم المقادير على التخلص من القتل إلى غرناطة يتقاطرون عليها زرافات ووحدانا . وكانت هذه المملكة تحت إمارة رجل ذي دراية فائقة ميال للسلم والعافية حاذق لبيب في اعماله وهو الامير محمود ابن الاحمر . ففكر أولا في تلافي الخطر الخارجي وانقاذ حياة مواطنيه من الهلاك وصون أموالهم من التلاشي . فعقد محالفة مع ملك قشتالة المسيحي بل قبل بأن يكون من توابعه موقتا . ثم نادى باخوانه المسلمين مستنيري الفكر ودعاهم الى ربط الصلة بمجد اسلافهم وباحياء المبادىء الادبية والسياسية التي اقيمت عليهـا عظمة العالم الاسلامي . فشرع في العمل الصالح معتمدا على مساعدتهم . فاتخذ رعاياه اجمل أسوة لاعظم الفضائل وأشرف الخلال .

فوجه كامل همته إلى ترقية الفلاحة وأجزل العطايا والمكارم لتنشيط الفلاحين وأرباب الحرف . ثم أحدث عدة معامل ومستشفيات وملاجىء للعجز والايتام وغير ذلك من المشاريع ذات المصلحة العمومية . وفتح المدارس في سائر النواحي ورسم كلية عظيمة بغرناطة . فبعمله هذا تسنى له ان يسترجع شيئا فشيئا ما أضاعه المسلمون بقرطبة ، وبفضل حسن سياسته وسياسة خلائفه الذين لم يقلوا عنه دراية أتيح لهذه المملكة الاسلامية ـ وقد رسخت اقدامهـا بكل متانة ـ أن تعلن استقلالها . فتدرجت بها هذه السياسة الحصيفة في الرقي حتى صارت ترمق بعين الاعتبار . فكونت لنفسها قوة عظيمة وأصبحت أرقى بلد أوربي من حيث المدنية وتعدد وسائل العمران . فأشرق من جديد نبراس العلوم

وأثار الحروب بإشبيلية الساطعة بعد أن أرخى الظلام سدوله على قرطبة .

وصف المؤرخ الفرنساوي سيديو حضارة هذه المملكة الاسلامية بقوله «فاق مسلمو غرناطة الفنون المستظرفة ولجوا فيها مسلك مسلمي قرطبة من قبلهم وأحرزوا فيها علم البناء على سطوة أمكنهم معها تشييد قصور ذات قبب وسوار على نمط عجيب جميل اعجز المقلدين . ويكفي بذكر الحمراء وقصر جنة العريف برهانا على ما وصل اليه البذخ وحسن الذوق بتلك البلاد . كان التعليم في غرناطة حرا وتعاطي التجارة خاليا من كل قيد . وكان يبدو على الولاة من عواطف التسامح ما يجعل أرباب سائر الاقطار كيفما كانت اديانهم ومعتقداتهم يتسابقون للاقامة بمملكة ابن الاحمر رغم ضيق مساحتها حيث يكونون في حمى أميرها امنين على نفوسهم وأعراضهم متمتعين بمشاركة سكانها في الملذات الادبية محفوفين باحترام ذي لطافة فائقة وتبجيل ذي جزالة نادرة . ولقد اشتهر الغرناطيون بكرمهم الحاتمي وذاع صيت لطافتهم في سائر الانحاء بسبب ما كانوا يبدونه من البر بضيوفهم . فما قصد قاصد غرناطة الا وكانت له مأوى امنا بل وطنا حنونا . وليس بالقليل عدد الشعراء والفلاسفة والاشراف الذين كانوا يعبرون دواما واستمرارا جبال البرينات للاقامة بها . اما شرفاء الفرسان من مملكتي قشتالة وأراغونيا اذا دار بينهم وبين ملوكهم ما يثير غضبهم أو أوجب السخط عليهم فانهم لا يلبثون أن يلجأوا الى بلاط الخليفة . كما ان من ثار بينهم نزاع يبغون حسمه يأتون اليه ليحكموه فيما شجر بينهم . فالاحكام الراجحة التي كان يتولى الفصل فيها أكسبته شهرة بعيدة من حيث الحكمة والعدالة» .

إني أكون قد نلت من الغبطة والسعادة مناي لو يشعر القمرزله بنبذ من الانعطاف الذي اهتزت له نفسي اهتزازا حينما قرأت تلك الاسطر .

وهنا يحق لنا أن نتساءل كيف أمكن حصول هذا الرقي الباهر وذلك

الانقلاب العظيم في حين أصبحت فيه أكبر مدن الاسلام - وقد سقطت تحت نير الملوك المسيحيين - آخذة في التقهقر والانحطاط بسرعة غريبة ؟ نرى فالمؤرخين في مستكشف النقاب عن هذا الامر الذي خفي اثره وسطوع الطارئ عنه لاسباب لا تظهر . وبعبارة أخرى ما هي الاسباب التي ساعدت ملكا مغلوبا بل تابعا تقريبا وليس لديه من وسائل النهوض والرقي الا اطلالا مبعثرة التقطها من سلطنة منهدمة الاركان قلت ولا زلت أقول كيف أمكن لهذا الملك الذي لا سلطان له الا على مملكة ضيقة الاطراف أن ينهض بامته هذا النهوض الباهر حتى أصبحت بلاده مقر العلوم ومنبع الحضارة ؟

ثم لنتساءل أيضا ما هي العوائق التي عاقت هؤلاء الملوك المسيحيين وأولئك الامراء الفاتحين - وهم يرفلون في ثوب النصر ومتربعون على دست الظفر بل وقد استلموا من مدينة غرناطة المواريث ووجدوا بها من دعائم العمران انفسها وأثمنها - عن استكمال السير بها في ذلك السبيل القويم ؟ أو على الاقل ما هي الاسباب التي حالت بينهم وبين الاحتفاظ بذلك الهيكل العظيم الذي آل أمره اليهم بحكم القوة القاهرة ؟

فلا شك أن أول سبب لنجاح محمود ابن الاحمر وخيبة الملوك المسيحيين بل السبب الاعظم لهذين النتيجتين المنعكستين هو أن الاول كان يسوس مملكته بما تقتضيه المبادىء الحرة المحررة للنفوس الامر الذي كان يضاد على خط مستقيم تعصب الاخرين وغلواءهم في الدين . هؤلاء الملوك وإن كانوا باسبانيا نفسها ومعاصرين ومجاورين للامير محمود ابن الاحمر إلا أنهم يخالفونه في جميع منازعه بما جعل هذا الاخير قد سابقهم بقرون من حيث الاخلاق والمشارب . فبينما كان الملك المسلم يشهر نفسه حبيبا لارباب الفنون قوادا عن أصحاب العلوم مستفرغا جهوده في البحث والتنقيب عن الكتب الدائرة معتنيا بالتقاط وجمع قطع المخطوطات المتناثرة بها مكتبة غرناطة . كانت الملوك المسيحيون وقد

اكتفوا بمبادىء الكاثوليكية الضيقة العابسة بالقسوس المرتدين في أيدي دواوين التفتيش ويودعون الكتب النار - اللهم إلا إذا كانت ذات مواضيع تعبدية - ! . حتى أن المدارس التي كانت بقرطبة حولوها ديرة للرهبان . كما أن صرح اشبيلية الشهير الذي أقامه المسلمون مرصداً لقبة الفلك صار موضع أجراس الكنيسة . بينما كانت الفلاحة والصنائع والفنون بمملكة غرناطة داخلة في الارتقاء ومناهج التجارة رائجة بين هذه المملكة وإيطاليا ومصر والشام بما صير ثغر المرية المفتوح لكل الأجانب من أشهر ثغور الغرب فإن بقية بلدان اسبانيا قد أنفقت وبذرت ما كان لديها من الكنوز والخيرات المسلوبة من أيدي المسلمين . فأصبحت في حالة ضنك لا مزيد عليه . كما أن الخيرات الجزيلة التي اغتصبت بأميركا لم يستعمل منها الكثير ولا القليل لفائدة عامة . بل أتلفت عن آخرها لتوطيد مركز ملوكية مستبدة ترمي إلى نشر استبدادها بالعالم والى استئصال شوكة الارتداد والمذهب البروتستاني - ويسمون هذا العمل مشروعاً مقدساً - ! ومما يدل على أن المبادىء الكاثوليكية هي التي ضيقت على منافس العدالة في قلوب اولائك الملوك المسيحيين إلزام الشرذمة من المسلمين الذين لم يبارحوا أوطانهم وكذلك اليهود بالاقامة بحارات مخصوصة منفصلة عن البلد وإخضاعهم لقوانين جائرة متوحشة ما انزل الله بها من سلطان . فهم محرومون من جميع الوظائف مضطهدون في عقائدهم قاصرون عن درجة الملك .

ما بلغت الحضارة بغرناطة أشدها حتى أبهرت دول الملوك المسيحيين بقشتالة وأراغونية . فاستغربوا السرعة التي قارنت نهوض المسلمين وتبرموا من عاقبتها عليهم ، فأخذوا يواصلون المجهودات في إثارة خواطر حكام مالقة وقادس لحملهم على شق عصا الطاعة في وجه أمير غرناطة . وبالاخارة حصل الوفاق بين اولائك الملوك المسيحيين لمحق آخر معقل للمدنية بأوربا ، ولقد رأينا فيما سبق بسطه

كيف أشبعوا بمظالم المشؤمة أقسى ما يرتكبه المتوحشون من الجرائم .

فلماذا عمدوا إلى هذا التقويض المخزي ولماذا اقترفوا هذه الجناية في الانسانية ؟ أي ضرر الحقت هذه المملكة الاسلامية الصغيرة بأجوارها وبالغريب ؟ قال الحباحب في المثل الى الضفدع وقد أراد هذا ان يفترسه «ماذا جنيت عليك حتى تقتلني ؟» أجابه الضفدع «أنت منير والنور يكدرني .»

فليكن في هذا الحادث التاريخي عبرة لشبيبة وطني ولتفتكر فيه طويلا تلك الشبيبة التي حلت مني ومن بقية حياتي محل الولد حلو المذاق . ولتطرح عنها اليأس والقنوط . ولتواصل العمل في التعلم والمطالعة ولتحافظ إلى الابد على منازعها العالية وعواطفها الشريفة .



مدنية المسلمين

ان رينان الذي يضمر اجلالا للعلم ومدنية العالم الاسلامي من القرن السابع الى القرن الثاني عشر يلوح عليه التكلف في الاعتراف بان هذا العمل العظيم هو ثمرة كد المسلمين حيث كتب « ما هذا العلم المسمى بالعربي من الصبغة العربية في الحقيقة ؟ اللغة - ليس الا »

نعم ان اللغة العربية كانت لسان الشرق العلمي والديني كما كانت اللاتينية للغرب ولكن الفرنسي والانجليزي والالماني الذين كانوا يستعملونها لم يكونوا متشابهين لا في الاخلاق ولا في المكتسبات العلمية فكما انه اصاب مدنيتهم في ذلك العصر للاتينية خطا فمن الخطا ايضا اطلاق لفظ مدنية عربية على العمل المشترك الذي تكون على السواء من مجهودات قرائح العرب والفرس والهنود والاتراك

من المحزن ان مفكرا كبيرا كرينان لم يفهم بسبب تاثير تربيته الاولى بمدرسة الاكليروس بلا شك ان العلم في ذاته ليس له دين ولا وطن بل هو يتعدى حدود اوطاننا الضيقة ذلك لانه نتيجة المساعي المتعاقبة وراء اكتشاف الحقيقة من اقدم العصور اذ كل امة ساعدت على رقيه بحسب مواهبها وحالتها الاجتماعية وثروتها ولذا كان للماضي نصيب وافر جدا في تكوين معلوماتنا وهناك تسلسل واتصال

فالاكتشافات الراجعة للعقل والادراك هي اذن متاع البشر قاطبة وليس ثمت فلك يوناني بحت ولا طبيعيات عربية كما ليس ثمت هيئة انجليزية او كيميا فرنسية ومن باب اولى واحرى ان لا وجود لعلم مسيحي اذ الجمع بين المسيحية والعلم وهما ضدان متعاكسان امر من الغرابة بمكان

ان سبعة من اجلاء فلكية العصور الحديثة كانوا مخالفين للاجتماع تكوينيك

كان بولونيا وكبلير المانيا وغاليلي ايطاليا ونيوتون انجلتريا ولابلاس فرنسيا والباطاني الذي يعدّه لالاند في صف العشرين فلكيا الممتازين بالشهرة العالمية كان عربيا كما كان تيكو براهي دانمركيا وكان البعض للبعض نصيرا

ولا شك ان هناك اكتشافات تخص فرعا من فروع العرفان يعود فخرهـا على صاحبها سواء كان انجلتريا او روسيا وما عدى ذلك فهو غلو وطني محض لان الاكتشافات العلمية الكبرى كما قال اولوق بك الفلكي التركي الشهير هي ثمرات عدد كبير من الاكتشافات الصغيرة المتتابعة المرتبط بعضها ببعض بنسب خصوصية والعالم عادة في معمله الفني جماعة من المعاونين الذين يبقى اكثرهم مجهولا جدوا وكدوا قبله ليمهدوا له السبيل فهو يرث في الواقع اعمال الماضي وينحصر فخره في الاستفادة منها واستكمالها او استخراج نتائجها ولم يصنع مسلمو القرون الوسطى غير ذلك فكان لهم الكنز العلمي الذي استلموه من الماضي بمثابة السلم الى الرقي وفضلهم السامي الذي لا ينكره احد في ذلك هو كونهم قدروا ذلك الكنز حق قدره واحسنوا الاستفادة منه

ان نطاق هذا الكتاب يضيق عن تعداد جميع مكتشفات وتصانيف اولئك العلماء وانما نحن نقتصر على تحريض القاري ان يتصفح في هذا الغرض مؤلفات سيديو والحكيم غوستاف لوبون ودرابير وفياردو الذين اقتبست منهم بامتنان كثيرا من المعلومات النفيسة

قال رينان ثانية وردد قوله الكثيرون ان هؤلاء العلماء الذين كانوا يكتبون بالعربية ليسوا الا يهودا ونسطوريين ويونانيين وبعض عرب مسلمين ثارت نفوسهم على دينهم ، كما ادعى آخر ان مدنية العلم الاسلامي كانت صنيع الامم المقهورة ولا ينكر احد وجود ممثلين لكافة الاجناس بين علماء وفلاسفة بغداد وقرطبة على ان هذا التنوع المنسجم يدل وحده انه كان هناك فكر جديد وحيدا لو عرفنا

كيف تكونت تلك الجنة وتلك المقر لغراس الفنون والآداب اذ لا ندري لماذا لم يتدع أولئك اليهود واليونان والنسطوريون شيئا يذكر من القرن الثاني الى القرن السابع قبل أن يخضعهم العرب اي قبل ان يتحكون ملك العالم وينتظم الحال ان جميع المصنفات اليونانية واللاتينية كانت بين ايديهم ولكن الحقيقة ان اليهود والنسطوريين المطرودين من الممالك المسيحية كانوا يلجئون الى بلاد الخلفاء فيتعاطون الحرف الحرة وعلى الاخص الطب لانه يخول لهم التقرب من اكابر الرجال ولا خلاف في ان المسلمين اخذوا عنهم كثيرا في اول الامر واستفادوا منهم فوائد جمة فانهم كانوا يسندون لبعضهم مهمة التعليم في مدارسهم ويكلفون الآخرين بترجمة الكتب العلمية اليونانية الى العربية غير انه لم يطل الزمان حتى فاق التلامذة اساتذتهم اذ لم يبرز اسم احد من أولئك اليهود والنسطوريين بفضل عمل من الاعمال التي يؤبد ذكر صاحبها التاريخ كالفراني وابن سيناء والرازي والبيروني وابن رشد والباطني وناصر الدين واولوق بك وكثير من فطاحل ومشاهير علماء الاسلام

وكان الخليفتان المنصور والمامون يستجلبان من القسطنطينية ومصر الى بغداد نسخ مؤلفات هيبوقرات واقليدس وافلاطون وارسطو وقد طلب المامون مرة الى القيصر تيوفيل ان يسمح للعالم بالرياضيات ليون بالاقامة ببغداد مدة معينة وخاطبه بهذه العبارات « ان اختلاف ديننا وقوميتنا لا يمنعكم من اجابة طلبي فامنح لي ما تمنحه الصديق لصديقه » فرفض الملك البزنطي طلبه واجابه بفظاظة وغطرسة ولما تم النصر فيما بعد للخليفة على الملك ميخائيل الزمه في صك الصلح المنعقد بينهما ان يسلم له على وجه الغرامة الحربية الكتب التي لم يستطع استنساخها بصورة اخرى

وكان الخلفاء يستدعون ايضا بغاية الاحترام العلماء والتراجمة الاجانب للمشاركة

في العمل المشاع وهكذا تسنى لهم ان ينشروا في الدنيا معلومات لم يكن الغرب المسيحي يعرفها من قبل فلم لم تقلد اوروبا اولئك الخلفاء ولم تنسج على منوالهم ؟ ان القسطنطينية كانت اقرب لرومية منها ببغداد بحيث انهم لو اهتدوا الى ذلك لما سلك العلم اليوناني تلك الدورة الغريبة

وما بال اليونان انفسهم وهم يكسبون تلك الثروة العلمية والادبية المدونة بلسانهم لم يفكروا في اكمالها ونشرها ؟ انهم لم يعنوا ولو بمطالعتها !

قال الكاتب الفرنسي الشهير ديدرو : « ان اليونان اضاعوا كل شيء حتى لغة ابائهم ـ اليونانية القديمة ـ فكان اساقفتهم يحجرون عليهم مطالعة تآليف الوثنيين كان العلم جريمة فلم يأخذوا عن ارسطو الا ما كان خاصا باللاهوت وكانت فلسفتهم قاصرة على المجادلات الدينية فخنقوا العلم بالتوحيد وحرموا تعليم الفلسفة وانستهم خوارق المداواة المنسوبة للايقونات وبقايا اجساد القديسين مناقب هيبوقراط فباتوا كما وصفهم العلامة درابير الذي لم يغتفر انحطاطهم لاحفاد اليونانيين العظام حيث كتب :

« ان البزنطيين ملكوا اكبر امثلة العالم الفنية والادبية ومع ذلك فهم لم يتكروا في غضون الف عام عملا فريدا ولم يستطع ملايين منهم ان يرقوا ولو خطوة واحدة بالفلسفة والعلم ولا اخترعوا شيئا او نظموا قصيدة او مأساة جديرة بالمطالعة » على ان اوروبا الكاثوليكية لم تكن اكثر تقدما ولا اصفى نية من بيزنطس بل انها عوض ان تستفيد من المكاتب والكنوز الفنية التي كانت عندها اختارت تبديدها او حرقها سواء باسبانيا او بالقسطنطينية لما نهبها الصليبيون ولم تشعر نحو هذا الميراث العصكري للحياة البشرية بذلك الاحترام الذي يامرنا بالاحتفاظ به وتركه للاجيال المقبلة ناميا مبهانا

وهنالك مسالة مهمة تضطرني للرجوع الى ما قبل القرن العاشر والتساءل

عن نصيب الرومان في مختلف العلوم وهم ورثة المدنية اليونانية بلا واسطة .

كما أسأل عن مكتشفاتهم واثارهم من عهد بروتوس الى القيصر الذي ضحك به عليهم قسطنتين بجعله المسيحية دينا رسميا فهل يستحق اولئك العلماء الافلاكيين وجروش وكولو ميل وسيلزاان يعدوا وارشين لارشياد وارسطو وفيطاغورس وهيبوقراط وطاليس واوقليدس ؟ وكم من مصنفاتهم ترجمت الى اللاتينية قبل العرب واين توجد التراجم اللاتينية القديمة ؟ ولماذا بقيت اوروبا المسيحية خالصة في الجهل المطبق مدة تزيد عن العشرة قرون وكانت تفتخر بذلك الجهل المخجل بينما كان الهنود والفرس والعرب والاتراك يتسابقون الى ترقية الفنون والعلوم ؟ وكيف يمكن شرح ذلك ؟

ولكن لنبادر لتطمين القاري الاوروبي فان سوق العلم والفلسفة اذا كانت رائجة عندهم فليس ذلك لكونهم مسلمين على الخصوص ضرورة ان عرب المغرب الاقصى واتراك قونيا وان كانوا مسلمين فانهم لم ياتوا اليوم بشيء يذكر من الامور الفكرية والسبب ان حالة الوسط والانظمة الاجتماعية لم تكن صالحة لذلك اذ الدين وحده خصوصا اذا فسر على غير صواب وطبق بدون تعقل لا يكفي للنهوض بامة .

ولو كان الاعتقاد والعمل بالدين كافيين للرقي لكانت اسبانيا المسيحية وروسيا في طالعة المدنية . ان مكة المكرمة والمدينة المنورة تينك البلدتين العربيتين اللتين نشا بهما الاسلام بقيتا في معزل عن الحركة الفنية والعلمية التي قام بها العرب كما ان بلاد الحبشة وهي تلك المملكة الواسعة الواقعة جنوبي مصر لم تستفد البتة من تشعشع الفكرة العربية التي كانت تضيء القاهرة دمشق حيث لم تتوفر في بلد من هاتيك البلدان الظروف اللازمة لتهذيب وترقية تلك الاقوام .

ولم يتوقف الرقي البشري مدة ستة قرون الا لفقدان تلك الظروف التي اختصت بها المدنية اليونانية ـ الرومانية وكان اهم عمل الاسلام احياء تلك الظروف ومساعدة حقها وتاريخها عوامل اسلامية اثبتت مماثلة في الاهمية لا يمكن فصلها عن بعضها : اولها ان الاسلام امتاز عن غيره من المعتقدات بالاعتراف بالماضي و باحترامه كان النبي صلوات الله عليه حريص ان ينبذ المتقدمين والاجداد ويلعنهم وحريص ان ينادي « دعوا الاموات يدفنون امواتهم » او يقول مثل القديس جيروم « اجهل الماضي بالاعنص » او يصنع مثل القديس ريمي « احرقوا جميع ما كنتم تعبدون » كان بعكس ذلك يجل كافة الانبياء المتقدمين وصحابتهم اذ نصح للانقياد اليهم والعمل بتعاليم السلف القائدة الخلف كما ابلغ اتباع تقاليد القوم لفصل القضايا الطارئة او التي لم يتناولها الشرع فترك بذلك الميدان فسيحا لا يجاد الوسائل لربط الماضي بالحاضر حتى ان العربي الذي كان متعلقا بتقاليده انبسط كثيرا لما وجده في الاسلام من نقط الاتصال بما اعتاده من احترام الاجداد لان الاصنام من حجر او خشب ولئن ازلت عن عروشها فان شعر العرب الوثني الذي يربطهم بالماضي بقي حيا كالخمير الثمين للادب الجديد

ان التقاليد تحفظ دوام الحياة الاجتماعية في الحاضر و تمهد السبيل للمستقبل ولما كان قرار هذا الهيكل من اهم شروط النظام الاجتماعي كانت التقاليد في ايدي رجال مهرة كالقاعدة للاصلاحات المزمع على انجازها فاذا تسنى للمدنية الاسلامية ان تزدهر بتلك السرعة والجود بثمار بديعة فما ذلك الا لان عروقها كانت غائصة في اعماق العصور الخوالي لان الاسلام جدد بتلك الطريقة قاعدة الوحدة والاستمرار التي هي اساس الفن والعرفان وبفضل هذه الفكرة التي سمحت للمسلمين ان يجاوزوا ويقتبسوا كل ما راوه مفيدا لهم في الانظمة والمبتكرات القديمة اثبت عملهم غرسا نافعا حيثما وجدوا آثارا مهملة لمدنية انطفأت ظاهريا

ولو تمكن العرب من احتلال الأنضولية من القرن السابع وتلقيح هذه المدنية - اليونانية الرومانية بمرفهم الجديد لما طال عهد العصور الوسطى ولابتدأت النهضة الاوروبية قبل ذلك التاريخ بسبعة قرون

واما العامل الثاني على رقي العرب فهو الواجب المفروض على كافة المسلمين بتعلم قراءة القرآن العظيم فان الشاب العربي الذي يتعلم قراءته بلغته الفصحى ويحفظ شيئا من آياته البليغة وان لم يصر اديبا فقد طرق السبيل الموصلة الى الاداب ذلك لان القرآن لم يكن قانونا دينيا فحسب بل هو ايضا نظام مدني وسياسي أفرغ في لغة بعيدة الاطراف

وفوق ذلك نقطة مهمة وهي انه كان العربي قبل الاسلام لغة تامة بالغة النهاية في الكمال فهو كان مالكا اذاً لآلة المدنية الاولى على ان اوامر الاسلام لم تقف عند تلاوة القرآن حيث كانت توجب على المؤمنين درس العلوم والبحث عن الحقائق من « المهد الى اللحد » فالاسلام لم يقل « طوبى للبله فلهم عالم السماوات » وانما قال « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » و « رتبة العلم فوق كل الرتب » وكان يعظم العلماء ويراهم « ورثة النبيين »

ومن عظات النبي عليه السلام هذه الكلمات التي ننقلها هنا بمعناها : « خذوا الحقيقة اينما وجدتموها فهي للاسلام » و « لا تقبلوا شيئا بدون بينة » و « لا تعتقدوا الامور التي لا تستطيعون تحقيقها عقلا فان عيونكم وآذانكم محاسبة عنها » . بينما نجد بكتاب تعليم المسيحية « ان السر حقيقة تجلت بها القدرة يجب علينا اعتقادها ولو لم نقدر على ادراكها » ويقول الانجيل « لا تدن ان اردت ان لا تدان » . وكان العالم في ذلك العصر اكثر اعتبارا من قائد الجيش كما تشهد به التعاليم التالية : « طالب العلم افضل عند الله من المجاهد في سبيله » و« طلب العلم افضل من نوافل الصلاة والصوم والجهاد » و« ساعة تقضيها في سبيل العلم انفع من ليلة تستغرقها

في العبادة ، ولم يكن المقصود بالعلم التوحيد فقط كما آل اليه الامر فيما بعد وبسبب هذه النزعة تمكن المسلمون ان يتوسعوا ويطلعوا بحب على التصانيف والاعمال السابقة بقطع النظر عن منشاها وعن جنس ودين اربابها حتى ان البعض لم يكتفوا بقراءتها معربة فتعلموا اليونانية كي يقفوا على تلك المصنفات بمتونها الاصلية (١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ايضا «اجعل حلية المرء العلم» التكامل بواسطة العرفان كانت كما راينا الغاية القصوى لذلك العصر العجيب وعندي ان هذه الغاية هي التي كانت مصباح الرقي المنير الذي اسعرت اشعته في كافة الانحاء ولوعا شديدا بالعلم واوجدت تلك القرائح المتقدة من فلاسفة وعلماء وادباء في جميع فروع المعلومات البشرية

ومن مبادي الاسلام ايضا انه لا يعترف بكنيسة ولا يرضى على طائفة تحتكر علم الدين ولا يسوغ واسطة بين الخالق والمخلوق كما ان الاسلام ليس له وطن ولا يفضل بين الاجناس او يستنقص بعضها للونه او منشاه وهذا هو العامل الثالث الذي اعان على نهوض المسلمين

لا شك انه كان يوجد بين علماء بغداد حسبما لاحظه رينان رجال ينتسبون لكل الملل غير ان النخبة التي انبتها هذا الوسط المبارك كانت في الواقع عضدو قوة ذلك المجتمع والذي قال رينان وبقية الكتاب هي تلك الاخوة البديعة المقدسة على منوالها اعني بها اخوة التمدن والتكامل اذ كان اتحاد اولئك العلماء في المسلك والغاية . والايمان بالعلم والحقيقة اشد الروابط بينهم وامتنها واوثقها فقد كانت تجمعهم اجتماعاتهم العلمية ضرورة ان المسيحيين منهم والمسلمين كانوا يستخدمون في تشييد الابنية ورصد النجوم عين القواعد التي يستعملها الكفار ولا غرابة في

---

(١) بمكتبة الاسكوريال الكائنة قريبا من مادريد توجد قواميس يونانية ـ عربية الفها المسلمون .

ذلك اذا سلمنا بان غاية المدنية النهائية هي توطيد علاقات الانسان الفكرية مع امثاله ومساعدة كل فرد على اظهار مواهبه بكل حرية واستخدامها لصالح الجميع وقد اعان الاسلام على ايجاد ذلك التعاضد المنشط بين ابناء الاجناس المختلفة الذين كانت اداة الاتصال بينهم العربية لغة العلم المنتشرة بين الاقوام وكان مثل هذا الاشتراك في عمل المدنية المشاع موجودا عند الرومان فان الممالك التي تالفت وحدة العالم الروماني من مجموعها كاسبانيا وبلاد الغول وايطاليا وافريقيا وآسيا كانت متماثلة في الآداب والفنون وكان الكتاب كلوكين وسيناك وفلوروس وبنبونيوس ميلا ولوسيان ابولي وغيرهم من اجناس شتى الا ان جميعهم كانوا يستعملون اللاتينية واما العامل الرابع الذي يعد الحجر الاساسي لذلك الهيكل الشامخ فهو التسامح والحرية العقلية اللذين جاء بهما الاسلام ولم يكونا معروفين في الغرب واللذين لا يمكن للانسان ان يحصر مزاياها الجليلة كما اعترف بذلك المؤرخ مرسيي حيث قال . (١) « التسامح هو اساس الدين الاسلامي » واكد قوله الشماس ميشون اذ كتب « ومما يوجب التاسف ان الملل المسيحية اخذت التسامح الديني الذي هو شريعة المحبة الكبرى عن المسلمين (٢) »

ولكن هل افاد هذا الدرس على الاقل ؟ اننا مع الاسف لا نجد بين اعمال المسيحيين اثناء القرون الوسطى او بعدها ما يقوم دليلا على ذلك - على اننا نعترف أن التسامح كان فيما بعد احد اسباب المصائب الجسيمة التي حلت بتركيا ضرورة انه لولاه لموت المسالتان اليونانية والارمنية من عهد بعيد اما باكراه هاتين الطائفتين على اعتناق الاسلام واما بابادتها مرة واحدة كما فعلوا بالعرب في اسبانيا وبغيرهم من الاقوام الذين افنوهم بالحديد والنار والكحول في امريكا وافريقيا وجزر الاقيانوس

---

(١) مرسيي المسالة الاهلية بالجزاير

(٢) الشماس ميشون : رحلة دينية الى الشرق

ان تسامح المسلمين بتركيا ترك للناس حرية واسعة بالنسبة لغيرها من الممالك فاننا لم نقتصر علي تامين الاقوام الغير الاسلامية علي حياة افرادها بل رخصنا لهم ان يحافظوا على اخلاقهم ولغاتهم ونحلهم وكذلك على مشاريع اجدادهم العلمية ولم يخطر ببال الاتراك وهم في عنفوان مجدهم وعزتهم ان المطامع والدسائس تسوق يوما ما رعاياهم المسيحيين الى الكفر بنعمتهم عليهم فينقلبون آلة ذميمة تعمل لفائدة الدول الاجنبية (١)

ان التسامح كان في القرون الوسطى احد اركان النظام الاجتماعي الذي يرجع فضل انتشاره لرقي مدارك العالم الاسلامي العلمية ومن الغريب ان المؤرخين الاروبيين الذين وقفنا على مؤلفاتهم لم ينتبهوا لعمل وتاثير تلك البثة الصالحة التي اوجدها الاسلام ونصيبها في المدنية العالمية والحال ان رينان لم يكن ليجهل ذلك التسامح حيث نقل الينا القصة التالية الدالة على ما كان عليه القوم يومئذ من حرية في التفكر وصراحة في التعبير

« سال بعض اساتذة القيروان تقيا من علماء التوحيد الاندلسيين اثر عودته من بغداد فقال له هل حضرتم اثناء اقامتكم بهذه المدينة اجتماعات المتكلمين فاجابه العالم الاندلسي نعم حضرتها مرتين غير اني تحاشيت الرجوع اليها فقال له القيرواني ولمَ ذلك فاجابه صاحبه انك ستعرف ذلك بعد ـ اعلم ان الاجتماع الاول الذي حضرته لم يتالف من مختلف انواع المسلمين كسنيين ومعتزلة فقط بل وايضا من الزنادقة والزردشتين والماديين والكفار واليهود والنصارى وبالاختصار فانه اشتمل على جميع اصناف الملحدين وكان لكل طائفة زعيم يدافع عن الراي الذي تشيع اليه وكلما دخل احد هؤلاء الزعماء الى القاعة قام جميع الحاضرين اجلالا له

(١) تحت عنوان التسامح الاسلامي ادرجت فصلا في نفس الغرض بمجلة الغريب سنة ١٨٧٦

ولا يقعد احد الا بعد ان يستقر في منصبه ولما أكتفت الرحاب وتم النصاب تكلم بعض الملحدين فقال اننا اجتمعنا هنا للمناقشة وانتم على علم من كل الشروط فلا تستدلوا ايها المسلمون بوجوه ماخوذة من كتابكم او مسندة الى حديث نبيكم لانا لا نؤمن بهذا ولا بذاك والواجب على كل منا الاقتصار على الحجج المنطقية البحتة فهتف الجميع لهذه الكلمات قال الاندلسي انك ادركت الآن لماذا لم اعد الى هذه الجلسة بعد ماسمعت تلك الاشياء على اني دعيت لاجتماع آخر ولكنه لا يقل عن السابق من حيث القبح والشناعة »

ونحن نسائلهم اي بلاد بالقطر الاوروبي كانت ترضى باجتماع واقوال بلغت تلك الدرجة من الاستقلال في الراي ؟ لا شك ان المعتقدات والفنون والعلوم لم تتمتع بحرية واسعة كتلك في اي مكان آخر اذ لم يكن هناك شيء يعاكس ابحاث وآراء المفكرين

ومن اهم العوامل التي ساعدت كثيرا علي ارتقاء اخلاق ومدارك المسلمين وان لم تكن خاصة بالاسلام الرجال العظام الذين ظهروا بينهم وافادوا المجتمع بنشاطهم وكدهم النادرين فالخلفاء والسلاطين والامراء وكبار الوزراء والمستشارون لعبوا في هذا الميدان دورا خطيرا كل ذلك بفضل المحيط الذي اوجدهم او تلقاهم بحفاوة واكرام والذي كان في ذاته نتيجة العوامل الاربعة التي اتينا عليها آنفا

ان ملوك الاسلام كانوا هم ايضا في ذلك العصر الشامخ عظاما حقيقة وذوي ابهة وفخر اذ اجتمعت فيهم اجل المناقب وازدانت حياتهم بكثير من نفائس الاعمال فقد اهتدوا بحذق فائق للتوفيق بين أصول الشريعة الاسلامية وبين افضل نظامات الرومان وبالاخص المحافظة باعتناء كلي على قواعد الرقي الاساسية التي ذكرناها قبل فتسنى لهم بذلك ان اوجدوا دواليب مكملة لسلطنة متمدنة كبرى وساد الامن والراحة في البلاد بفضل نظاماتهم السياسية والعسكرية لما

أنتشر فيها الرقي وشعشعت انوارة بانشاء المدارس والجامعات المجهزة بما يلزمها من ادوات ومعامل والمكاتب الغنية التي يستحيل بدونها وبدون مساعدة الدولة وحمايتها على المتفننين والعلماء الانقطاع التام الى اشغالهم الفكرية ومما يجب الاعتراف به ايضا ان العدل المعتبر اساسا للملك كان محل اعتناء اولئك الخلفاء المشاهير اعتناء مدققا بحيث اننا لا نبالغ اذا قلنا بعد برودون «ان رقيهم كان في اتقاق العدل»

وقد يطول تعداد اسباب المدنية الاسلامية الثانوية ولكن هناك شيء يستحق الذكر الا وهو الرخاء الذى اتيح للعلماء والمفكرين اذ لا يخفى ان الفقر يفقد طالبي العلم الاسباب والاستقلال الفكري وكثيرا ما حال دون نجاح مساعيهم ضرورة ان البؤس كان دائما عقبة في سبيل الرقي ولكن التاسيسات الاسلامية ازالت هذه العقبة الكؤود من طريق النهوض بان ضمنت للتلامذة والعلماء حياتهم المادية فلاجلهم استنسخوا وترجموا الكتب اليونانية وغيرها ولتنشيطهم استقدموا الى بغداد على نفقة الدولة اشهر علماء ذلك الزمان وكان الخليفة المنصور يشرف بنفسه على ترجمة «الجمهورية» لافلاطون كما كان الحكم بقرطبة يحمي علماء جميع الاقطار وبفضل رعايته استطاع الفلاسفة ان يدرسوا العلوم وينشروا الافكار بالرغم من معارضة كافة المتطرفين في الدين - (١)

نعم وجد بقرطبة وبغداد كما وجد في كل العصور والانحاء ارتجاعيون متغالون ولطالما وجهت الطوائف السنية السلفية التحاذير لامراء البلاد وهددتهم بالانتقام الالاهي غير ان اولئك الامراء البسلاء لم يكونوا ليعبثوا بها فاستمروا على انجاز ما رسموه لانفسهم من الاصلاحات السنية وقد استحقوا باقدامهم الوطني وثباتهم الذي لم تزلزله الحوادث في هذا المضمار ان يكونوا اعظم اسوة لذوي الالباب

ان الفلك - لا التنجيم كما يقولون - كان في ذلك العصر اعز العلوم في البلاط

---

(١) دوزي : «مسلمو اسبانيا» ج ٢ - ص - ١٠٦

وكانت المناقشات في شأن شكل الارض وموقعها وتحديد مكان الانسان في العالم تدور امام الخلفاء الذين كان غالبهم من ذوي الافكار الحرة فكانوا يقدرون اهمية الفلك الفلسفية حق قدرها من حيث تحرير العقول بقطع النظر عن فوائدها التطبيقية الخاصة بالملاحة والتجارة

وفي ذلك العصر اي عصر المامن بنى المسلمون مرصدين ببغداد ودمشق وكذا قاسوا ضلعا من الدائرة استنتجوا منه حجم الكرة الارضية وبمجرد افتكار هذه العملية يكفينا دليلا على رقي الوسط الذي كان يعيش فيه امراء المسلمين في ذلك العهد

ومن اهم المفاخر التي سيجلها لهم التاريخ انهم صرفوا سلطانهم في سبيل العقل والعرفان فالمامون لما اشترط على ملك بيزنس ان يسلم له كتبا على وجه الغرامة الحربية حقق كما قال عنه العلامة اوقوست كومت « غاية جليلة الا وهي الجمع بين فكرة سامية وقوة عتيدة » ومما اراه ايضا جديرا بالاعجاب انهم كانوا يرون وظيفة الدين من وجهتها البشرية المحضة فكان لديهم بحسب مقتضيات الزمان قوة يسخرونها لتنشيط الطبائع واحياء الفضيلة وايجاد الاخلاق النبيلة وبفضل هذا الرقي الاخلاقي كان للشرق ذلك التاثير المبارك على بنيه والعظيم على نخبة الغرب

انهم يمثلون عصور اولئك الملوك الاماجد الذين قبضوا على صولجان الحكم من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر وبلغت المدنية والسعادة في ايامهم منتهاها بعصر الامبراطور اوقسنت . والحال ان الحضارة التي ظهرت في ايام هذا الملك المشهور الذي ينوهون بشانه كانت عسكرية اكثر منها مدنية

راينا مما تقدم ان اجتماع عدة عوامل اوجد في القرن السابع بيئة صالحة للرقي كانت ثمرتها نهضة المسلمين العلمية وربما راق لنا ان ندرس بتفصيل كل

المصنوعات المستطرفة والمؤلفات التي ظهرت في ذلك العصر ولكن نطاق هذا السفر لا يسمح بهذا الاطناب على ان البيان الذي قلناه سابقا عن درايز قد ارانا الدرجة الرفيعة التي كانت عليها مساكن كبار امراء المسلمين من الانق في التأثيث والرفاهية ولا يخفى ان شكل البناء وتوزيع العمارات والمعاهد هي المظاهر البارزة لمدنية كل امة لانها تدل في آن واحد على حالة حياتها الاجتماعية وتشخص ما يتوق اليه خيالها الشعري وكان للعرب من القرن الثامن هندسة معمارية قومية خاصة بهم فقد عدد دربلوهازري كثيرا من التصانيف العربية في هذا الفن ولا بدع في ذلك ان الآثار الكثيرة التي تركوها بصقلية ومصر واسبانيا على الخصوص تدل على انهم كانوا يستعملون رسم البكارين قبل مهندسي الغرب باربعة قرون ولاحظ بريس دافين ان الحنية (القوس) كانت مجهولة باروبا قبل القرن الحادي عشر وان العرب استعملوها من قبل كما يمكن مشاهدة ذلك لليوم بجامع ابن طولون بالقاهرة ذالك المثال الحي لطراقة وعظمة المسلمين الذين شيدوه في القرن الحادي عشر (١) ان نمط رسم البكارين لم يظهر باروبا الا في اواخر القرن الثالث عشر فقد قال ميشلي المؤرخ الفرنسي الشهير : ان المصونيين هم الذين ادخلوا للغرب الرسم البكاري العربي والفارسي للقرنين الثامن والتاسع وولوه بدهاء مع اساليبهم الهندسية في مآثرهم الخالدة وقد انتزعت هذه الثورة العامية الهندسية من ايدي الرهبان ولا جدال في ان القوم الذين ابدعوا في هذا النوع من البناء في القرن التاسع لهم قوم فنيون » (٢)

وقد شيد عبد الرحمان الاول وعبد الرحمان الثاني بالاندلس ابنية فاخرة كما زين قطب الدين الملك الهندي الكبير عاصمة مملكته بآثار بديعة وعدت فيما بعد ايام

---

(١) يراجع من اراد التفصيل « الفن العربي لبريس دافين ص - »

(٢) ميشلي - تاريخ فرنسا ج ٧ ص ٥٩ و ١٠٩

الشاه اكبر المغولي العصر الذهبي لصناعة الهندسة المعمارية حتى ان الاسقف هربير قال بعد زيارته للجامع اللؤلوء المشهور بمدينة اقرة انه استشعر نفسه حيث تحقق ان مهندسي النصارى لن يقدروا ابدا على بناء ما يضاهي هذا البيت المقام لعبادة الله ومن المستحيل ان نذكر هنا جميع المساجد الفاخرة والآثار التي اقيمت في اهم البلدان من اسبانيا الى الهند وكانت مثالا للهندسة العصرية لرقة خطوطها وسلامة ذوق بانيها وها هي بعض اعمدتها القائمة لحد الان بين الخرابات كاحجار القبور المبعثرة شاهد صامت على ذلك المجد التالد يوحي الى المسافر المفتكر خواطر محزنة وعبرا شتى - على ان غالب هذه المباني الناطقة بعظمة وسودد اربابها ذهبت طعمة للنيران المتلفة التي اضرموها بها في القرون الوسطى وسأوضح في القطعة الثانية من هذا التاليف كيف خرب الانجليز فيما بعد جانبا من الآثار الهندية البديعة

كتب الروائي الانجليزي الطائر الصيت كبلنج « ان تهديم كنيسة رانس سمة عار عرفها العالم قاطبة اليوم تركها الاعداء كتوقيع حقيقي على الحكم على انفسهم » (١) وانا اود ان ارى كبلنج هذا يبدي رايه بمثل هذا الغضب وتلك الحدة بشان المساجد والمكاتب التي اضمحلت باسبانيا والآستانة والهند وغيرها من الاقطار لا بنيران مدافع اطلقت عليها على بعد مائتي ميل وانا بايدي مسيحيين اثارهم البغض والتعصب الديني. يتوهم الاجنبي الذي لم يدرس بامعان مدنية الممالك الاسلامية الزاهرة ان المسلمين كانوا ينبذون حب الفنون المستظرفة مع ان الشرقي شاعر قبل كل شيء بطبيعته الميالة للتامل في الاشياء والتفكير وقد البس العلم والفن شعره جلبابا زائدا من السحر والقوة

ان نقرا من كبار الشعراء اخص بالذكر منهم المتنبي وعمر الخيام وعلي شير نواي تمكنوا من التوفيق بين الفن والعلم وحققوا شبه تحالف بين الجمال والحق وهو تحالف فكر فيه افلاطون من قبل

---

(١) جريدة الطان يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢١

وقد حفظ لنا تاريخ القرنين العاشر والحادي عشر اسماء كثير من مشاهير الاديبات وبعضهن من بنات الخلفاء اللائي امتزن في عصرهن بعلو المدارك وسعة المعلومات فهل كانت في ذلك العهد امرأة اوروبية واحدة تحسن القراءة والكتابة؟ ان غالب شعراء العرب والفرس والترك معروفون في الغرب بل انهم ترجموا بعضهم الى الفرنسية ولذا فلا اطيل الكلام عليهم

من المسلم ان للشعر المحكم الوزن الرايق القوافي نسبا كثيرة مع الموسيقا ومعلوم ان الشرقي يصبو الى هذه بقدر ما يميل الى ذلك على ان موسيقته جميلة وغنية وفنية في نظر العارفين وقد قيل حقا ان الشعر لا يترجم وكذلك الموسيقا عند من لم يكن سمعه مدربا عليها لان من لم يتعلم المصطلحات الخاصة بموسيقة اجنبية لا يمكنه ان يلتذ بسماعها بل هو يراها مقلقة وعديمة الحسن يمجها وينفر منها ولا يجهل انسان ان العرب والفرس اقبلوا على الموسيقا بولوع شديد باعتبارها فنا مهما رقيقا وهي لحد الآن الصوت الوحيد الذي يطرب السامع ويسليه في هذه البقاع المخربة وينعش القلوب والاذان التي مزقها دوي المدافع

وقد يوجد لدينا كثير من المؤلفات العربية الخطية من ذلك العهد افردها اصحابها للموسيقا التي اعتنى بها حتى العلماء والفلاسفة وافرغوا ابوابا كاملة في تصانيفهم لدرس هذا الفن درسا نظريا وهذا كتاب ابي الفرج الاصبهاني يحتوي كما قال كوند على جانب عظيم من مختلف المغاني بتلحينها وطريقة انشاءها وكذا على تراجم اربعة عشر موسيقيا من المشاهير

وقد نقل ميشال كازري نبذا من كتاب للفرابي الف في القرن العاشر بحث فيه صاحبه في استعمال الحساب في تركيب المغاني وعلم الالحان والايقاع ويتضمن ايضا الاشكال الموسيقية الاصطلاحية وصور ثلاثين آلة مختلفة واما كيسانفاتير فانه حقق بكتابه المعروف بموسيقة العرب ان هؤلاء كانوا يكتبون الالحان بالارقام

وكانت توجد ببغداد وقرطبة مدرستان لتعليم الموسيقا وقد اشهر اسطول عبد الرحمن الثالث في بحار الشرق حربا مظفرة على سلطان مصر لانه اسر مركبا كان ينقل بعض معلمي الموسيقا دعاهم الخليفة الاندلسي للتدريس بقرطبة

هذا واذا اهمل المسلمون تصوير جسد الانسان بالزيت او الحجر الصلب فما ذلك الا لان القرآن حرم عبادة الاصنام وبالاخص عبادة الصور ذلك لان الاله المسلمين الواحد هو الخالق الذي لا يكيف بشكل ولا تراه العيون ولا تساويه البقاع ولا ينحصر بجد فهو الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد وهذه النظرية هي التي اضطرت علماء التوحيد المسلمين لتحريم فن التصوير ولما كان احساس الانسان الديني يميل به طبعا الى عبادة الاوثان فقد ارادوا بهذا التحريم الا يعود ضعفاء العقول والجهلة من المسلمين لهذه العادة القبيحة غير ان المتفننين من المشارقة وان لم يحاولوا تصوير ذات او جسد الادمي فقد اعتنوا بالنقش وتصوير النباتات والحيوانات ورسمها على اصفاح الجدران والكتب والشيت والطنافس والخزف والجليز والاثاث الخشبية وغير ذلك على ان اباء الكنيسة حجروا التصوير بالزيت والنقش في القرون الاولى للمسيحية ولم يسوغوا للناس عبادة التماثيل الا في القرن الخامس ولكن لما انعقد المجمع الديني السابع بعد ذلك التاريخ بثلاثة قرون اي عام ٧٤٤ بالضبط قرر ٣٣٨ اسقفا بالاجماع «ان احترام كافة رموز المسيح البارزة ما عدا القربان المقدس سبة للدين وردة وان عبادة التماثيل فساد في المسيحية ورجوع الى الوثنية» وقد امر هذا المجمع نزع الاصنام والصور الدهنية من الكنائس واتلافها تماما وهو ما وقع فعلا

ان عجز الاوثان المحقق عن اجابة الدعوات وعدم فائدة التوسل بالقديس وانتقادات المسلمين على هذه العوائد القبيحة كان لها تاثير على قرار ذلك المجمع ولكن ضعف الاحساسات عند الرجل وبالاخص عند المراة تغلب على العقل فتمكن

بفضله الرهبان الذين كانوا يستفيدون بحذق من الاعتقادات الباطلة واتخذوا بيع الايقونات وبقايا القديسين تجارة رابحة لهم من احياء عبادة التمثيل بعد مقاومة دامت مائة وعشرين عاما وذلك بمساعدة امرأة تقية ومتهتكة في آن واحد كانت تدير دفة الامور بالآستانة سنة ٧٨٦ باسم ولدها الذي امرت بفقيء عينيه كيلا تسلم له تاج الملك

نعم ان اعتراض الخوارج في القرن الثاني عشر على هذه البدع اوجد خطرا جديدا لعبادة الاصنام حيث قام نفر من اهل الدين الضليعين المتنورين كبيردوبروس وهنري دولوزان ضد الغلو في احترام القديسين وبقاياهم لما في ذلك من الصبغة الوثنية محاولين تطهير الدين من هذه الادران والرجوع به الى اصله وخطبوا جميعا متندين على تلك النزعة المادية التي ظهرت في الدين كما حبذ لوثير في مبادي القرن السادس عشر تفوق الفكرة الاسلامية القاضية بتحريم عبادة الاوثان ولكن كما قال المثل حنانيك بعض الشر اهون من بعض .

ذلك ان التغالي في اكرام الصور لا المسيحية ساعد في الغرب على التصوير بالادهان والنقش بخلافه في الشرق فان تحريم المتدينين احترامها بلا تبصر انسحب على التصوير نفسه ولولا ذلك لكان من الميسور جدا على الفنيين المسلمين كبهزاد ومعاني اللذين تركا ببلاد فارس تصاوير مصغرة بديعة ان يرسموا ذات الانسان في صور كبيرة

على انه يجب الاعتراف بان قرائح الشرق كانت اثناء هذه النهضة المتزائدة ميالة الى الحقائق اكثر منها الى الاوهام والخرافات حتى ان العرب ترجموا كافة تآليف اليونان العلمية وغالب تصانيفهم الفلسفية واعرضوا تماما عن قصصهم ورواياتهم وهذا مفهوم ايضا فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليستحسن انصراف العقل للفنون والآداب ما لم يكن من وراء ذلك نفع للمجتمع وهو لم يكن منفرداً

بهذا الراي فقد قال ايضا اوغست ڪكونت الذي كان يحتقر الفن العديم الفائدة « يجب ان تكون غاية الفن من تصوير الحقيقة في ابهى مظاهرها تهذيب اخلاقنا»

لان الفلاحة والصناعة كانتا اكثر الفنون العلمية روجانا فكان الفن الزراعي الخاص بالري وحفر المطامير والقنوات وبناء الطواحن راقيا جدا وبفضله تمكن فلاحة الشرق من اخصاب سهول بلادهم القاحلة واما المصنفات التي ظهرت في العلوم الاخرى كتآليف ابي عثمان في علم طبائع الحيوان وحياة الحيوان للقزويني الذي سمي بلين المشارقة (١٢٨٣) والوردي وكتب البيروني في المعادن والرازي في النباتات وغيرهم في الفلاحة عموما فهي تدل على الاهمية التي كانوا يعلقونها على هذه المهنة والاعتناء الزائد الذي صرفوه لترقيتها ومثل البيار النباتي المشهور الذي جاب كل اقطار آسيا لاقتناء النباتات الطبية لم يكن ممن يتهاون بنمو فلاحة بلاده

ومن المأثور عن الخليفة عبد الرحمان الاول انه انشا قرب قرطبة بستانا لتنويع النباتات واوفد الى الشام وغيرها من بلاد الشرق اناسا لجمع البزور النادرة والف عيسى بن علي السعدي في القرن الرابع عشر كتابا ضخما منقسما الى نحو ٣٠٠ بابا استقصى فيه المؤلف البحث عن حياة وطبائع واحياء جميع الحيوانات الصالحة للصيد والتي تستعمل وسيلة اليه ولو ترجم هذا الكتاب النفيس الذي نوه بشانه كازري لماثلوا به تاليف جورج لوروا المعروف بالرسائل عن الحيوانات

وقد اشار عيسى ابن العوام في كتابه المسمى بكتاب الفلاحة الذي ترجم الى الفرنسية الى مؤلفات قديمة صنفت في هذا الفن ولكن اين هذه التآليف الخطية التي لو بقيت ماثلة الى اليوم لكشفت لنا الغطاء عن حياة القرون الوسطى الفلاحية واشغالها ؟ انها ذهبت طعمة للنار واضمحلت الى الابد . وكيف نستغرب من حرق كتب المسلمين اذا علمنا انهم حجروا مدة ١٢٠ عاما اعادة طبع تآليف منهم ككتاب الفلاحة لان صاحبه اوليفي دوساركان بروتستانيا وممن ذهبوا ضحية مرسوم نسانت ؟

واما التجارة فانها كانت تسير طبعا سوا سيا مع الفلاحة والصناعة ولمهارة واقدام ربان البحار النصيب الوافر في الرقي والاكتشافات البحرية التي استفاد منها العالم فهم الذين ساعدوا في جميع انحاء المعمور على انتشار التجارة ووضعوا من القرن العاشر العلامة الاولى التي اهتدى بها كريستوف كولومب وفاسكو دوقاما بعدهم بخمسة قرون الى طريق الاكتشافات التي خلدت ذكرها بين الانام

***

ان الهندسة المعمارية والفلاحة والصناعة والملاحة التي تعرضنا اليها بغاية الايجاز كانت قائمة على علم تطبيقي عميق مدقق لان العلم كان اساس قوة وعظمة المجتمع الاسلامي كله والفضل في ذلك للعلماء على ان هذا العلم لم ينحصر في التوحيد والمجردات كما ادعاه بعضهم وانما كان يرمي الى المعرفة الصحيحة الحقيقية ابنة التجربة والتنقيب ذلك ان علماء الاسلام كانوا يميلون الى المعقولات وعلى الاخص الاتراك الذين كانوا اكثر من الفرس تقديرا لما انتجه البحث والاختبار ولكن ذلك لم يمنعهم من التفكير احيانا خارج منطقة العلم وابتكار فرضيات اختيارية كما فعل بعدهم ديكارت وليبنتيز وغيرهم من الفلاسفة حتى قال رينان ان عملهم هذا كان اتم فوز ناله المتكلمون في الاسلام »

وقد ارتقى الفلك والجبر في بلاد فارس على الخصوص ارتقاء عجيبا وكذلك الكيميا فان علماء هذا الفن كانوا يتابعون عملهم الخفي بلا كلل ذلك العمل الذي تجلى للخارج بنتائجه المدهشة وقد اقبلت اسبانيا الاسلامية على هذه الابحاث ايضا اثر الشرق وشارك سكانها اليهود في هذا السبيل بجد ونشاط وظهر في ذلك العصر الزاهر رجلان كبيران وهما الفارابي وابن سينا استحقا ان يعدا في صف اعظم المفكرين واما ابن باجه وابن طفيل وابن رشد فانهم صعدوا في القرن الثاني عشر بالفكرة الفلسفية الى مراقي لم يصلها العقل من العهد القديم

وقد وجد ايضا شبه جمعية فلسفية تدعى باخوان الصفاء اخذت في نشر دائرة معارف فلسفية بديعة من حيث الحكمة وعلو الافكار » (١)

ان ارتقاء العلوم اعطى العقل جرأة واقداما كما ان التسامح الفعلي الذي كان سائدا بين الناس افسح الطريق للتعلم والبحث الحر فرأى كبار الفلاسفة كما اشعر به رينان مثل ابن رشد والكندي وابن باجه والفارابي ان يحرروا الفلسفة من رق العقائد السنية وكان ابن طفيل يعلن النفور من الدين وحرية الضمير ويصرح ابن رشد الذي كان يحتقر المتغالين في التعبد « ان دين الفلاسفة هو درس ما كان موجودا(٢) وهذا ما كرره بعده بوقون لما قال « ان الفلسفة الحقة هي ان تنظر الى الاشياء كما هي »

ومن هنا ندرك انه كان من الهين على الشعراء انتقاد الاعتقادات والتهكم صراحة على المتعصبين على سبيل المزاح واليك نبذا لابي العلاء المعري تستدل بها على حرية القول والتفكير في هاتيك العصور الخوالي قال :

فواعجبا من خلافهم * أيعمى عن الحق كل البشر

وكذا :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت * ويهود حارت والمجوس مضلله

اثنان اهل الارض ذو عقل بلا * دين وآخر دين لا عقل له

وكتب عمر الخيام الشاعر الكبير (١١٢٣) الذي كان عالما متضلعا بالرياضيات والفلك : اني مرتاب في كل شيء لا دين لي ولا ثروة ولا طمع في جنة وهذا مطابق لما اتفناه منه فان شعره امتلأ سخرية وانكارا مرا على ان الروح

---

(١) يجب ان يضاف لهذا العمل المشترك دائرة معارف ابن سيناء والقاموس التاريخي الكبير المعلوم لمحمد بن عبد الله الغرناطي

(٢) رينان ـ ابن رشد ـ ص ١٦٧

التي كانت تهزهم جميعا لم تتخلص تماما بلاشك من تأثير تعاليم اللاهوت ولكن جسارتهم واستقلالهم الفكري يدلان على انطلاق كبير في العقول ـ وقد ظهر غيرهم من المفكرين لا يقلون عنهم مكانة الا انهم كانوا اقل منهم حرية فبقوا متمسكين بالعقائد الدينية وتراجعوا امام عواقب تأثير تلك الافكار لما اوجسوا فيها من المخاطرة ففضلوا ان يتخذوا من العلم على ما يظهر برهانا فعليا مؤيدا لما كانوا يعتقدون فكانوا بذلك من علماء اللاهوت اكثر منه فلاسفة ولكنهم بصفتهم منتقدين افادوا حقيقة حرية العقل .

ان حرية الفكر التي كان عليها المسلمون في عصر المامون وعبد الرحمان كانت مغايرة بصورة محسوسة للتعصب والضغط السائدين اذ ذاك في اوروبا بدليل ان طريقة التفكير والتكلم باسم العقل لم تطرق بالغرب الا في القرن الثاني عشر ولم يسمحوا بها الا في القرن السادس عشر والحال انهم يتبجحون بان حرية النفس وتحرير العقل من محاسن العصر الحاضر ــ وعلى كل حال فالواجب علينا ان نبحث عن الفكرة العلمية الحقيقية بين رجال العلم لا بين الفلاسفة او الشعراء فقد قال سيديو ان مدرسة بغداد اتصفت في المبادي بفكرتها العلمية الحقيقية فقد كانت قاعدة اساتذتها اذ ذاك السير من المعلوم الى المجهول وتمحيص الحوادث بدقة للتدرج فيما بعد الى الاسباب بواسطة النتائج وكذا عدم قبول اي شيء لم تثبته التجربة وبهذا كان عرب القرن التاسع مالكين لتلك الطريقة المثمرة التي استخدمت بكثير بين ايدي علماء هذا العصر الآلة التي توصلوا بها لاجل مخترعاتهم(١) وقد شاطره في هذا الراي هومبولدت صاحب كتاب « الكون » المشهور حيث قال : « يجب ان نعتبر العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية التجريبية بالمعنى الذي اعتدناه اليوم فانهم بلغوا في التجارب الى درجة كاد لا يدركها المتقدمون (٢)

---

(١) سيديو ــ تاريخ العرب ــ ج ٢ ــ ص ١٢

(٢) هومبولدت ــ الكون ــ ج ٢ ــ ص ٢٦٠

واكد اوغست كونت ان العرب هم الذين ادخلوا العلوم المثبتة الى اوروبا فقال انهم لم يكادوا يحدثون بالممالك التي فتحوها بانشاء المدارس لنشر العلوم المرتكزة على التجربة حتى اندفع جميع افاضل القوم بحرارة عامة نحو هذا النور الجديد وقد بلغ شعور الناس بتفوق الامور المحققة على الحدس والظنيات على المجردات ولو من اهل السلطة الروحية حتى ان كثيرا من اعيان الاكليروس ومنهم باباان ذهبوا الى قرطبة لتعاطي درس العلوم المثبتة تحت اشراف اساتذة من العرب (١)

وكتب درابيرا في هذا الغرض ايضا فقال ان العرب كانوا يزاولون العلوم ويبتكرونها والحال ان اوربا لم تكن اذ ذاك ارقى مدنية من بلاد زنوج الكافر اليوم وقدر لانتصاراتهم الفلسفية والرياضية والفلكية والكيمياوية والطبية ان تكون اكثر فخرا ودواما وبالتالي اكثر اهمية من فتوحاتهم العسكرية (٢) ونبه الدكتور غوستاف لوبون في مقدمة كتابه المفيد الذي تعرضنا اليه سابقا الى ما ياتي فقال : ان من يستقصي ابحاث العرب العلمية واكتشافاتهم يعلم انه لم تات امة من الامم بما اتوا في هذا الباب في مدة وجيزة كتلك وان من يتامل من اعمالهم يسلم بانهم انفردوا بصفات لم يتجاوزها احد بعد فان طريقتهم المألوفة كانت التجربة والتامل في الاشياء بخلاف ما كانت عليه اوروبا في القرون الوسطى فان علماءها كانوا يقتصرون على مطالعة التآليف وتقليد المصنفين ومن هنا يرى القاري ان الفرق بين المسلكين كان اصليا (٣) على ان اعمال علماء المسلمين لم تكن قاصرة على الاكتشافات العامة بل انها امتازت بالأساليب التي ادخلوها على العلوم تلك الاساليب المثبتة التي جعلت كل شيء خاضعا لقوانين التجربة

---

(١) اوغوست كونت ـ السياسة المثبتة ـ ج ٣ ـ ص ـ ٤٠٠

(٢) درايبر ـ تمدن العرب ـ ج ٢ ـ ص ٢٢٠

(٣) غوستاف لوبون ـ تاريخ تمدن العرب ـ المقدمة والصحيفة ٤٧٠

ومما عرف به على الخصوص علي عباس احد حكماء القرن العاشر اكتشافه اغلاطات هيبوقراط وجالينوس واوريباز والتنبيه اليها ومخالفتهم في طرق معالجة الاسقام وقد سئل كيف توصل الى معرفة تلك الغلطات فاجاب انه عثر عليها اثناء اختباراته بالمستشفيات لا في الكتب وقال حكيم آخر يدعى عبد اللطيف كان يشرح الاموات بالتواضع والاحتشام اللائقين بعالم مثله « ان الادلة التي تقع تحت الحس ارجح بكثير من الادلة المبنية على الرواية وذلك ان جالينوس وان التزم في جميع اعماله واقواله غاية التحري والاعتناء فانا نفضل شهادة الحواس على شهادته » (١)

فيستدل جليا من الاراء التي عددناها ان طريقة اقامة التجربة والتامل مقام الاسناد المنسوبة لباكون راجعة كلها في الحقيقة لعلماء المسلمين وان الطب الذي كان يمارسه اليهود والنسطوريون طبق تعاليم اليونان دخل في سلك العلوم التجريبية الحقيقية بفضل الرقي الذي شمل الكيميا والجراحة وبفضل كثير من اوامر الدين الخاصة بحفظ الصحة التي اعطت للطب اعتبارا زائدا في انظار المسلمين فان حديث النبي (صلعم) المتضمن التحريض على درس علم الابدان قبل علم الاديان ساعد جداً على تعلم الطب ولا نبالغ اذا قلنا ان علم العرب نشأ من الطب وان الحكماء هم الذين وضعوا اساسه وقد انتشرت سمعة بعضهم بين الاقوام انتشارا غريبا حتى ان امراء النصارى كانوا ينزحون اليهم بقصد التداوي فابن رشد (١١٩٨) ذلك الفيلسوف القرطبي الشهير كان من اكابر الاطباء وكانت فلسفته مرتكزة على العلوم الطبيعية وكذلك ابن سيناء ذلك الجراح التركي الجليل الذي سمي امير الحكماء فانه كان يمارس هذه المهنة ببغداد ويلقي بها ايضا دروسا في مختلف العلوم تخرج منها اكثر من الف تلميذ وبقيت تآليفه ركنا لدراسة الطب في جميع كليات أوروبا الى القرن

---

(١) راجع ترجمة العلامة سلفاستر دوساسي ــ ص ٤١٧

الثامن عشر حتى قال عنه بروكير في تاريخه الكبير انه كان ملك المدرسة الطبية الاسلامية والمسيحية معاً ومثلهما في الشهرة والنبوغ محمد ابو بكر الرازي (٩٢٠) وخالد ابن جعفر الذي قال عنه روجي باكون انه كان قطب الاعلام

ولم يكن فن الجراحة عندهم اقل تقدما من الطب وممن فاقت شهرته غيره فيه ابو القاسم القرطبي (١١٠٢) فانه اخترع عددا كبيرا من الآلات الجراحية ثم صورها بتآليفه الفنية ووصف الطريقة الجراحية لتفتيت الحصا التي يعدونها خطأ اختراعاعصريا على ان ابا القاسم هذا لم يعرف باروبا ويذاع اسمه الا في اواخر القرن الرابع عشر ولكن سرعان ما انسى تأثيره عظيما فان هلي العالم السويسري الكبير بفن تركيب الحيوان كان يسميه الينبوع المشترك الذي اغترف منه اسرار الصناعة جميع الجراحين الذين برعوا بعد القرن الرابع عشر ويظهر انه لم يكن يجهل التخدير الذي يحسبونه من المكتشفات الحديثة اذ كان يحرض على استعمال الزؤان لتنويم المرضى قبل اجراء العمليات المؤلمة وذلك الى ان يفقدوا الادراك والشعور كما اخترع الرازي الفتيل لمداواة الجروح وشرح الحنجرة ووصفها تفصيلا ثم جاء عبد الملك بن الزهير القرطبي (١١٦١) فجدد الطب حيث عاد به الى قواعد التجربة وتوفق الى استعمال عدة ادوية نافعة كما افاد الجراحة بان هتدى قبل غيره الى عملية تشريط الرئة وعلاج انفكاك العظام وانكسارها واما تشريح الاموات وفحص الجثث اللذين حجرتهما الكنيسة الى القرن الثاني عشر فانهما كان يجريان ببغداد من القرن العاشر وهو ما اوجب اعجاب المؤرخ الفرنسي الكبير مشلي فكتب في هذا الغرض بتلك اللهجة البلورية التي اختص بها «ان العرب اقدموا على ذلك الامر الجلل الا وهو فتح الموت لقراءة الحياة » .

وكان لعلمائهم ايضا فضل السبق على لافوازي الكبير في ميدان الكيميا فانهم اخترعوا الالكحول وحامض الكبريت وحامض النطرون وماء تحليل الذهب

وخواص عدة ارواح (غازات) والتقطير وتجميد الموائع وغير ذلك من الاشياء التي كان اليونان والرومان يجهلونها تماما ونشر الرازي وابن جابر تآليف ابانوا فيها كيفية تحضير الحوامض وملحي القلى والنشادر الخ وكتب الرازي عن الكحول بانها تستخرج عن تقطير المواد ذوات اللب او السكرية او المخمرة

وكانت معلوماتهم في الكيميا الصناعية اهم واوسع فاننا مدينون لهم يعني الصبغ واستخراج المعادن وصنع الفولاذ وورق القطن وخدمة الجلد الخ التي لم تكن تعرفها اوربا بالمرة الى القرن الحادي عشر ولم يكن في نظر اهلها طول القرون الوسطى شيء ادعى للرغبة والتنافس من اقمشة الشرق وطنافسه ومنسوجات الكشامير ودبابيج بغداد وبلنسية والجلد والاسلحة العربية على ان علماء المسلمين كانوا يهتمون بالرياضيات فوق كل شيء فانهم وقفوا على جميع علوم ابولونيوس واقليدس واضافوا للرياضيات اليونانية قطعا جديدة كالجبر الذي يدل اسمه على اصله العربي وكتب سيديوان حساب المثلثات هو احد اقسام الرياضيات التي اعتنى به العرب اعتناء زائدا لتطبيقه على الفلك فنشا عن ذلك اصلاحات كثيرة استفاد منها العلم كابدال الاوتار بالجيوب في الهندسة واستعمال الخطوط المماسة للدائرة في حساب المثلثات والجبر في الهندسة وحل المعادلات المكعبة وبالتالي فانه يجوز لنا ان نقول انهم اتوا بابدع الفكر في الرياضيات كما ان فلكية بغداد حققوا بدقة غريبة حركة ميلان الشمس ومقدار منطقة دورانها ومدة الحول وباعتنائهم بعلم النجوم قاموا باعمال هامة فكانوا اساتذتنا في هذا الباب وزيادة على ذلك فانهم ذهبوا شوطا بعيدا ليس فقط بالهندسة والحساب والجبر بل وكذلك بعلمي المناظر والقوى المحركة (١)

واما الفلك الذي كان بدويا في بدايته رائجا بين الرعاة مع اقبال المشارقة

---

(١) سيديو - تاريخ العرب العام - ج ٢ - ص ٤٠ و٤٥ و٦٦.

عليه من قديم الزمان فانه اصبح بفضل استعمال الحساب في الارصاد علما مهما ارتقى رقيا عظيما على يد المسلمين بالنسبة لما كان عليه عند اليونان وقد قال عنهم دولامبر في تاريخه الفلكي ان ملاحظات العرب بهذا الخصوص فاقت كثيرا ماورثناه عن اليونانيين فهم زيادة عن رفعة آلاتهم قد استعانوا بالمثلثات على حل المسائل السماوية ويلوح لنا انهم ابتكروا قبل سواهم مختلف الطرائق في تقسيم السماء واعطوا صورة انظم واقرب للدقة الهندسية لعلم المناحي ورسم الصور على السطوح الذي ربما كانوا مخترعيه

انا تكلمنا سابقا عن كبار المكتشفين ولكننا لم نقل ان غالبهم كانوا عارفين بالجغرافيا لهم من المعلومات ما يكفي لتحديد مواقع النجوم الذي هو اساس رسم الخرائط وفعلا فانهم اصلحوا الغلطات التي ارتكبها اليونان في تعيين مواقع النجوم ومن جملة هؤلاء الرحالة ابو الحسن الذي كان يتجول في العالم في القرن الثاني عشر فانه كان يضبط الاماكن التي يمر منها بطريق الحساب الفلكي وقد ترك لنا جدولا فنيا ضمنه براعة مدهشة الاغلاط التي عثر عليها بجداول بطليموس بخصوص شواطئ البحر الابيض المتوسط الجنوبية فكان ذلك احسن اثر يشخص لنا مبلغ اولئك العلماء من المقدرة على تطبيق معلوماتهم الواسعة وقد صنع اشهر علماء الجغرافيا الاندلسيين الادريسي (١١٥٤) الذي جلب لبلاط ملك صقلية روجير لهذا الاخير صورة مصغرة للنظام الشمسي ورسما مصفحا للكرة الارضية من الفضة كانا آيتين من آيات الابداع والاحكام وقد بقيت مؤلفاته المرفقة بسبعة وستين خريطة مرجعا لتعليم الجغرافيا باوروبا اكثر من ثلاثة قرون وممن اشتهروا بعد في هذا الفن ابو الفدا (١٣٣١) احد امراء حماه فان هذا العالم البارع زيادة عن تلخيص معلومات المتقدمين في الجغرافيا ترجم لستين عالما بهذا الفن من المسلمين الذين عاشوا قبله وذاعت سمعتهم بين معاصريهم وتركوا تصانيف مهمة اتلف المتعصبون غالبها بالنار

وكان محمد بن جعفر البطاني (٩٢٩) من اعظم علماء الفلك المسلمين فانه زيادة عن جدوله المعروف بالجدول الصابي الذي ترجم للاتينية وكان اول جدول استعملت فيه الخطوط المماسة للدائرة والجيوب اكتشف برصد معادلة الليل والنهار ان العام المشتمل على ٣٦٥ يوما قصير جدا كما قاس انحراف محور الشمس واكتشف حركة الكواكب بالنسبة لبعضها وهذا الاكتشاف هو الذي اكسبه فخرا وشهرة بين الانام والفت الانظار لاعمال العرب فكان كما قال بائي كحجرة وضعوها لبناء العالم ابدوا بها فخرهم وفخر البطاني الذي نعتبره اكبر فلكي ظهر على سطح الارض بعد بطليموس وقال دولامبر بشان البطاني انه رقى حساب المثلثات بصورة خاصة بابدال الاوتار بالجيوب وانه اول من استعمل هذه الجيوب في حساب المثلثات المختص بالافلاك كما كان كتاب احمد الفرغاني في الفلك (القرن العاشر) اكثر تآليف المشارقة اعتبارا باوروبا في القرون الوسطى وخلف علي الصوفي الخراساني (٩٨٦) المعدود من مشاهير الفلكية زيادة عن جدوله المعروف فهرستا معتبرا في النجوم الثابتة ورسالة في انبعاث اشعة الكواكب ومما ينسبونه لابن رشد اكتشاف الشوائب الموجودة بقرص الشمس

هذا وقد ظهر بعد اولئك الاعلام ثلاثة من المنقبين المصلحين ساعدوا بصورة محسوسة على تقدم علم الفلك بين المسلمين وهم ناصر الدين وابو الوفاء والامير اولوق بك فان ابا الوفاء هذا ادرك خلو مذهب بطليموس القمري من الصحة فاعاد تدقيق الارصاد القديمة وانتبه لوجود تفاوت ثالث ليس هو في الحقيقة الا التحول الذي ضبطه تيكو براهي بعده بستمائة عام ولطالما حاولوا بلا جدوى تعمية المسالة فافرغوا رواية المصنف العربي في قالب لم تعد تفهم بسببه ولكن العبارات الخاصة بالاكتشاف بلغت من الصراحة والبيان درجة لم يبق معها ريب في نظر العلم بان الفضل في ذلك له لا محالة وهذا الاكتشاف يدل على انه

مدرسة بغداد وصلت الى منتهى حد المعلومات التي كان في الامكان ادراكها بدون استعانة بالنظارات والمرآة المكبرة (١)

يقولون ان باكون هو اول من انتبه لخطاء تقويم جاليتوس الذي تفسح بعد موته بثلاثة قرون والحال ان البتاني وثابت بن قرة هما اللذان شعرا اولا بهذا الغلط بالنسبة للسنة الشمسية فاصلحاه وضبطا مدة الحول بدقة متناهية كما فعل بعدهما اولوق بك :

وهذا التقويم الجلالي المشهور الذي يبتدئ فيه العام اول يوم من الربيع النوروز - اي عند يقظة الطبيعة وتجددها عوض اول يونيار الذي لا معنى له ولا يقابل شيئا قد انبنى باحكام على العام الشمسي وفي اختراع هذا التقويم دليل باهر على درجة الكمال التي ارتقت اليها حضارة الشرق الاجتماعية والادبية.

وقد حكى الشيخ محمد عبده المأسوف عليه ان فلكية المسلمين قاسوا في سهول الكوفة درجة من الدائرة الارضية الكبرى وان المسلمين اقبلوا باجتهاد بعيد انتقال النبي عليه السلام الى الرفيق الاعلى على مزاولة العلوم بينما المسيحية لم تنجب فلكيا واحدا بعد مضي ١٦ قرنا عليها !! » وايد دوليبر هذه الرواية فقال « ان عدد الباحثين من اليونان لم يتجاوز الاثنين او الثلاثة وبعكس ذلك عند العرب فانهم كانوا كثيرين كما انه لم يوجد من بين الاول شخص واحد نبغ في علم الكيميا بينما كانوا يعدون بالمآت عند العرب »

ومن غرائب المخترعات التي توفق اليها المسلمون الميزان المتحرك بالماء الذي وجدنا وصفه بكتاب الفلكي ابن يونس (١٠٠٨) وهو ذلك العالم الذي خطا خطوة شاسعة بفن قيس الزمان اذ كان اول من استعمل الرقاص لهذا الغرض العلمي وهو الذي اورد لابلاس ملحوظاته مع اراء البتاني في مذكرته الخامسة بشان نظام الكون

---

(١) سيديو - تاريخ العرب العام - ص ٢٣ .

واما قيس كبر الارض الذي تم على عهد المامون فهو عملية تستدعي لا محالة معرفة دقيقة بشكل الكرة وعلى كل فقد ثبت انه كان بكافة مدارس مسلمي الاندلس كور ارضية بينما كانوا يعلمون الطلبة بالقسطنطينيه وروميه ان الارض مسطحة

ومما يدل ايضا دلالة قطعية على تفوق علماء الشرق على غيرهم في فن تحريك القوى الساعة التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان (٨٠٠٢) فان هذه الآلة الدقيقة تفيد بان العرب كانوا يعرفون ويطبقون قاعدة الارتجاجات اللطيفة تلك القاعدة التي اكتشفها غاليلي بعدهم بثمانية قرون وزيادة على ذلك فان صنيع الخليفة العربي الكبير كان يعرب من الوجتين السياسية والادبية عن نية لطيفة وهي ايجاد علاقات سلمية منتظمة كساعته بين المملكتين حتى يتسنى لهما الاشتراك معا في ترقية الحضارة العامة ولكن شارلمان فضل على صداقة الخليفة المسلم العمل بالاتفاق الذي ابرمه مع البابا فهجم على اخوانه بالاندلس وعامل اعقابه المسلمين بنقيض ما عامل به الرشيد جدهم فاثاروا على الاسلام حروب الصليب

يقولون انه يحتمل ان صانع تلك الساعة كان يجهل القانون المتسبب عنه الاهتزاز لان هذا القانون لم يقع الالمام به بضبط قبل غاليلي وهو زعم لم يثبت ضرورة ان الدكتور برنار بجامعة اكسفورد حقق ان العرب هم الذين اهتدوا الى استعمال الرقاص في الساعات وان فضل الاستفادة من هذا الاختراع الكبير لقيس الزمان لهم لا لسواهم وقد وصف بنيمين دوتودتل الذي زار فلسطين في القرن الثاني عشر ساعة جامعة دمشق المشهورة كما تعرض م قوند لرجل يدعى ابا عبد الله بن الركام (من غرناطة ١٣١٠) كان لا نظير له في فن تسخير القوى واشتهر بين قومه باختراعه لجداول فلكية متقنة وساعات محكمة للغاية

على ان اهم المخطوطات العربية تلفت او انعدمت بالنار ولم يبق لدينا الا اسماء ما ذكر منها بالكتب التي نجت من طوارق الزمان ولكن ما ضمه كتاب الخازن

في علم النور من الفوائد بين دفتيه يكفي لتصور قيمة المؤلفات التي اضمحلت فقد عدة م شاسل الركن الاساسي لمعلوماتنا في هذا الفن وعلى كل فقد استفاد منه كبلير لا محاله في ابحاثه عن رسم الاشياء كما تراها العين

ولربما لم تكف بياناتي هذه وان كانت مدعمة بالادلة لحمل بعض المتشككين من القراء على التصديق بان الاكتشافات تلك اهميتها العلمية ظهرت على ايدي علماء ينتسبون لاجناس منحطة كما يقولون ولذا رايت من المناسب ان انقل على وجه الاسناد المختصر التفصيلي الذي افرده درابير لكتابين لعالم الاسلام الشهير ابي علي الحسن الخازن (١٠٣٨) ترجما للاتينية قال درابيرد :

« ان الخازن الذي ترجمت تآليفه في علم النور الى اللاتينية هو اول من اصلح خطا اليونان بخصوص طبيعة الرؤية بالاستدلال على ان اشعة النور تنبعث من الاشياء الخارجية الى العين لا منها الى الاشياء الخارجية ولم يكن شرحه لحوادث الرؤية مبنيا على الفرض او التخمين بل على ابحاث تشريحية وهندسية جدية فانه شرح بمهارة كيف نرى الاشياء بعينينا بسيطة بموجب تكوين الصور بالجهات المعتدلة من شبكة العين وهو اثر من مآثر الخازن لا يقل اعتبارا في نظر العالم العصري بتركيب الحيوان من اكتشاف قوس داخل الاهرام في نظر المهندس المعماري كما اظهر الخازن انه حاسة البصر لم تخلق لتكون لنا دليلا امينا في الحياة واننا معرضون لضلالات كثيرة ناشئة عن انعكاس او انحراف اشعة النور ومن مباحثه الفنية في احدى تينك المسالتين الخاصتين بعلم الطبيعة يظهر لنا ما كان له من علو الكعب في العلم على الاطلاق فقد استند الى قاعدة تناقص ثقل الجو النسبي مع الارتفاع ليثبت ان اشعة النور التي تقع بانحراف على الجو تتبع خطا مستديرا تكون جوفه متجهة نحو الارض كما فسر بمهارة ما نقع فيه من الغرور بان نرى النجوم والشمس والقمر قبل طلوعها وبعد نزولها والحال ان الواقع خلاف

ذلك ثم انه استنتج من انعكاس الشمس على الجو نظرية الشفق الجميلة التي بقيت صحيحة الى هذا اليوم وهو ايضا الذي طبق بحذق زائد عين تلك القواعد على تحديد ارتفاع الجو فقدره بنحو مائة ميل

فهل يجسر بعد هذا على مقايسة هذه النتائج العظيمة بمعجزات كهنة اوروبا وفلسفتهم السخيفة ؟ ان نتائج كتلك لو ظهرت في ايامنا وعرضت لاول مرة على عقل علمي لاثرت في اعضائه ايما تاثير على ان ما عددناه للخازن من الاعمال ربما لم يكن هي التي اكسبته ما ناله من الفخر بين الانام فان كتابه المعروف (بميزان الحكمة) الذي ترجمه خانيكوف يدل ايضا على فهم نادر لقواعد علم تسيير القوى فقد عثرنا به على بيان واضح عما بين ضغط الجو وثقله النسبي من العلاقة الامر الذي يحمل على الاعتقاد بان ثقل الهواء كان معروفا قبل اكتشاف طوريشلي له كما عرف الخازن بان وزن الجرم النسبي يختلف باختلاف ثقل المحيط به وان نقصان ثقل ذلك الجرم يزداد بقدر ثقل الهواء النسبي وقد تامل ايضا في الدفع الذي يقع على الاجرام المغموسة في موايع اثقل منها وبحث في مسالة الاجرام الطافئة والمراكب وذلك زيادة عن معرفته لمسالة مركز الثقل واستخدامها في الميزان والقبان وعن اثباته للعلاقة بين نقطة الثقل ومركز التعليق في حالتي وقوف وتحرك تلك الآلات

ومما كان له من الاراء الصائبة في الجاذبية الجدرانية فقد استنبط طريقة محكمة لصنع مقياس المياه على ان اساليب تحديد ثقل الاجرام النسبي كما وصفها لنا الخازن تشابه كثيرا الاساليب المستعملة اليوم

وربما كانت ارقى من اساليب القرن الماضي فيما يخص الزئبق وبالرغم عن السبعة قرون التي تحول بيننا وبينه فانه يسوغ لعلماء تركيب الحيوان المعاصرين لنا ان يعدوه زميلا لهم لانه سبقهم بزمن ليس بالقصير بقبول فكرة تطور حياة الحيوان تدريجا وبالدفاع عنها بحكمة واقدام » (١)

---

(١) درابير ـ تاريخ حضارة العرب ج ٢ ص ٣٢٦

على ان الخازن لم يكن العالم المسلم الوحيد الذي تشرفت به محافل العرفان فقد عددنا اسماء كثيرين لم يكونوا اقل منه شهرة وها نحن سنختم هذا الباب بنشر قائمة تصانيف ابن سيناء فهي تكفينا دليلا في آن واحد على سعة علم وحرية فكر هذا العالم الجليل وعلى الدرجة التي بلغت اليها مدارك المسلمين في تلك العصور :

قائدة العلوم ـ الصحة والادوية ـ قانون الطب ـ ارصاد فلكية ـ الخطـوط المرسومة على الكرة ـ مختصر اقليدس ـ المحدود وما لا حد له ـ الطبيعة واللاهوت ـ تاريخ الحيوان ـ دائرة معارف في ٢٠ جزءا

تلك كانت باختصار ابهة العالم الاسلامي الفكرية وهذا الدور الذي اشرقت فيه شمس الفنون والعلوم على الخلائق واضاءتهم بنورها الوضاح كان ايضا عهد عظمة الاسلام الادبية

* * *

بينما كان ميدان الفنون والعلوم يزداد اتساعا ورونقا بسبب الاختراعات الجديدة كانت الاخلاق ايضا تتهذب وتلين بفضل الانظمة السياسية الدينية التى كانت ثمرة مجهودات رجال الفقه والدين التي لم تزل الى هذا اليوم الركن المتين الذي ترتكز عليه انظمة العالم الاسلامي الاجتماعية

ان العرب استعاروا في اول الامر جانبا من القوانين الرومـانية ولكنهم افرغوها بحذق نادر في قالب الشريعة الاسلامية وقد استفاد منها كل من سانت لويز ونابليون حين كانا يدونان قوانين بلادهما

وقال النبي عليه السلام متحدثا عن رسالته : « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وقد اعقبه خلفاء وعلماء في الدين كانوا بما اتصفوا به من الشعور بالواجب والمواهب النفسية العالية نعم الخلف لذلك الرسول الكريم اذ كانت ثمرة اعمالهم الصالحة تهذيب الاخلاق وتحقيق سعادة العباد وكان لعملهم هذا النصيب الاوفر في بـلوغ

هذه الامنية حتى قيل انه كان كالتاج لبقية اصناف الرقي الاخرى وهذا طبيعي اذ لا يخفى ان غالب علماء الاسلام كانوا يعيشون عيشة الصالحين رداؤهم القناعة ولذتهم فعل البر وغايتهم نشر العلم بين الناس وهذه حياة الفارابي معروفة عند الجميع فان هذا الفيلسوف التركي الجليل الذي ظهر في القرن العاشر لم يذع صيته لفكره وسعة معلوماته فقط بل لانه كان عاملا وذا همة قعساء وعلى شاكلته كان نبلاء القوم فقد برهنوا باعمالهم على ان مكارم الاخلاق هي اساس الحضارة الحقة واعانوا الخلفاء العظام بما امتازوا به من فضيلة وعزة نفس على بلوغ ارقى درجة في الابهة والكمال

وقال فياردو « ان المدنية العالية التي بلغوا اليها قد اتت بثمارها الطبيعية ذلك ان العرب لم يمتازوا عن سواهم برقيهم ودماثة اخلاقهم اكثر مما امتازوا به عنهم باقبالهم على طلب العلم واتساع معارفهم فان العاطفة البشرية والتسامح اللذين اظهروها نحو الامم التي غلبوها وابقوا لها بسخاء املاكها وشعائرها وقوانينها وغالب حقوقها المدنية لهما برهان ساطع على ذلك يؤيده كل تاريخهم المجيد » (١) وزاد على ذلك سيديو فقال « ان العرب من الوجهات الادبية والعلمية والصناعية فاقوا المسيحيين جدا فان الكرم وصدق العهد والجود تلك الاخلاق والسجايا التي فطروا عليها لم تكن موجودة عند غيرهم زيادة عما انفردوا به دائما بين الاقوام من الحمية والاباء »

---

(١) فياردو ـ حضارة العرب .

الانحطاط واسبابه

رب معترض يقول ان الاسلام الذي ينصح بالتسامح واحترام النظامات القديمة وطلب العلم والذي اعان على ظهور النهضة الاروبية لم يزل دين الدولة وعليه فلم لم يعد منشطا على رقي بنيه ؟

ان اسباب ذلك كثيرة ساقتصر على سرد اهمها فاقول : اننا راينا كيف اضمحلت مدنية مسلمي الاندلس الباهرة مع جميع مكتسبات البشر العقلية وان هذا الحادث كان نتيجة الاستئصال المقصود لا الانحطاط وسببه الوحيد هي نزعة الكنيسة الرجعية وما فطر عليه ملوك النصارى من حب التخريب الذي قواه في نفوسهم الحقد الديني وداعي النهب والعسف ولكن لا ننسى العاملين الاخرين اللذين اعانا الاعداء الاجانب على نيل مبتغاهم وهما الشقاق والتنافر اللذان تاصلا بين عرب الجزيرة وبربرها واما انحطاط الشرق فله اسباب خاصة به سنبينها فيما بعد.

لا يخفى ان العالم الاسلامي هوجم بجيوش الصليبيين وبيزانس من جهة ومن اخرى بعساكر محمود الغزنوي وهولاكو خان وذلك في الوقت الذي شعشعت فيه على تلك الربوع شمس العلم والعرفان فافضت تلك الغزوات التي توالت على هاتيك الممالك مدة قرنين الى قلبها والى سد مسالك الرقي في وجوه ساكنيها كما ادت الى نظير ما جاءت به هجمات الامم المتوحشة على الرومان من تعطيل مدنيتهم اولا ثم القضاء عليها فيما بعد.

ومن المعلوم انه يعسر على العلم والفن ان ينموا وينتشرا بين اقوام يتقاتلون بلا انفكاك لان الانسان ينقاد في حالة الاضطراب والعمل الشديدين لاحساسه لا لعقله وهذا ما حصل في تلك الازمان المظلمة فان حب البقاء الغريزي في نفس

البشر الذي تكلمنا عنه آنفا تغلب على ميله للتعمير وفعل البر وتحول نشاطه الى الحروب الدفاعية وانصرف همه الى الفنون العسكرية والصنائع التابعة لها فانعدمت لذلك الشروط اللازمة لكل رقي اعني الامن وقرار السلم والحالة الاجتماعية .

ان العقل البشري لا ياتي بثمرة ما لم تتوفر له الراحة والطمانينة ومن المسلم انهم لم يكرسوا عبثا قمة جبل برناس على عرائس الافكار اللواتي لا تطقن احتمال المصايب والضجيج وليس احد يجهل ان سني السلم والهناء المستمرة التي تمتعت بها ردحا من الزمن قرطبة وغرناطة وبغداد هي التي كانت ايضا ايام عظمة وفخر تلك المدن الشهيرة .

ومن ذلك العهد لم ترفرف اجنحة السلم الحقيقي على ربوع الشرق على ان اوروبا لم تكن تجهل تلك الجزئيات النفسية ولذلك فهي لم تدع ابدا العالم الاسلامي في راحة وهناء حتى ان بطرس الاكبر اشار عليهم في وصيته المعروفة بمناوشة تركيا مرة في كل عشرين عاما على الاقل وهم فعلا لم يتركوها مستريحة لحد ما من عناء الحروب الا في عهد السلطان عبد الحميد الذي لم يعبثوا به لما عرفوا عنه من شدة معاداته للرقي

ولا يخفى ان الحروب التي اشتعلت نارها بالشرق عقبها الفقر واضطراب الامن واختلال حق التملك ضرورة ان المدن المهاجمة كانت معرضة للنهب والفي ومن المعلوم ان الفساد والفقر يعملان في الحياة الاجتماعية ما تعمله الامراض والالآم في حياة الفرد وان حق التملك كان من اهم قواعد الهيكل الاجتماعي الشرقي اذ هو الذي اعان على ظهور الطبقات الميسورة المستقلة المستعدة سواء لطلب العلم او لاسعاف المعوزين من العلماء وقد نكبت هذه الطبقات بسبب تلك الحروب نكبات مؤلمة في ارزاقها اكثر منه في رجالها فسادمن اجل ذلك الاحتياج وانتشرت العيوب وكثر الجهل بين الناس وهذا الامر كما لاحظه ادمون هابوليس الا صورة من صور البؤس .

ومن المسلم ان الفقر والهمجية لا يلدان ابداً جواً صالحاً للرقي ـ وكذلك كانت نتائج تلك الحروب من الوجهة الادبية وخيمة على المسلمين وقد راينا مما سبق الكلام عنه ان امراء المسلمين كانوا في البداية ارقى من عصورهم من حيث العلم والفضل ولكن خلائفهم اشتغلوا عن العلم بالدفاع عن اوطانهم فانصرفوا بكليتهم الى الاستعداد للكفاح وتوجيه القوى الاجتماعية نحو تلك الغاية الوحيدة وهذا امر طبيعي فان نابغة كنابليون الذي اشغلته الحروب ايضا عن سواها لم يحفل بفلتون الذي فكر في تسخير البوخار لفائدة الملاحة والسر في ذلك ان هؤلاء الرجال يصيرون بعامل الظروف التي يعيشون فيها اكثر جهلا من متوسطا قوامهم وفعلا فقد زادتهم الحروب تيها وقسوة بحسب الظفر او الهزيمة ولم يمض زمن طويل حتى تفوقت السلطة الزمنية على القوة الروحية وانطمس نبراس العقل

كان عظماء الملوك يجمعون حولهم اكابر القوم الذين هم ايضا نخبة المفكرين في السلطنة ودعائم العرش وقوته الادبية التي يرتكز عليها وقادة الامة التي بهم تهتدي وبامرهم تقلد فكانوا قدوتها والواسطة بينها وبين الامراء يعملون لتعديل جبروتهم وتخفيف طلبات الشعب فينشطونه في ساعات الشدة ويشجعونه على النهوض كما كانت بيوتهم ملاجي لاصحاب القرائح ومنازل مشاعة للقاصدين وخزائن حية لتقاليد الامة وجبلتها الادبية ولكن اولئك العظماء الذين كانوا اركان السلطنة المتينة وكانت لهم الايادي البيضاء في اهم مآثر التاريخ تناقص عددهم من سوء البخت شيئا فشيئا وباتوا في حكم المعدومين

والويل للدولة وللامة اللتين تفقدان ادلاء واركانا من هذا النوع او تنكرانهم اذا هم جاؤا اليها فان ذلك علامة الضعف الادبي الذي حل بها

قال ابو الفرج ان الخليفة المامون كان يعتبر العلماء كذوات اختارهم الله لاكمال العقول فهم اذن مصابيح العالم وهداة البشر وبدونهم لا تلبث الارض ان تعود الى

المسيحية وهذا ما وقع فعلا ضرورة ان توحيد السلطتين الزمنية والروحية في ذات واحدة اقتضى وجود ذلك المعدل وقد فرض التسامح لهذا الغرض وعليه استند العلماء لقمع غضب السلاطين ودرء ما كان ينجم عنه من المصائب العمومية

ان انقراض الطبقة الارسطوقراطية بسبب الحروب اضعف من سوء البخت ذلك النفوذ الادبي كما اضعف بالتبعة الشهامة والجود والبشاشة والظرافة وسلامة الذوق التي تجسمت فيها ومما اعان على ذلك ميل الملوك الغزاة الى الاستبداد وتفضيلهم لقوم نالوا الشرف في ساحات الوغى ولو كانوا جهلة غلاظا على نخبة مستنيرة حرة تعمل لتهذيب الاخلاق ولا يخفى ما لحاشية الملوك من التاثير الحسن او السيء على مصير الامة بحسب الافراد الذين تشتمل عليهم وبما ان الملك هو الذي ينتخب حاشيته فهو في غالب الاوقات المتسبب في انحطاط بلاده وهو المسئول ايضا على ترجيح سياسة العمل بالتقاليد الملائمة لروح الاستبداد والارتجاع ولاريب اذن ان نتيجة فساد الاخلاق الذي حصل عقب تلك الحروب كان احد الاسباب المحزنة المؤدية للانحطاط لان معائب كبار القوم افسدت الامة بالرغم من رفاهيتها الثابتة كما ان رداءة اخلاق ذوي الحل والعقد الشخصية قضت على الاداب السياسية ومما زاد الطين بلة التغالي في القومية والمطامع الشخصية والاحقاد الفردية والتنافس التي ظهرت اثر الحروب فكانت من اشوم آثارها الفتاكة على الامة اذ لم تجد نظاما يقيها شرها لفقدان طبقة النبلاء والعلماء والمستقلين من بين افرادها على ان الحروب لم تجلب معها الفقر فقط بل جلبت ايضا جما غفيرا من الافاقيين وزمرا من الهمج وهؤلاء ولئن احيوا الجنس باختلاط دمائهم بدماء غيرهم وجددوا شبابه الا ان امتزاج اولئك القوم الذين لم يكمل تهذيبهم بالعناصر المتمدنة ادى في الحواضر الراقية الى انحطاط درجة الاخلاق والعرفان

ومن جهة اخرى فان البلاد كانت في قبضة طائفة قليلة من الحشم المهرة

المرتشين المؤيدين من رجال البلاط يستثمرونها لفائدتهم الخاصة دون التفات للغير وكذلك في ايدي جماعة من المتعصبين العسكريين والمدنيين المستندين لطبقة اهل الدين ولما كان الفريقان ارتجاعيين على السواء فقد وقفا عقبة كؤودا في سبيل نهوض الامة السلمي

* * *

ان ما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم في تحقيق وحدة الجنس البشري كان بلا ريب امرا عاليا للغاية لانه كان يرمي الى توحيد الاعتقاد والعبادة واللغة والانظمة وكل شيء مع الخضوع لالاه واحد ولخليفة واحد يجمع في شخصه قوة السلطتين او بعبارة اوجز الى جعل الكون « وطنا للانسان باعتبار البشر ملة واحدة » وقد فكر المامون واشرف الدولة جديا في ادخال هذه الوحدة في ميدان العلوم فاشارا على العلماء بتوحيد مؤلفاتهم و توجيه العناية نحو تسلسل الاشياء و ترتيب كافة المعلومات وانتهاج منهج واحد في اعمالهم المختلفة غايته فوز الحضارة المشاعة بين الجميع

ولكن هذه الوحدة السامية التي امتاز بها الاسلام لم تات في الواقع بنتايج مرضية اذ خابت مساعي المسلمين في سبيل هذه الغاية القصوى الصعبة النوال كما خاب في سبيلها المسيحيون من قبل ولم تستطع احدى الديانتين ايجاد تلك الاخوة العامة التي طالما حلم بها الانسان ولا حتى تبديد الاحقاد المتاصلة بين الاجناس وفعلا فان الانقسامات السياسية ظهرت عند انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى بين اصحابه انفسهم وآل امرها بين اشياع علي رضوان الله عليه ومعاوية الى التقاتل والحال انهم كانوا جميعا من جنس واحد ومن دين واحد كما نشا عن اختلاف المفسرين لآي القرآن الحكيم تعدد المذاهب وتشتت الاراء اذ زيادة على اهل السنة والشيعة العلوية فقد وجدت مشارب متباينة كثيرة وكل

طائفة من هؤلاء ولئن بقيت على دين الاسلام الا ان لها طريقة خاصة بهافي فهمه واقامة العبادات ولم تنفع اللغة العربية وان كانت لغة جميع الممالك الاسلامية الدينية والعلمية لتدعيم تلك الوحدة ولا امكن ان تقوم مقام لغة اي قوم من الاقوام الغير العربية وذلك لتغلب ذكرى ماضي تلك الشعوب السياسي والتاريخي والتقاليد والعوامل المحلية الحاكمة في لسان كل ملة على اللغة العربية

على ان دعاة الشقاق والعصيان لم يستعملوا العربية لبلوغ مآربهم بل كانوا يتخذون اللهجة التي ينفذون بها الى ارواح اشياع الانسلاخ فيبعثون فيها حياة جديدة ولما كانت قوة النظام هي الحافظة للكتلة السياسية فان تزلزل تلك القوة بسبب الحروب افضى الى انتثار حلقات الوحدة الجامعة لتلك الاجناس المختلفة شيئا فشيئا والى تعدد امراء المسلمين بقدر تعدد الاجناس والملل فانحلت رابطتهم وتلاشت وحدتهم واصبحوا غرباء عن بعضهم ان لم يكونوا اعداء - فالامم الخاضعة اذ ذاك لحكم الخلفاء لم تكن اذن واحدة من حيث التركيب بل كانت متألفة من اجناس كثيرة متغايرة متنافرة من وجهتي الاصل والشعائر وبينما كانت الدولة مهتمة بدفع الهجمات الخارجية المتعاقبة كانت تلك الملل تسعى وراء الاستفادة من ضعفها لاسترجاع مناطقها الاصلية وقد شوهدت منها امور مدهشة فان بعض تلك الاقوام استخدموا بلا خجل اعداء الدولة لاقتسام بقايا الخلافة فاضطرت الحكومة تجاه تلك الاخطار لتنقيص تسامحها القديم وحرية الاجتماع والتنقل اي لاتخاذ نفس القيود التي لجأت اليها اكثر الدول حرية كفرنسا وانجلترا اثناء الحرب الاخيرة . ولم يعد الوسط الاجتماعي بسبب نقصان التسامح واختلال النظام صالحا لانتشار العلم وتحقيق غاياته الشريفة اذ الامة التي انهكها الاضطهاد والجور والاحزان وباتت عقول افرادها عاطلة او مرتاعة مما يكنه لها مستقبلها المظلم من الويلات تميل الى حياة اهل الباطن النظرية حيث تجد بلا عناء سلوة

لماحل بها من الكوارث والويلات — ولا يخفى ان الخوف اذا تسلط على المخيلة اوجد ضماير متروعة متغالية في التدين ولذلك ظهرت بالشرق طوائف من المتعصبين وذوي الاعتقادات الباطلة وحتى من الوثنيين الذين لم يستطيعوا التميز بين الحقيقة والاوهام المناقضة للعقل والذين كانت ادلتهم الصبيانية سببة لما ثر جهابذة الاسلام الباهرة على ان العلماء انفسهم انقلبوا في عصر الانحطاط الى طائفة منصرفة الى علوم اللاهوت دون سواها يغلب على افرادها الجهل والكسل والارتجاع فكانت اشد من غيرها بلاء على الهيئة الاجتماعية لاسيما وان وجود تلك الطبقة كان مغايرا للاصول الاسلامية وهذا امر طبيعي لان هؤلاء القوم حجبوا بداعي التوسط بين الخالق والعباد وجه الحقيقة المنعشة عن بقية المخلوقات وكانت اثوابهم التي لم يجسر احد على رفعها لحد الآن كرداء كثيف مسدول على انوارها اللامعة الوضاحة

ان السني متذمر وصلب بالذات وهذه الفكرة الضيقة الرجعية هي التي كان عليها متعصبو المسلمين فانهم كانوا يرون انفسهم مكلفين بمقاومة المرتابين وعقابهم وذلك بالرغم من تحجير القرآن التداخل في آثام الغير ومن حسن البخت ان الغضب والاحقاد في الشرق لم تنته بحرق المغضوب عليهم بالنار وانما كانت قاصرة على صب اللعنة على المتقاعسين عن اداء فروض الدين ولكنهم مع ذلك لم يقوموا بواجبهم لسكوتهم عمن تهاونوا بالاوامر القاضية بالتعليم وان كانت في نظر الشارع اهم بكثير من الصلوات ولكن كيف يستغرب من موقف اولئك المتصوفين كما يسميهم العوام الذين كانوا دائما محل سخرية الشعراء وهدفا لانتقاداتهم المرة ؟

ان تكالب هؤلاء الناس على السلطة هو الذي ادام الى مداراة الملوك واطراء اميالهم نحو الاستبداد والاتفاق معهم على ابقاء الامة على حالتها وادامة حكم الاطلاق فيها فالخلفاء والسلاطين الذين كانوا يخشون العزل بفتوة من العلماء إذا

وارتكبوا ما يوجبه من الغلطات ظنوا ان كل شيء يغتفر لهم متى ارضوا مطامع تلك الطبقة ونفورها الممل من دراسة العلوم المعقولة والفلسفة على الخصوص كما ان العلماء الذين لم تكن بايديهم قوة مجالس التفتيش التي انفرد بها احبار النصرانية رأوا من مصلحتهم تاييد الملوك واستخدام نفوذهم وجبروتهم لفائدتهم الشخصية فعقب التسامح عصر رعب ونفاق تكاثفت فيه ظلمات الجهل وانطفى نبراس الرقي الادبي الذي جاء به الاسلام لتحريف التعاليم العالية التي اوردت شيئا منها عمدا وعدم تجاسر الناس على المطالبة باتباعها والعمل بمقتضاها

ان الامة كما قال سيسرون تطيع مدة الحروب ولكنها تنام في زمن السلم ولذا فان المسلم ذلك الموظف المتطوع الذي انتزع منه النظام العسكري كل اقدام على العمل انفك عن القيام بواجباته الاجتماعية والسياسية لان الواجب كما عبر عنه اوغوست كونت هو الوظيفة التي يقوم بها العضو المختار والملة التي ليست لها حرية تكون فاقدة للصفة الرجولية ولم تعد لها ارادة حقيقية ولا قدرة على اداء الواجبات ضرورة ان تربيتها خالية عن غاية معينة وبالتالي عن قوتها ولهذا فلم ينج المسلمون من عوامل هذه النواميس القاهرة ولما كان داعي الاقدام على العمل يتعطل بعدم التمرن فان الغاية الكبرى التي سعى اليها الاسلام بما خلد له الفخر من القرن الحادي عشر تلاشت ونسي اوتناسى المسلمون مشاريع ابائهم الباهرة وانطفت جمرة النشاط والحزم التي كانت تتقد في افئدتهم

ولما خرت سلطنة الرومان بموجب انتصارات الامم الشمالية المتوحشة اضمحلت معها المدنية تماما وبقي الغرب غارقا في ظلمات الجهل الى ان ظهر العرب على ميدان التاريخ وقد تكرر هذا الحادث لما هاجم الصليبيون بلاد الشرق فان الفنون والعلوم هاجرتها الى بلخ وسمرقند وتضاءل نور مدرسة بغداد شيئا فشيئا ولكن بالرغم من الحروب والثورات الشديدة التي توالت على الشرق وبالرغم من الفوضى الدموية التي قاسى اهوالها مرارا فان نور المدنية لم ينطفئ تماما ولم يقف داعي

العالم الذي كان يحرك المسلمين بفضل نفر من الامراء والسلاطين عشاق الاداب المستنيرين الذين بذلوا عنايتهم لاستعادة ما كان للعالم الاسلامي من ابهة وجلال وساعدوا العلماء المتفرقين في انحاء البلاد ونشطوهم على استكمال ابحاثهم بمشاركتهم فيها بانفسهم ولكن الظروف لم تسمح بتجديد سير العلم الذي توقف بتاثير تلك الحوادث المؤلمة على اساس متين فانطفى مصباح العقل وانحطت المدنية لفقدان فئة صالحة لكل مظاهر العرفان

نعم ظهر فيما بعد بتركيا في عهد السلطانين محمد الفاتح وسليمان القانوني سعي في الاصلاح وتحرير العقول شيئا ما انتهى بفضل جهود نفر من العلماء باصدار ارادات مشهورة غير ان هذه اليقظة لم تطل كذلك وسناتي في الوقت والمكان المناسبين على اسباب هذا الاخفاق مع الاعتراف من الآن كما توجبه علي الحقيقة بان القرآن الذي ساعد لحد ما على تشييد عظمة الاسلام لم يكن السبب في انحطاطه



ما اخذ الغرب عن الشرق

كنت اود ان اناول قلمي للخوض في هذا الموضوع كاتبا اجنبيا ذا مكانة ادبية كبرى واقتصر على تلخيص اجاته في الغرض لان نسبتي يقظة الغرب وتنظيمه لتاثير العالم الاسلامي ستحملهم قطعا على رمي بالمبالغة والانحياز لجانب المسلمين مع انه يكفي للمنتقد البصير ان ينظر بين حالة المدن الاوروبية العقلية والاجتماعية قبل الحروب الصليبية وبين الميول التي ظهرت فيها فيما بعد والنهضة الفنية التي كانت تتنازعها اذ ذاك ليدرك اهمية فوائد تلك الغزوات وفعلها في النفوس

ان لدي الآن بعض كتب قيمة تخص مدنية المسلمين وتاثيرها على اوروبا في وجوه شتى ولكني لا اعرف تاليفا مفصلا شاملا لكل حركة ذلك العصر تعرض صاحبه لانعكاسها في الخارج وكذا لعلاقتها بالنهضة الغربية اذ لا يخفى ان اوروبا المسيحية تمتنع دائما من الاقرار بما تدين به لمدنية المسلمين وهي لهذا السبب ارخت بداية هذه النهضة من دخول الاتراك الى الآستانة العلية (١٤٥٣) لانها ترى ان التجدد الاوروبي حصل بتاثير الرهبان اليونانيين الذين فروا من الآستانة حاملين معهم كنوز اليونان الاقدمين الادبية والعلمية وان اوروبا مدينة بالتالي برقيها للتآليف العتيقة لا لكتب العرب بحيث ان الخدمات التي قام بها الترك عن غير قصد تنحصر في كونهم ايقظوا اولئك الرهبان من خودهم العميق وان كل ما اوجدته القرون الوسطى محتقر معاب بكونه بربريا وغوطيا لانهم يزعمون ان البشر نام من يوم اضمحلال العالم الروماني واخذ ينتعش بعد ذلك العهد وهي طريقة لنكران تاثير المسلمين على المدنية الغربية

يقول النصارى « لا نجاة خارج الكنيسة » ولهم ان يدعوا ايضا ان لا فن

خارجها ولا علم بالرغم من كونها عجزت من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر عن ايجاد اي شيء وبالرغم من كون الفن المعبر عنه بالمسيحي الخاضع لاحكام الكهنوت نزل الى آخر درجات التقهقر ولكن الذي يدعو للاستغراب هو ان نرى مؤلفا من علية الكتاب مثل ليتري يقول «اي اهمية نعلقها على دخول كتب العلم العربي الى اوروبا واي شيء خاص استفدناه منها ؟ ان تلك الكتب وذلك العلم ليست الا علم وكتب اليونان اذ تسنى للقرون الوسطى بهذه الطريقة المنحرفة ان تستقي ثانية من ينابيع العلم عينها ومن ينابيع العلم ليس الا لان العرب لم يقدروا على هضم اداب اليونان وفنونهم المستظرفة ثم جاء فتح الآستانة وفرار ادباء اليونان بكتبهم » (١)

ومما يؤسف له ان ليتري هذا وان كان متعصبا للطائفة المثبتة فانه لم يهتد اثناء بحثه عن الحقيقة لتسلسل الحوادث العامة وتغافل عن الطريقة التاريخية التي لا تبيح الاستنتاج من وقائع منفردة مع ان المسلمين لم يكونوا مجرد مقلدين لليونان والقول بانهم اقتصروا على تقليد الاغريق يقضي برمي صاحبه ليس بالجهل والغلط فقط بل وبالتحامل ايضا اذ بينا في الباب السالف اهلية علماء المسلمين وارباب الفن منهم للعلم والآداب والفنون المستظرفة تاركين استخلاص النتيجة للقراء على ان حكم سيديو المنصف الذي ننقله هنا قد جاء مؤيدا لما قررناه قبل اذ قال « ان العرب لم يكتفوا بما اكتسبوه من ابحاث علماء اثينة والاسكندرية بل انهم كملوا تلك المعلومات واضافوا اليها مكتشفاتهم الخاصة فكانوا بعملهم هذا كحلقة السلسلة بين اليونان والعصريين اذ فاقوا الاولين ومهدوا لهؤلاء السبيل لترقيات اخرى ولم يعد مقبولا الادعاء بان مزية العرب الوحيدة علينا هي احتفاظهم ببقايا علم اليونان لان اسماء الباتاني وابي الوفاء وابن يونس وغيرهم من العلماء قرنت باكتشافات مهمة

(١) ليتري ـ بحث في القرون الوسطى ـ مقدمة ص ٢٧

جدا واما مدرسة بغداد فانها تركت آثارا لا تنكر اذ بقيت مدة سبعة قرون في طالعة المدنية وملئت بضيائها الفراغ العظيم الفاصل بين مدارس اثينة والاسكندرية والمدارس العصرية » (١)

وقد يتضح لمن يدرس التاريخ بعين الانصاف ان القرون الوسطى لم تكن عصرا عديم الفائدة والثمرة بل كانت من القرن السابع زمن رقي ظهرت فيه انقلابات هامة الفضل فيها بلا شك للمسلمين

ان التقدم العقلي بالغرب ابتدا في الجنوب وعلى الخصوص بايطاليا من القرن التاسع مستمدا قوته من قرطبة وصقلية اللتين كانتا من القرن السابع مركزين للاداب والفنون والعلوم يضيء نورها جميع ساحل البحر المتوسط من نابلي الى فنيزيا وذلك ايام كانت جزيرة الاندلس باكملها تقريبا تحت سلطان المسلمين كالجزر الكبرى المعروفة بماجورك ومينورك وكورسيكه ومالطة وصقلية وكذلك بعض المواقع الكائنة على شواطي ايطاليا مثل ترانت وبرانديزي التي تمكن العرب بفضل احتلالهم لها من الوصول الى روميا واكرهوا البابا على دفع الجزية وهكذا عاد حوض البحر المتوسط الذي كان مقرا لحضارة اليونان بتفوقه القديم وسادت فكرته من جديد على بقية الاقوام وما ذلك الا لان تاثير المسلمين كان عظيما وعلى الاخص بصقليا حيث كانت لهم حضارة لا تقل ابهة وبهاء عن حضارة قرطبة وانحصرت فيهم الطبقات العالية من مفكرين وارباب مصانع وغيرهم

نعم ان العرب اضاعوا سلطانهم السياسي على تلك الديار عند ما فتحها روجي ولكن عملهم التمديني امتد الى بعد طردهم من تلك البلاد وكان جميع ملوك الجزيرتين - صقلية وسردينيا - من روجي وغليوم الثاني الى فريدريك يتكلمون العربية ويستفيدون من معلومات وافكار المسلمين الذين بقوا هناك كما كان يتعلمها كثير من

---

(١) سيديو - تاريخ العرب - ذيل الجزء الثاني

اليهود والنصارى ضرورة انها كانت اللسان العام بجميع الجزر حتى ان نساء النصارى واليهود اتخذنها لغة كما اتخذن حجاب المسلمات ومما حكاه المؤرخ ابن واصل ان كثيرا من الصليبيين كانوا يتكلمون العربية ومن بينهم سيدا فرنسيا يدعى برناردو شاتلو كان يحسنها ويعرف آدابها

فهل يظن ان لمعان هذا المنار العظيم الذي كان يضيء طرفي اوروبا الجنوبية لم يترك اثرا منيرا وان قطاع البحار العرب الذين كانت لهم علائق تجارية مع اهالي جميع شواطي حوض البحر المتوسط لم تكن لهم مشاركة في الحركة الفكرية التي ظهرت بين سكان السواحل وان بلاط الملك فريدريك بباليرمو والكلية التي اقامها بنابلي لم يكن لها تاثير ما على عقول رجال نخبة ايطاليا ؟ على انه من المسلم ان حضارة مسلمي إسبانيا العلمية كان لها نصيب في ايقاظ الاوروبيين من جمودهم قبل الحروب الصليبية حيث قلدوهم في بعض تاسيساتهم واخذوا عنها شيئا من اساليب فنونها الصناعية ومن ذلك الوقت اخذت نخبة الغربيين تظهر ميلها نحو الرقي ذلك ان مسلمي اسبانيا لم يعيشوا عيشة الرحالة والشرد بل سكنوا تلك الديار لا تحت الخيام وانما اقاموا بها في بيوت جميلة وما قصر فرساي الذي اثقل لويز الرابع عشر ببنائه كاهل فرنسا بالديون الا نكتة عظيمة بالنسبة الى الحمراء بغرناطة والمساجد الفاخرة التي شيدها عبد الرحمان بعاصمة بلاده اذ لا يخفى ان مدن اسبانيا كانت يومئذ مراكز حياة انيقة يؤمها جميع نبلاء الممالك الغربية سواء للزيارة او للتمريض او لاقتناء التحف الفنية الثمينة وكانوا يشاركون العرب في ولوعهم بالخيل والصيد حتى اصبحت تربية البيزان والصيد بالاسلاق من اعز العاب اشراف القوم بفرنسا وانكلتيرا وكان لملوك بريطانيا روابط ودية جدا مع امراء المسلمين باسبانيا وقد اعجب طبعا اولئك الزوار بالابنية البديعة التي ازدانت بها تلك البلاد كما لاحظوا غزارة ثروة ورفاهية مدنها والجهات المجاورة لها وكانت

الغرب قا يستعمل حراير طليطلة واسلحتها المشهورة وكـذا اقمشة قرطبة وجلودها النفيسة ومما ينقل عن مؤرخي الاكليروس ان عوائد المشـارقة وحتى عقايدهم نفذت الى مدينة تولوز الكبيرة وانه كان لاميرها حرم كالمسلمين وانه كان يساعد المرتدين حتى قال بعضهم وهو ميلس ان امير برسلونه لمـا ارتقى عرش بروفانس عام ١٠٨٨ وجـد رعاياه متهيئين لقبول مبـادي الذوق والظرافة التي اقتبسها من عرب اسبانيا ولم تكن هذه البلاد مشهورة بهندستها المعارية وبضائعها فقط بل نالت شهرتها ايضا بنظامها الاجتماعي وتسامح اهلها الواسع الذي لم تضاهها فيه لحد الآن كثير من المالك الاروبية ذلك لان الحرية والرفاهية اللتين بسطتا اجنحتها عليها والحضارة التي ازدهت بها كانت تابعة فعلا للنظام الاجتماعي والادبي القائم بها فاليهود والنصارى كانوا يعيشون هنـاك احرارا محافظين على عقـائدهم وتاسيساتهم الدينية وكذلك اهالي البلاد القدمـاء فانهم لم يضطهدوا ولا استعبدو او اكرهوا على نبذ دينهم بل ان الحرية بلغت هناك درجة حتى ان اليهود الذين ذاقوا باوروبا من التعذيب والاضطهاد اصنافا جاؤا افواجا افواجا الى ديار الخليفة مطمئنين اذ تسنى لاهالي تلك البلاد المغلوبين بفضل تسامح الحكومة الأسلامية ولين ادارتها ليس فقط ان يبتنوا لانفسهم الكنائس والمعابد بل وان يعقدوا المؤتمرات ومن اهم هذه الاجتماعات مؤتمر اشبيليا وطليطلة واما المؤتمر الذي اجتمع بقرطبة عام ٨٥٢ فأنه التأم بطلب من الخليفة نفسه وذلك لحمل الاساقفة على اتخـاذ قرار بكف الاضطرابات والقلاقل التي اثارها متعصبو النصارى على بعضهم وفي اجتماع طليطلة استقر راي الاحبار على اذاعة هذه النصيحة المستمدة من التسامح الاسلامي وهي «لا يكره احد على نبذ دينه»

هذا ولا يخفى ان خلفاء قرطبة كانوا يعيشون كخلفاء بغداد عيشة النبلاء يتلون الرفق والحنان زيادة على كون غالبهم كانوا من عظماء الرجال عشـاق الرقي

ومؤيديه حتى ان قصورهم كانت مجامع علمية باوسع معنى الكلمة يقصدها اهل الفن والشعراء وقد اشتملت مكتبة الحكم بقرطبة على « ٦٠٠٠٠٠ الف مجلد منها ٤٤ سفراً لاسماء الكتب واسماء مؤلفيها مع انه لم يجمع بكتبخانة الملك بباريز وهي اول مكتبة اسست بفرنسا بعد ذلك التاريخ باربعة قرون حسبما قاله دالور في تاريخه لمدينة باريز رغم المجهودات التي بذلها شارل الحكيم اكثر من « ٩٠٠ مجلد ثلثاها خاص باللاهوت مع ان عدد المكاتب العمومية باسبانيا الاسلامية بلغ ـ ٧٠ مكتبة حتى قال فياردو « انه لم يكن في الامكان ان يوجد مثل هذا العدد بجهات الغرب الاخرى ولو بعد مضي زمن على اشارة نيكولو نيكولي في القرن الخامس عشر على الامير كوسم دو ميدسيس بتاسيس معهد ادبي مثل تلك المعاهد على ان البلدان حافظت على هيأتها السلمية بالرغم من الهجمات التي توالت على الممالك الاسلامية من الخارج وعاش اهلها في راحة وبحبوحة بفضل السكينة واللين اللذين تشبعت بها اخلاق القوم وقد انتهى بهم الامر الى درجة يعسر علينا تصورها لو لم يكن لدينا مقياس نستعين به على فهم الفرق بينهم وبين البلاد الغربية اذ ذاك وهو حالة المجتمعات الاوروبية المتاخرة اليوم

ولا ننسى ان جنوة وفينيز يا كانت لها علائق مع اعرق الآستانة وان اهالي جنوة هم الذين اعانوهم على استرجاع عاصمتهم من اللتينيين فكافئوهم باقطاعهم حارة غالطه وبما ان اليونان كانوا اكثر من بقية الاوروبيين علما سيما الادب فلا ريب في تاثيرهم على ايطاليا من هذه الجهة

* * *

ولكن اليقظة العقلية الحقيقية بالغرب ظهرت بعد رجوع الصليبيين الى ديارهم والفضل في ذلك لاحتكاكهم بالمشارقة فان نصيب الحضارة الشرقية كان عظيما في كافة فروع المعلومات البشرية والنظامات الاجتماعية والسياسية وحتى في بعض الاصلاحات الكنيسية وفي كثير من المشاريع المفيدة

نعم اننا لا نقول ان الصليبيين هم الذين ادخلوا العلوم الشرقية الى الغرب لانهم لم يذهبوا الى القدس لانارة عقولهم او لتثقيف اذهانهم بل ان الخسائر التي الحقوها بالاداب والفنون تتجاوز كثيرا الفخر الذي نالوه بفتوحاتهم الحربية حيث ان غالبهم كانوا يبحثون عن بقايا القديسين اكثر منه عن كتب العلم غير ان وجودهم ببلاد المسلمين جعلهم بالرغم منهم ضمن مدنية راقية ابهرت ابصارهم واخذت بعقولهم ماخذا عظيما فنشا عن اختلاطهم برجال ذوي عقول مستنيرة انتباههم من الخمود الذي كانوا فيه منغمسين فاحسوا بضرورة تمزيق غشاوة الجهل التي اسدلت عليهم وتحسين حالتهم الاجتماعية

وممن ساعد على هذه الحركة نفر من الفتيان النبهاء او من الرجال ذوي المناصب العالية الذين شاركوا في الحروب الصليبية فعادوا الى اوطانهم وقد دخل الريب عقولهم وافتتحت ابصارهم مما كانوا يشاهدون ولما كانت الاعناق مشرابة لمعرفة ما اطلعوا عليه اثناء غربتهم فانهم لم يروا بدا من التحدث بافاضة الى مواطنيهم بما راوه من بدائع الشرق وغرائبه الخلابة وربما مات بعض هؤلاء فيما بعد اوابناؤهم حرقا لرميهم بالزندقة والكفر ولكن خواصهم والجماعات التي عاشوا بين افرادها عرفوا افكارهم وتاثروا بها فاثمرت بذلك بذور الرقي المنقولة من الشرق بطيئا غير انها اثمرت لا محاله ـ

يقول بعضهم ان الصليبيين ارتحلوا الى القدس لقتال المسلمين لا للانتفاع بدروسهم حيث لم يكن لهم الوقت الكافي للتعلم والواقع ان البابوية لم تشهر الحرب المقدسة على الشرق طلبا للسياسة والعلم وربما اندهشت اندهاشا مرا من نتيجتها الغير المنتظرة اكثر من الارتياح لها ومهما كان الامر فلا سبيل للادعاء بان اشراف القوم الذين جابوا اسبانيا والشام لم يروا ولم يتعلموا شيئا من الحركة الكبرى التي شاهدوا مظاهرها مدة مائتي عام لا شهرين او عامين ثم ان القتال لم يكن مستمرا بلا انفكاك

بين الفريقين بل كانت تتخلله متاركات طويلة على ان القول بهذا الراي فيه حط من ذكاء الاوروبيين زيادة على مخالفته للحقيقة والواقع ان الصليبيين لم يشنوا على تلك الاقطار غارة سريعة وانما هم اقاموا بها زمنا طويلا وانشأوا مملكة قاعدتها القدس وتكونت منهم جالية كان افرادها ياتون من اوروبا ويبقون في اتصال متين معها وعلى هذه الحال كان الفرنسيون في الممالك الصغيرة التي اسسوها بتراب السلطنة البزنطية وكان اهل فينيزيا يعقدون الاتفاقات التجارية مع سلطان حلب وحتى مع سلطان قونية للحصول فعلا على جانب من التجارة البرية ـ وعليه فقد كان لسكان شواطي البحر المتوسط علاقات مستمرة ومباشرة مع المواني الاسلامية واي غرابة في ذلك والنورماند اصحاب صقلية لم يقطعوا صلاتهم ببلادهم الاصلية نورماندية مدة قرن ونصف؟ واما امير تولوز الذي كان حاكما على طرابلس الشام واشراف النورماند الذين كانوا قابضين على ادارة مسين وانطاكيا فانهم كانوا يستخدمون غالبا قدماء المتوظفين الاهليين فهل يقال انهم لم يستفيدوا شيئا من الانظمة التي انبنت عليها ادارة تلك البلاد ؟

ولربما اعترض البعض بانهم لم يهتموا بعلم وآداب العرب وانهم كانوا يحترزون منها احترازهم من كل شيء اسلامي ولكن هذا القياس المبني على الاحساس وان ثبت فيما يخص السواد فانه فاسد في جانب نخبة الصليبيين ذلك لان النقود الجميلة والاقمشة الشرقية الفاخرة اعانت جدا كما كتبه ميشلي على اصلاح العلائق بين الصليبيين والعالم الاسلامي ولئن كان تجار اللانقدوك يسافرون الى الشرق وصورة الصليب مرسومة على اكتافهم فانهم كانوا يرتحلون لزيارة سوق عكه اكثر منه للتبرك بقبر المسيح بالقدس وذلك لان فكرة التجارة تغلبت على النفور الديني الى حد حتى ان اسقفي ماقلون ومونبالي كانا يستصنعان نقودا اسلامية يستعملانها بلا خجل مع وجود صورة الهلال عليها في المبادلات والصرف (١)

---

(١) ميشلي ـ تاريخ فرنسا ـ ج ٢ ـ ص ٣١٤

وقال لافيس في الجزء الثالث من تاريخ فرنسا العام « ان اشراف الجالية كانوا يرتدون حللا طويلة ويقضون اوقاتهم بالحمامات وقد ابتنوا مساكن انيقة عهدوا برسمها وتزويقها لارباب الفن الاهليين اذ بمجرد حلولهم بتلك الديار تاثروا في لباسهم وترتيب نزلهم واساليب حياتهم على الخصوص بعامل الوسط الذي وجدوا به وكان بعضهم يتكلمون العربية بغاية السهولة ويستعينون على قضاء امورهم برعاياهم من المسلمين ولم يستنكفوا من منادمتهم وتقريبهم اليهم على ان جميع امراء النصارى وبالخصوص اميري اديس وانطاكية عقدوا محالفات مع امراء المسلمين » والمظنون ان هذه الاسانيد تكفي ليعلم القراء ان الفرنسيين الذين عاشوا بالشام لم يكونوا منعزلين عن المسلمين بعيدين عنهم وانهم بقوا ايضا في اتصال كلي مع اخوانهم بفرنسا يستمدون منهم النجدة والاموال .

ان سان لوين الذي انهزم بمصر اشترى حريته من محاربيه واستحصل منهم كذلك على رخصة في الاقامة بفلسطين مدة عامين (١٢٥٢ - ١٢٥٠) ولا شك ان ساعات العبادة لم تستغرق كل اوقاته وانه وجد فرصا للاستعلام عن انظمة المسلمين السياسية ولقد اقتبس من الشرق بقدر ما سمحت له به قواه - الاصلاحات التي ادخلها على حكومة فرنسا تلك الاصلاحات التي توجت الثمانية عشر عاما الاخيرة من دولته - على انهم وان انكروا تاثير علاقات الصليبيين مباشرة مع المسلمين مدة تربو عن مائتي عام فمن المستحيل ان ينكروا وجود مجمع نشيط للتراجمة بطليطلة تحت اشراف الاسقف ريموند اسس بقصد ترجمة اهم الكتب العلمية العربية الى اللاتينية واشتغل بهذه المامورية مدة ثلاثين سنة اي من ١١٣٠ الى ١١٦٠ وهذه التراجم بالرغم من كونها كانت محفوظة عند الكهنة او مدفونة بالديور كامور منهي عنها او خطرة قد انتشرت بقدر كاف بين الناس وساعدت على تنمية معلومات الغرب الضعيفة وقد انشأ شارلمان خلال القرن التاسع اي قبل تاسيس هذا

المجمع بطليطلة مدرسة بساليرن تولت ترجمة المؤلفات العربية الى اللاتينية وقررت ادخالها في برامج التعليم ولم يكن شارلمان يجهل حضارة الممالك الخاضعة لصولجان عبد الرحمان العادل جارة الاوروبي ولا مدنية سلطنة صديقه هرون الرشيد كما ان انشاء تلك المدرسة واختيار ساليرن لها بدل مدينة باواسط فرنسا لا يخلو من معنى وقد انتهج الفريد الاكبر منهج شارلمان

اما الكتب التي ترجمت وانتشرت بمرور الزمان فانها كشفت للعقول المفتوحة عالما جديدا وبعثت فيها حب التعلم ولم يكن رقي العلوم والفنون بطيئا متاكسنا الا لضعف تيار المنابع التي كان ينبعث منها ولان نيران الحروب لم تنطف كما راينا سابقا وذلك من بداية القرن الحادي عشر على ان الحركة الفكرية استمرت عدة قرون باسبانيا وببعض العواصم الشرقية الكبرى وامتدت منها الى دواخل البلاد ولكننا نكرر القول بان سريانها كان بطيئا لان الكنيسة اجتهدت مدة قرون في اطفاء مواقدها ومراقبة نفوذها ومنع انتشارها ولكن بالرغم من الارهاب والتحريم اللذين كانت تهدد بهما الناس استمر الغرب بصورة عامة على اغتراف المعلومات الفنية والادبية من الكتب العربية حتى ان غالب رجال القرن الثالث عشر المنورين كانوا اما تلامذة لعلماء المسلمين او مقلديهم

وقد اعترف مونتوكلا العلامة الفرنسي الطائر الصيت في الرياضيات «بان العرب بقوا زمنا طويلا حافظي العلم الوحيدين واننا مدينون لهم باشعة النور الاولى التي ازاحت عنا ظلمات القرن الحادي عشر ضرورة ان جميع من احرزوا على شهرة زائدة في الرياضيات في تلك المدة اكتسبوا معلوماتهم من العرب» (١)

وكتب بايي في بعض رسائله الى فولتير «ان امم اوروبا التي شاخت في البربرية لم تتمتع بنور العرفان الا بعد غزوات العرب وقدوم اليونان» وزاد على ذلك

---

(١) ج . مونتوكلا ـ تاريخ الرياضيات ـ ج ١ القسم ٣ من الكتاب الاول

فياردو بقوله « ان المؤلفين الذين صنعوا شيئا في العلوم الصحيحة قبل القرن الخامس عشر اقتصروا على تقليد العرب او على تلقي دروسهم في الاكثر وهذا ما فعل الطلياني ليونار دوبيز والبولوني فيتليو والاسباني لول والانكليزي روجي باكون واخيرا الفرنسي ارنودو فيانوف الخ » وليونار دوبيز هذا كان من كبار علماء الرياضيات وله كتاب في الجبر الذي تعلمه عن العرب وكان ايضا صديقا لفريدريك الثاني

واما رينان فانه اعترف صراحة بان العرب كان الى القرن الرابع عشر مدينا بالعلوم للمسلمين . وكتب ان الممالك الاسلامية انبتت في بحر خمسمائة عام علماء جلة ومفكرين بارعين وان العالم الاسلامي كان في ذلك العهد ارقى علما من العالم المسيحي »

والحقيقة ان علماء الاسلام كانوا الواسطة بين العصور الغابرة و بين النهضة الفكرية ولولاهم لتاخرت هذه عدة قرون كما انه لولا معاكسة الكنيسة الارتجاعية لهذه النهضة لتقدم ظهورها عن تاريخها ايضا بقرون و لان اوروبا التي كانت خاضعة لاحكام الدين المسيحي خضوعا كليا لم تستطع اذ ذاك ان تقوم وحدها بدور مهذبة للانسانية ومما يؤيد ذلك كلمة الكونت ليبري هذه من مقدمة تاريخية العلوم الرياضية » امحوا العرب من التاريخ تتاخر نهضة الاداب الاروبية عدة قرون »

ان الاوروبيين المقبلين على العلم كانوا يجوبون البلاد الاسلامية او يقصدون المدارس التي استعارت تعليمها من الكتب الشرقية فبيير المحترم صديق ايلار وصاحبه اقام زمنا طويلا بقرطبة وتعلم اللغة العربية وترجم القرآن الى اللاتينية وايلار نفسه الذي كان يراسله طلب اليه حين عذب واكره على القاء تآليفه في النار بيده ان يهيأ له مقرا عند الخليفة يلتجي اليه وحكى بيير المحترم هذا انه وجد بالاندلس عند قدومه اليها جما غفيرا من رجال الانكليز اتوا الى تلك الديار لمزاولة العلوم وعلى الخصوص الفلك واكد ميلس ان دانيال

موزلي واديلار دوبارث وروبير دور يونغ وغيرهم من الانكليز الذين برعوا في الرياضيات حصلوا على جميع معلوماتهم بالاندلس فاديلار مثلا وهو اول من ترجم اقليدس من العربية الى اللاتينية تجول باسبانيا ومصر من عام ١١٠٠ الى عام ١١٢٨ وجربير وهو ذلك العالم الكبير الذي رموه بالسحر واوشك ان يسجن لو لم تخدمه الصدف بان ارتقى عرش البابوية تحت اسم سيلفاستر زاول العلوم بالكليات الاسلامية بقرطبة واشبيلية وكان طبعا يحسن العربية وقد اسس برانس مدرسة كان يعلم بها المنطق والفلك والموسيقا ومن هنا حصل الخلاف بينه وبين الرهبان ولكنه لم ينله من ذلك سوء لاحتمائه بهوق كابي ملك فرنسا الذي عينه كبير الاساقفة رانس بدون توقف على رضاء البابا عليه وتصديقه على توظيفه

واما روجي باكون فانه كان يحسن العربية ايضا واكتسب كل علمه من المؤلفات الاسلامية الجامعة وكان كما قال عنه ميشلي يسير في الطريق التي رسمها العرب محاولا بكل قواه النفاذ الى بطن الطبيعة ومما لاحظه ب هوريو في تاريخه للفلسفة ان اسكندر دوهاليس وهنري دوغاند وسان بونفانتور وفانسان دوبوفي كثيرا ما استشهدوا في تآليفهم بالفيلسوفين المسلمين الكندي والفارابي وانهم كانوا يفضلون جدا العرب على اليونان .

ولما حكى هوريو عن عهد سان طوماس باريز تعرض بصورة خاصة لما يدين به علم الغرب للعرب وقال رينان ان البير الكبير اخذ كل شيء عن ابن سينا كما اخذ سان طوماس جميع معلوماته الفلسفية عن ابن رشد على ان البير الكبير هذا الذي اشتهر في علوم اللاهوت والفلسفة وعليه تخرج سان طوماس داكين لم يقف على جميع معلومات مدرسة ارسطو الا بفضل تآليف المسلمين وهو ما استحق به لقب الساحر الذي اعطوه لجربير من قبل « ولا شك ان لب كتاب هذا

الفيلسوف المعروف بتاريخ الحيوان ماخوذ من تصانيف ابن سيناء و من شراح ارسطو العرب » (١)

ان ما تعلمه فلكية الغرب عن الشرق يتجاوز كثيرا حدود ما اعترفوا به في هذا الباب فقد راينا ان كيبلير اخذ من كتاب الخازن المسمى بالاسفار آراءه في انكسار الاشعة في الجو كما اخذ نيوطون ايضا عن العرب اول فكرة في نظام الكون واستفاد من آليتهم حسبما اكده كازري واندربس اكثر مما استفاده في تجاربه الخاصة وقال هذان الكاتبان انه لا يبعد ان محمد بن موسى استكشف حين تحريره لكتبه في حركة الاجرام السموية والجاذبية نظام التوازن الكبير وان العرب اكتشفوا ما يحصل من المغايرات بالقمر في اقصى عرضها بمرصد مراغه باذربيجان قبل تيكو براهي ببضعة قرون وقد راى العلامة لوفرني مثل رايهما اذ قال ان فلكية الغرب سبقوا كوبرنيك وكيبلير في افتراض سير الكواكب على شكل اهليلجي (٢) كما سبقوا النصارى بتحرير التقويم الجلالي الذي تحدثنا عنه آنفا فانموه قبل اصلاح التقويم الغريقوري بستة قرون وربما كانت ارصاد عمر الخيام وعبد الرحمان الخازن صاحبي هذا التقويم اكثر دقة واقرب من سواها الى الصواب

ان تأثير كبار اطباء الشرق على رقي الطب بالمغرب كان عظيما جدا فان فابريس المشرح والجراح الايطالي الشهير كان يقول الى سنة ١٦١٩ ان سالزعند اللاتين وايمات عند اليونان وابا القاسم عند العرب لهم الاركان الثلاثه الذين اقر لهم بالكبير فضل علي وكان هلير يسمي كتاب ابي القاسم اساس الطب العصري المشاع » وقد امتد هذا التأثير الى القرن الثامن عشر اذ كانوا لذلك العهد يشرحون تاليف ابن سيناء بمبالغه على ان اعتبار هولاء الاطباء بفرنسا لم يكن دون ما احرزوا عليه بكلية

---

(١) مذكرة بوهل ج ١٢ — ص ٩٤

(٢) راجع بحث لوفرني بمحضر جلسات المجمع العلمي (١٨٠٤) بخصوص فلكية العرب الذين تقدموا كيبلير

بادو وغيرها من المدارس الايطالية وكان ايضا لاساتذة المسلمين نصيب وافر في شعر وموسيقة وهندسة النهضة الغربية والدليل على ذلك قصايد واغاني القرن التاسع من شعراء الاسبان والرحالة البروفانس والايطاليين فهي كلها كالاغاني الكتلنية القديمة ونشيد رولاند مقلدة عن العربية ومع ذلك فانا نرى بها انعكاسات ارواح حرة لارائحة فيها لعبودية عصر ملوك الطوايف ذلك لان شعراء وسط البلاد الفرنسية وشمالها لم يعتنوا بعد بغير ترجمة الكتب المقدسة شعرا وتمجيد مناقب الاولياء مستثنى من ذلك قصيدة سانت الكسي (١٠٤٠) التي يراها العلامة لاقيس اول نظم وجد لدينا باللهجة الفرنسية . وقال فورييال انه ليس هناك شيء ساعد على ايقاظ سليقة اهل الجنوب الشعرية مثل حروبهم مع العرب ومخالطتهم ايام وان اولئك العرب البسلاء والمغاربة الرهيبين الذين طالما اجتازوا مضائق جبال البرني سرعان ماتسلطوا على مخيلة اهالي نربون وتولوز وبوردو وحازوا بها مكانا اوسع بكثير مما اقروا لهم به في تواريخ الرهبان الجافة

« وانا على يقين من ان للعرب شيئا من التاثير على حضارة الجنوب الادبية » « وان مدنية عرب الجزيرة الاسبانية تشابه في كثير من النقط مشابهة واضحة مدنية أهل الجنوب » . (١)

وقال شاربانتي صراحة في تاريخه لنهضة الآداب الاوروبية « انه يجب الاعتراف بان الشعر العربي هو الام والملهمة المشتركة للشعر الاسباني والجنوبي وان آثار هذا النسب جلية في قصائد الشعراء الرحالة » على ان الوزن الشعري ماخوذ عن العرب لا محالة وهو ما اعترف به الاسقف هوي مربي ولي عهد فرنسا فانه اقر بان العرب علموا المعاصرين فن الوزن الذي كان مجهولا في عهد الرومان واليونان الغابر وذكر كاهن آخر وهو الشماس ماسيو في تاريخه

(١) فورييال : تاريخ الشعر البروفانسي ج ١ – ص ٧ و ٢٦

الشعر الفرنسي . ان الاسبان هم فيما يظن الذين اخذوا قبل غيرهم الوزن عن ضيوفهم العرب » ولا ريب ان الآداب الغربية تأثرت من حيث الروح والشكل بتعاليم العرب تاثيرا عميقا ولكن الكتاب لم يكونوا يعربون عما تمليه عليهم قرائحهم لنهاية القرن الثالث عشر الا على اساوب جماعة الكنيسة وفعلا فان اول يقظة ظهرت في الفن والآداب واول حركة تخليص من القيود القديمة هبت في النفوس حصلت بايطاليا لانتباه المقول بها بسبب ترقي لغتي بروفانس وكاتالونيه اللتين اكتسبتا من استعارات شعراء العرب رقة زائدة وجمالا وبسبب علاقة ايطاليا ايضا بالشرق المتدفق شعرا وفنا ومما حث الايطاليين على الادب وحملهم على الاقبال عليه وجود بلاط الملك فريدريك في قلب تلك الحركة الفكرية على ان هذا الملك وان لم يوجد بنظرة كلويز الرابع عشر شعراء ـ وهو ما لا اسلم ـ الا انه على كل حال هيأ السبيل لدانتي وبيترارك وبوكاس اذ اللغة الايطالية لم تتطور من لهجة اقليمية الى لسان أدبي الا في أيامه وكان فريدريك هذا ينظم الشعر ذاتا باللغة الايطالية ويجمع حوله الشعراء والرحالة الادباء

وكان اولئك الشعراء الثلاثة ميالين للنقد مولعين بالاداب القديمة ولوعا عقليا اعني ان احساساتهم في هذا المعنى كانت مخالفة لتعاليم الكنيسة ولكنها كانت مطابقة لافكار المسلمين .

وقد لخص دانتي ارتيابه في الماضي وما كانت تتوق اليه نفسه من حياة عقلية وعالم جديد في كلمة النهضة (١٣٢١) وكان استاذه برونيتو لنتيني ذلك المترجم الماهر يتكلم العربية جيدا زيادة على تبحره في الفلسفة وهو الذي اعان دانتي على معرفة حركة العالم الاسلامي العلمية ـ على ان تلك المعلومات التي تلقاها من المسلمين بواسطة استاذه اثارت في نفسه عاصفة ادبية تغيرت بسببها روحه وحياته فيئس من السلطة السياسية كما يئس من الكنيسة من قبل

ثم انه لم يكن محبوبا من الشعب بفلورنسا بل اجتمعت ضده الاحقاد والاعداء السياسيون وحكم عليه بالابعاد وبحرق بيته وكتبه ولم يتلق الناس منزلته الآلاهية حين بروزها كتأليف ناطق عن نفس الامة بل انهم عدوها تصنيفا لفتى يا منفردا غريبا وهو امر لم نقف على اسبابه الا بعد الابحاث الدقيقة عن مصادر شعره التي قام بها اولا بلوشي ثم في العهد القريب العالم الاسباني المستعرب ازين بلاسيوز (١)

نعم ان كثيرا من علماء ايطاليا اعترفوا بما للاداب الشرقية من الفضل على نمو الادب الايطالي (٢) ولكن ازين بلاسيوز هو الذي ابان اصل المنزلية الآلاهية سطرا سطرا وهو يرى ان دانتي اقتفى اثر كاتبين شهيرين من كتاب العرب وهما المفكر الكبير محيي الدين ابن العربي وابو العلاء المعري المكنى بفيلسوف شعراء زمانه ـــ القرن الحادي عشر ـــ وذلك لانه قارن بين حكايتها لمعراج النبيء (صلعم) وبين منظومة دانتي ووقف على مشابهات ومجانسات غريبة بين تلك التآليف حتى في الجزئيات وهو ما أداه الى الاستنتاج بان النصيب الوافر في نسج برد تلك المنظومة الفريدة حاكته يد إسلامية

ان دانتي الشاعر المتكلم عنه لم يكن يحسن العربية ولكنه كان يطالع المصنفات العربية العديدة التي ترجمت الى اللاتينية وقد قال فعلا انه قرأها في نسخه البير الكبير وقد بلغ به الولوع بمعرفة كل شيء حتى قال عنه اوزنام انه كان يبحث عن اعتقادات التتر والاسماعيلية وانه كان يميل كثيرا الى الاسلام وإلى مفكري المسلمين . وهو كان كذلك يهتم اهتماما عظيما بتراث الشرق

---

(١) راجع الفصل الممتع الذي كتبه اندري بلوسور بمجلة العالمين عام ١٩٢٠ .

(٢) صحيفة الآداب الايطالية ١٨٩٩ ص ٨٠

التي اخذ الكتاب يتناولونها في تآليفهم وكان احسن ما كتب في هذا الموضوع الكتاب الذي الفه في بداية القرن الرابع عشر اي في عصر دانتي الفيتزي الشهير مارينو سنيتو وهو والحق يقال شاهد صادق على ان صاحبه كان يعرف الشرق معرفة جيدة (١)

ويستفاد من البحث المدقق الذي تولاه ناجيت توفوييتش ان دانتي اقتبس معلوماته من تراجم الكتب العربية وان كثيرا من فقرات كتابه المسمى بالكونفيتو ماخوذ من اصول بعض الفلاسفة المسلمين كان يعرف في القرون الوسطى باني الفرج — الفراقانوس —

ويرى ناردي الذي درس فلسفة دانتي ان آراءه الفلسفية كانت اقرب الى ابن رشد منه الى سان طوماس على ان دانتي وان اقتبس كثيرا من كتب العرب واستمد جانبا من معلوماته من شعراء الشرق الا ان ذلك لا ينقص شيئا من علو كعب صاحب الهزلية الآلاهية بل الامر على خلاف ذلك فان رغبته في معرفة حضارة المسلمين الغريبة عنه وشغفه بالاطلاع على كل ما اولده الفكر البشري لهما دليل على رفعة مواهبه العقلية

ان تأثير العلوم والآداب العربية على عقل دانتي لهو برهان ساطع على اهمية ما اخذه الغرب عن العالم الاسلامي في ذلك العهد وانا سنعلم يوما ما على يد علماء أوروبيين تضلعوا في الآداب الشرقية المصادر العربية لشعر المنشدين الرحالة ولمنظومات سان الكسي ورولاند هذا ولا أطيل الكلام عن الشاعرين الايطاليين الكبيرين الآخرين مقتصرا على القول بان بيترارك تعلم بمونباليي وبذل ثروته للبحث عن المخطوطات وان بوكاس كان يتاجر بنابلي مع العرب ويتكلم لغتهم ويخالط علماءهم وفي ذلك كفاية

---

(١) بلوشي — المصادر الشرقية للهزلية الآلاهية

وقد كان اولئك الشعراء المجيدون الثلاثة كاداة وصل بين القريحة العربية والقريحة اللاتينية اقول عربية لان الشعر الفارسي الذي لا يقل كثرة وغزارة عن العربي لم يكن منتشرا اذ ذاك باوروبا ولان الشاعر الكبير فردوسي وان كان حيا في سنة ۱۰۲۱ الا ان سناء عبقريته لم تصل اشعته الى شواطيء البحر المتوسط الغربية

وقال فياردو « ان دانتي وبترارك و بوكاس اولئك الآباء للنهضة الاوروبية اجمعوا على اعتراف بانهم تلامذة علماء البروفانس ولما كانت هؤلاء تلامذة العرب فالعرب اذن هم الذين فتحوا لاوروبا طريق العلوم والآداب » وقد صدق رينان لما قال ان تاريخ العصور الوسطى الادبي لا يتم الا بعد ان نحصي عما لدينا من المخطوطات التآليف العربية التي كان يطالعها علماء الغرب في القرنين الثالث والرابع عشر

***

لا ريب ان الموسيقى العربية اثرت على الغربيين بواسطة الحجاج والتجار والصليبيين الذين سمعوا ألحانها الشجية وتغنوا بها ايضا وذلك لان الانغام العربية كانت تروق لهم الى درجة حتى ان الرهبان كانوا ينكرون عليهم « إهمال أناشيد الكنيسة واستبدالها باغاني الكفار المدنسة »

وكان القوس العاشر الذي اكتسب علومه المدهشة بمطالعة تآليف العرب يرى للمشارقة نصيبا وافرا في إيجاد الموسيقى العصرية وعلى كل حال فقد اصبح من المعلوم ان ربة الالحان تجلت في جنوب فرنسا وفي ايطاليا على نغمات الموالينات الغرامية العربية الرقيقة وان فتيان الغرب ألفوا التوقيع على العيدان وقد إتذكر أني سمعت بنابلي وبمدريد ألحانا أفاقية دارجة لها مشابهة كبرى بالموسيقى الشرقية على ان طريقة البناء كانت شرقية أيضا وهو ما رآه بوسوي وبلنان فانهما يعتقدان

ان الهندسة المعمارية كلها خرجت من مصر وحتى الهندسة المعبر عنها بالقوطية وكتب فيولي لودوك « ان جميع الامور تدل على ان الرسم البكارى ماخوذ من الشرق وان الهندسة القوطية ما كانت تنمو لولا وجوده » (١) وعلى كل فان هندسة الغرب المعمارية كانت في القرن الحادي عشر على غاية من البساطة والخشونة اذ بينما كانت باريز عبارة عن كتلة اكواخ جاثية على جزر السين وبينما كان ملك انكلترا يسكن صرح لندره الابيض الحقير كانت القاهرة وقرطبة ودمشق وبغداد مزدانة بقصور لا زالت محل إعجاب العالمين

ولما زار أشراف الغرب وأهل الثروة من تجارة المشرق وشاهدوا به تلك المساكن القاخرة أثناء الحروب الصليبية أرادوا عند عودتهم الى اوطانهم ان يبتنوا لانفسهم مثلها فاستعانوا على ذلك بالنجارين والبنائين الذين شاركوا افواجها في تلك الحروب وتأثروا بحكم التقليد الصناعي مما راوه في هاتيك البلدان من عمارات شامخة وبيوت جميلة وحاولوا ان يماثلوها وكانوا زيادة على ذلك يستخدمون نفرا كثيرين من مهندسي العرب الذين كان استقدمهم شارلمان خصيصا لهذا الغرض حتى قال دولور ان مهندسي العرب شاركوا في بناء كنيسة نوتردام — الكنيسة الكبرى — باريس (٢)

على ان المشابهة بين الآثار العربية والآثار الاوروبية في القرون الوسطى لم تكن منحصرة في عمارات العواصم الضخمة بل يمكن ان يتتبعها الانسان حتى في احقر مساكن المدن الصغرى (٣) وربما تعدى الامر ذلك الحد فان جبهار يقول ان تلك المشابهة موجودة حتى في دورات بعض اهالى الجهات الجنوبية لان

---

(١) فيولي لودوك : القاموس المحقق للهندسة ج . ٦ — ص . ٤٤٦

(٢) دولور : تاريخ باريس — ج . ٢ — ص . ٢٥٣

(٣) فياردوت تاريخ تمدن العرب — ص . ١٨٠

العرب الذين ملكوا صقلية قبل النورماند كانوا في عهد فريدريك الثاني يقطنون هنا وهناك جنوب نابلي والجر من ذلك ان بقيت سحنات اهالي نصيرة دي باقني الكائنة بين نابلي وساليرن عربية الى اليوم (١)

* * *

ان استخدام العلم لفائدة الملاحة والصناعة والفلاحة الذى عني به علماء الاسلام اكثر من اعتنائهم ببعض الفنون المستظرفة التافهة افاد الاوروبيين فوائد جمة فعلم رسم الكون مثلا واستعمال بيت الابرة نفعا كثيرا قطاع البحار وسهلا لهم القيام باسفار طويلة كانت مقرونة بالفوز والنجاح وقد ذكرت في بداية هذا التاليف كم كان العرب متقدمين على الاوروبيين في فن الملاحة فان سفنهم التي خرجت من ليسبون عام ١٠٦٥ ارست بالشواطيء الافريقية وزارت بعض الجزر البعيدة بالمحيط الاطلنتيكي الذي كانوا يسمونه بحر الظلمات وقد استفاد منهم كريستوف كولومب واستثمر تجاربهم ولما اراد اجتياز ذلك الطريق في المحيط الاطلنتيكي واكتشف امريكا كانت بايدي ربانة مراكبه خرائط بحرية عربية تعلموا استعمالها في مثل تلك المواقف وقد راى فاسكو دوقامة خريطة من تلك الخرائط واستعملها هو ايضا سنة ١٤٩٧

ولا يجهل احد السبب الذي دعا كريستوف كولومب لاختراق البحار اذ غرضه من ذلك انما كان الوصول الى الهند تلك البلاد العجيبة ذات الكنوز المهولة التى طالما حدث الشره الاوروبيين بالاستيلاء عليها والاغتراف من خيراتها الواسعة الوفيرة وهم بالبحث عن طريق توصلهم اليها دون واسطة المسلمين فازوا بالفائدة التى كانوا يرمون اليها بحيث ان كراهيتهم الاسلام لم تكن عديمة الثمرة بل انتفعوا بها عفوا وهم لا يشعرون

---

(١) ا . جبهارت الحصن الذهبي

وقد نمت التجارة بفضل رقي الملاحة واكتسب منها تجار جنوة وبيزة وفينيسية ثروة طائلة صرفوها بايطاليا في سبيل الاصلاح العام ومن جملة ما تعلمه الصليبيون عن الشرق صنع السكر المستخرج من القصب وكذا نسج الحرير والاقمشة واستعمال ادوات الترف وفنون الملبوس والتاثيث وغيرها من الاشياء المستعملة يوميا كالورق والارقام الخ

ولا شك ان هذه الصنائع المختلفة ادخلت بمرور الاجيال تغييرات مهمة على حياة الامم الاوروبية المنزلية ومما يستحق الاعجاب من هذا الوجه الدور الذي اختصت به الفلاحة فان هذه الصناعة المباركة منبع الخيرات الحقيقية الفياض كانت السبب الاصلي لكل تحسين لانها اعانت على تحرير الغربيين السياسي بقدر ما ساعد علم المسلمين المبني على التجربة على تحريرهم العقلي ذلك ان الفلاحة لم تكن في بداية الحروب الصليبية الا شغلا عاديا بسيطا في حين كانت حالة اهالي البادية على غاية من الشدة والذل حيث لم يكن القروي سوى عبد مسخر نصيبه من هذه الدنيا البؤس والاضطهاد ولكن بمجرد ما اخذ الغرب عن الشرق طرايق جديدة لاستثمار الارض وتربية الحيوان انقلبت اراضيه الموات الى حقول ورياض فتحسنت بذلك حالة الرقيق واستطاعوا بفضل اليسر الذي بسطته عليهم الفلاحة ان يشتروا حريتهم شيئا فشيئا ولم يكن البابا ولا الاشراف يتوقعون البتة حين حرضوا الناس على دخول الحروب الصليبية انها تؤول الى نمو الفلاحة وان رقي هذه الصناعة ينتهي بتحرير الشعب وذلك لان رقي الطبقات المعبر عنها بالمنحطة ابتدأ اولا من الوجهة الاقتصادية اذ بينما كان ضيق الاشراف المالي يتفاقم لفقدان وسايل الكسب التي اعتادوها كالحروب والنهب وتعسر تجددها كانت رفاهية الفلاحين تزداد كل يوم بازدياد محاصيل الزراعة وكان موالي العبيد يظنون ان بيع رسوم العتق عملية رابحة وهذا ما يدلنا على ان الحرية الشخصية

التي منحت للقرويين حصلت بداعي الاحتياج لا بداعي العاطفة البشرية ثم ان الموالي الذين لم يقدروا على شراء حريتهم الفوا نقابات وانضموا الى سكان المدن لمقاومة جور نظام الامتيازات ولم يعد المضطهدون من ذلك اليوم متفرقين بعيدين عن بعضهم بعض بل انهم اقسموا فيما بينهم على التعاون والتوازر

وفي القرن الثاني عشر تعددت رسوم العتق الممنوحة للافراد وللجماعات وابطل حق السادات على املاك الموالي في عدة جهات واخذت العبودية تتناقص تدريجيا وظهرت بايطاليا اولا حركة سياسية كبرى ترمي الى تحرير الافراد وذلك لانها كانت بموجب موقعها الجغرافي اكثر من سواها اطلاعا على انظمة البلاد الاسلامية الادارية وصورة الامر ان فريدريك الثاني الذي تربى على مبادي المسلمين وتغذى بتعاليمهم وكان يقتدي بهم صرف همه في تجديد نظام مملكة صقلية وابوليه على قاعدة الحرية ولم يكن اسلوبه السياسي واحدا في بقية جهات ايطاليا والمانيا بل انه تفضل هناك على امراء الكنيسة والاشراف المكليين بمنح واسعة. وهو سلك هذا المسلك اولا لاستمالة البابا والامراء وثانيا لان سلطنته الشمالية لم تنضج للاصلاح الحر ولذلك كان فريدريك يميل دائما الى الاقامة بصقلية التي خلف فيها النورماند الذين انتزعوها من العرب

وفي سنه ١٢٢٤ اسس فريدريك جامعة نابلي ولكنه في الوقت نفسه اظهر كل رعاية لمدرسة باليرمو الطبية التي كانت تدرس بها جميع علوم ذلك العصر اساتذة مختلفو الملل كثير منهم مسلمون وكان للفلسفة العربية ولشروح العرب على فلاسفة اليونان النصيب الوافر في تنبيه العقول وترغيب الناس في طلب العلم وكان فريدريك هذا مشغوفا بالعلوم الطبيعية فكان يستورد من افريقيا واسبانيا الحيوانات النادرة لدرس حياتها وله تأليف في التشريح وفي تربية طيور الصيد وكان ايضا

يدير بلاط باليرم مجمعا علميا بأتم معنى الكلمة وكانت صقلية الولاية الوحيدة ببلاد النصرانية التي يتسنى فيها للانسان ان يتأمل بدون قلق في حوادث وقوانين العالم الظاهر (١)

وفي الحقيقة ان لفريدريك الثاني فضل السبق على الملوك المعاصرين له فان نظامه المالي كان بديعا جدا كما كانت ادارته مرتبة على غاية الحكمة والسداد على انه اقتصر في هذا العمل على تطبيق التاسيسات الشرقية على مصالح بلاده في ذلك الزمان فكان اول مؤسس لمجلس نيابي باوروبا بوضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف وبتأييد سيطرة القانون على الجميع حتى الاشراف والكهنة وباطلاق الحرية لكافة العقايد كما حرر العبيد الذين كانوا يشتغلون باملاكه واصدر قانونا بالاسعاف العدلي للفقراء فاكسب هذا التقليد الحاذق للانظمة العربية الخاصة بالسياسة والادارة بلاد ايطاليا رونقا زايدا واستمرت الحركة في هذا السبيل رغم غضب الكنيسة التي لم تكن تنظر بعين السرور امتدادها للقارة الاوروبية .

ورغم الصعوبات التي اثارتها ضدها والتعنيف الذي وجهته لانصارها استمرت حركة النهوض وفي النهاية تحرك القرويون وتبعهم اهالي المدن واشتد الهيجان وكان غرض كثير من المدن تشكيل بلديات مستقلة على النمط العربي تدفع عن الاهالي جور ولصوصية الاشراف

ولما عاد ملك انكلتيرة ريشار قلب الاسد الى بلاده من الحروب الصليبية بعد مضي نصف قرن على ذلك التاريخ خجل اشراف حاشيته من انحطاط وطنهم ومن تاخره الكبير تجاه المدن الاسلامية كما احسوا بمعرة جهل وتعصب وغلظة ملكهم بالنسبة للسلاطين فثاروا في وجه الحكومة واضطر جان سان تير ارضاء لهم لامضاء العهد الكبير الذي يعدونه اساس الحريات الانكليزية (١٢١٥) فقام البابا

(١) جبهارت ـ ايطاليا المتمدنة ـ ص ١٧١

لذلك وقعد مصرحا بان ذلك العهد باطل لا قيمة له وانه خزي وعار مهددا الملك بالتكفير ان اقر هذا الامر فاغتاظ الملك جان من هذا السلوك واشعر الخليفة بواسطة مندوب من قبله انه يريد اعتناق الاسلام تخلصا من وصاية الباباوات المنكرة

ومن هنا يعلم القاري ان الحوادث الخارجية كحروب الصليب والعلاقات التجارية مع العرب الخ كانت السبب الاصلي للتطورات السياسية التي حصلت بالمدن ولو انها لم تتم بفرنسا الا بعد حين وعناء لمعاكسة الكنيسة لها واقامتها العقبات في طريق كل اصلاح وتغيير

ان عهد سان لويز الذي يباهون به حقا لما ظهر اثناءه من الرقي في القوانين واللغة و الاخلاق لم يكن يبلغ تلك الدرجة من البهاء لولا اقامة الملك بالقدس وتاثير الرجال المنورين الذين كانوا حوله عليه واخص بالذكر منهم فانسان دو بوفي تلميذ ابيلار فقد كانت له حضوة كبرى ببلاط الملك لويز التاسع وهو الذي لخص له علوم زمانه أي جميع ما عرفه من اختراعات وتآليف العرب وقد حكى هذا الكاتب امورا ثابتة عن الاسلام تدل على سعة اطلاعه على احوال الشرق ولكنه مع ذلك اسرف في شتم النبي (صلعم) تقربا منه فيما يظهر للملك المتعصب وربما احسن اليه اكثر من ذلك لو علمه كيفية صنع الساعة او استعمالها اذ لا يخفى انه كان لشارلمان ساعة اهداها له الخليفة هرون الرشيد ولكن سان لويز لم تكن له مثلها بل انه كان يقيس لياليه بدوام ضوء شمعة (۱)

على ان معارضة الكهنوت لحرية الشعب لم تقل عن ذي قبل بالرغم من صلاح صان لويز بل ان احد مشاهير وعاظ ذلك العصر (۱۲٤٠) الكردينال جاك دو فيتري في خطاب له الى اهالي المدن رمى بالكفر العواصم الحرة التي اختلست

---

(۱) ميشلي — تاريخ فرنسا — مقدمة — ص ٤٦

حقوق الكنيسة بنظامات جائرة وقوضت حرية الكهنوت وابتلعتها ابتلاعاً كما ابرق اسقف رانش وارعد في خطاب قاله بمدينة لاون ضد الارقاء الذين يحاولون التخلص من سلطة ساداتهم فخاطبهم قائلا « ايها العبيد كونوا دائما مطيعين لساداتكم ولا تتذرعوا بقسوتهم او غلظتهم عليكم واطيعوا دائما من كانوا منهم طيبين معتدلين وحتى من لم يكونوا كذلك فان قوانين الكنيسة تكفر من يحرض الرقيق على العصيان (١)

ولم يكن الملك اكثر تساهلا من البابوات في منح الامتيازات لرعاياه ضرورة ان المدن لجأت لافتكاكها منهم الى استعمال القوة اذ لم تتمكن من الحصول عليها عفوا وكتب ميشلي ما ياتي : انهم يقولون أن الملك هو الذي انشأ البلديات مع أن الامر خلاف ذلك لان الملك لويز السادس امتنع من المصادقة على تشكيل بلديات بالمدن التابعة للتاج وكذلك جعل لويز الثامن فانه سلك عين هذا المسلك وعلى كل فلم يكن في الامكان تشكيل بلدية بدون موافقة الملك

ولكن الحروب الشديدة التي انتشبت بين الكهنة والاشراف افسحت من حسن الحظ المجال لرغائب سكان المدن والقرويين كما ان وجود طبقة متنورة من النبلاء بأوروبا أثر ايضا على الانظمة والاصطلاحات الاجتماعية

ولكن الذي عمل حقيقة لنقل المدنية الشرقية الى الغرب اكثر من الصليبيين هم طائفة الطامليي (٢) وجيوش الاشراف الذين اقاموا بالشام فكانوا الواسطة الحية بين الاقليمين واعانوا على تهذيب اخلاق الطبقات العالية تدريجيا وتفذوا اقصى غاية تلك المدنية غير انه حيث ان الروح الشرقية لم تنفذ مباشرة الى الغرب

(١) لافيس — تاريخ فرنسا — ج ٢ — ص ٢٦

(٢) طائفة من الاشراف شكلوا من بينهم خلال القرن الثاني عشر جمعية دينية عسكرية للدفاع عن بيت المقدس وعن الطرق الموصلة اليها

بل انها دخلت اليه غالبا بطرق منحرفة فهي لم تستطع ان تغير سريعا شكل المجتمعات الاصلي ولكن مباشرة الصليبيين المسلمين مدة قرنين اثرت فيهم تأثيرا فعالا وبالخصوص في اشرافهم فان اختلاطهم مباشرة بنخبة القوم أكسبهم شيئا كثيرا من أخلاقهم فطبعوا بطابعهم الخاص وأخذوا عنهم قواعد الفتوة وادخلوها في أخلاق الاوروبيين فكان تأثيرهم الشخصي أوقع في النفوس وأكثر مفعولا في تحسين الاخلاق التي لم تزل متوحشة ـ على أني لا أريد قط إنكار قيمة بعض القوانين الاجتماعية والدينية التي تعد من أهم مآثر الكثلكة ولكن من الواجب على التنبيه بأن الكنيسة لم تفعل شيئا لترقية الاحساس ترقية عالية في القرون الوسطى كما يدعيه البعض ويكفينا دليلا على ذلك ما قاله نفر من الكتاب الصادقين بخصوص ما أخذته أوروبا في ذلك العهد عن المسلمين من حيث الاخلاق

قال برتلمي سانت هيلير « ان الجبار اشرافنا الاشداء للقرون الوسطى مع العرب وتقليدهم إياهم لنبل طباعهم اللينة أكسباهم إحساسات أكثر رقة وعلو وإنسانية مما كانوا عليه دون أن يفقدهم شيئا من بسالتهم المعهودة ومن المستبعد ان المسيحية وحدها كانت تمليها عليهم مهما بلغت من السخاء والمعروف . (١)

وقال فوريال « إن العرب الذين يماثلون النصارى من حيث الشجاعة كانوا أكثر منهم مدنية وهم بلا خلاف الذين اظهروا قبل غيرهم أثناء الحروب صفات البطولة والانسانية والكرم نحو الاعداء وبعبارة أخرى فهم أول من تزين بتلك السجايا النبيلة من قبل ان يكون للفتوة الغربية اسم ومراسيم محترمة مسنونة (٢)



(١) برتلمي سانت هيلير ـ القرآن

(٢) فوريال ـ تاريخ شعر البروفانس . ـ ج ١ ـ ص . ٤٢٣

وشاركه في هذا الرأي أحد المؤلفين المعاصرين ا - جبهار فقال « إن صلاح الدين كان أميرا شريفا باسلاحر اظهر الاسلام في أيامه مظهرا كبيرا تجاه النصرانية ولربما أعطى أحيانا لاشراف الصليبيين دروسا في الرحمة والحنان » (١)

وكان الاشراف الذين تغذوا بلبان تلك المدنية مثالا للادب في الغرب وبفضلهم اتسعت دائرة المعلومات العالمية وتصقت الافكار وتحسن الذوق وازداد الشرف والمعاملات الاجتماعية رقة وانتشارا كما أدت الرغبة في الاستقلال باسم مفرزكاشراف العرب الى تخصيص العائلات باسماء محفوظة كانت الى ذلك التاريخ مقصورة على الملوك دون سواهم وعليه فلا ينكر انه كان للاشراف نصيب وافر في تنمية كثير من الافكار الكامنة في العقول واحياء جانب مهم من العواطف وأول من استفاد من هذا الرقي النساء فكن بذلك مدينات عرضا بتحريرهن لحضارة المسلمين .

ان العادة التي جرت في الغرب بالتساهل في البت في امور الشرق دون تعمق في البحث وتحت تاثير الاغراض في غالب الاحايين تحمل على الاعتقاد بان المرأة كانت دائما مهضومة الجانب عندنا مع ان السائحين وجميع الذين زاروا اسبانيا الاسلامية حكوا كيف ان المرأة كانت في ذلك العهد أرقى مكانة وأوفر حظا من أختها المسيحية التي كانت تغبطها على نعمتها كما أن الاشراف وبعض النساء اللواتي صاحبنهم في الحروب الصليبية بالرغم عن تعصبهن قد تمكنوا مباشرة من معرفة مكانة النساء الشرقيات الاجتماعية والادبية فإن تأدب الرجال معهن واحترامهم لهن حركا في خواطر الاشراف عاطفة البشاشة واللطف التي اختصوا بها دون غيرهم من أفراد الشعب

كما أن القصائد والاناشيد الغرامية المترجمة من العربية أوجدت « السيدة »

---

(١) جبهار - ايطاليا المتدينة

التي كان الفارس يطرح تحت قدميها قلبه واحترامه الامر الذي لم تغفل الكنيسة عن الاستفادة منه حيث أقامت أعيادا وشيدت معابد عديدة تمجيداً لوالدة المسيح كما تأسست جمعيات كثيرة من النبلاء نسكت إلى العذراء وبلغ التغالي في تقديس مريم إلى الاعتقاد بربوبيتها واستفادت المرأة طبعا من هذا التشريف الناشيء عن التعصب والاندفاع حتى قال بعض مشاهير الكتاب « انه خيل للناس ان الالاه تطور من جنس إلى آخر وصارت العذراء ربة العالم فاحتلت كل المعابد تقريبا وجميع المذابح » وآل التغالي إلى التناهي في الظرافة حتى تسنى لكنيسة ليون الاحتفال بعيد الحمل الطاهر (١١٣٤). (١) وعليه فابتكار العذراء بالغرب لم يكن كما ادعاه البعض نتيجة الكثلكة الشعرية بل هو ثمرة مجموع القرائح العلمانية ذلك لان الكنايس الشرقية التي استمدت من الاسلام امورا كثيرة كانت تحتفل بحمل مريم منذ القرن الثامن ولكن هذا الموسم لم يكن معروفا بالغرب على ان القديس برنار لم يتردد عن إنكار هذه البدعة التي وصفها بالاعتقاد الباطل المخالف للايمان والعقل كما اعترض عليها صراحة القديس أوغستان من قبل وعليه ففكرة التكريم المتكلم عنها أخذت مباشرة عن الاسلام واستخدمت بعامل الظروف لصالح نظام ديني - سياسي

إننا نعلم ما كانت عليه حالة المرأة عند الرومان الوثنيين وما أمست عليه فيما بعد بالممالك المسيحية الى القرن الثاني عشر ولا يمكن بحال أن ينسب شيء جد من تحسين حظها الى الكثلكة من عهد القديس بولس إلى عهد القديس برنار وكان لشخص المرأة ولاختلاطها بالرجال بعد ارتفاع مكانتها الاجتماعية النصيب الوافر في بث الاخلاق الكريمة وراحة العيش والرفاهية

وقال سكوند نقلا عن أحد مؤرخي العرب أبدى رأيه في أهل أوروبا

---

(١) ميشلي - تاريخ فرنسا - ج ٢ - ص ٢٣٢

لذلك العهد ، إن هؤلاء القوم على جانب كبير من الشجاعة والبأس يعانون المشاق وضيق العيش بجلد وثبات ولكنهم يعيشون كالحيوانات لا يغسلون أبدانهم ولا ثيابهم التي لا ينزعونها إلا إذا تمزقت ويدخلون على بعضهم غير استئذان » وكتب دراپير بعد الاعتراف بأن النظافة واجب ديني عند المسلمين « لم يكن من الممكن أن يحمل المسلمون كاهالي أوروبا في ذلك العهد ثيابا واحدة حتى تصير أحيانا جملة كريهة من الخرق والحشرات ولا نجد بين العرب وزيرا ومستشارا للملك أو خصما له ظهر على الحالة التي شوهد عليها توماس بكيت لما جردوه من شعر رأسه المتلبد ويقال أن العرب علمونا استعمال ثوب تحتاني من قطن أو كتان يسهل تغييره مرارا وغسله حفظت السيدات اسمه العربي القديم وهو القميص (١)

هذا ولا أطيل الكلام عن النظامات الاجتماعية والسياسية الاخرى التي كانت قائمة إذ ذاك بممالك المسلمين غير أني أقول ان الدول الاوروبية لم تستطع لقصورها يومئذ تقليدها واتباعها

ومن جملة تلك النظامات البريد فان مهمة هذه المصلحة كانت منوطة لعهدة فرسان ينقلون المكاتيب والاشياء التي تسلم لهم بغاية السرعة من بغداد الى دمشق كما كانوا في زمن الرشيد يطيرون الحمام لهذا الغرض من أهم بلدان العراق وقد مضى على هذا العهد ستة قرون قبل أن يفكر لويز الحادي عشر في إحداث مصلحة البريد بفرنسا

وأما الجيش الملي الذي كان عبارة عن معسكرات صغيرة متفرقة تحت قيادة أمراء الطوائف فقد ألف ثانية وأصلح من جديد قياسا على ما كانت عليه الحربية الاسلامية

---

(١) دراپير من كتابه المتكلم عنه سابقا ـ ص . ٣٠٥

واما الديور التي قامت ببعض الخدمات الوقتية سواء بنسخ أو بحفظ بعض المخطوطات فانها تشكلت على نمط تكايا المسلمين التي كانت في أول الامر نوادي لطائفة من العلماء الغرض منها تحقيق الراحة والطمأنينة لطلبة العلم وإيواء المسافرين منهم وقد شيدت غالب ديور القرن الحادي عشر على قاعدة المساكن الشرقية واشتهر من بينها دير جبل كاسان الذي كان أعظم مصدر لنور العلم بأوروبا خلال القرون الوسطى على أن أهله لم ينالوا ذلك الحظ الممتاز كما قاله ميلش إلا بما تعلموه عن العرب

ولو كانت البابوية كأصحاب الديور خالية من المطامع السياسية ولو كانت على الخصوص متفطنة بصيرة بعواقب الامور لاستفادت هي أيضا من معلومات الشرق وتجنبت البدع والبروتستانية خصوصا وإنها لقنت التجربة التي هيأت لها أسبابها بحكمة وسداد وذلك ان كثيرا من الكرادلة الذين انتخبوا لمقام البابوية كانوا شواما يتكلمون العربية ولهم نصيب من العلم والتجربة أوفر من بقية أعضاء الكهنوت الاوروبي فالبابا جربير ـ سلفستر الذي تعلم ببلاد الاندلس أدرك احتياج الكنيسة لما ذكر وأوعز باتخاذ التدابير اللازمة لبلوغ تلك الغاية وهو الذي هيأ القاعدة التي أقام عليها أكبر حبر ظهر في المسيحية هيلد براند سلطتي البابوية الروحية والزمنية وقد اعترف الكاتب ج. دوميستر بأن هذا المنصب لم يكن في الاصل مثل ما أمسى عليه في القرون التالية فانهم كانوا في البداية يطلقون اسم البابا على جميع الاساقفة ولم يعدلوا عن ذلك إلا بعد اجتماع أول مؤتمر ديني بروما سنة ١٠٨١ حيث وقع الاتفاق على تخصيص قريقوار السابع بذلك اللقب فأصبح البابا من ذلك اليوم كالخليفة الذي هو العاقب العلم الوحيد للنبيء (صلعم) خليفة المسيح ووكيله الوحيد أيضا في الارض غير أن جربير هذا لاحظ بالاندلس شيئا آخر فإنه شاهد من قرب ما للتعليم الفني من القوة الدافعة لتحرير العقول وأحس

بالخطر الذي يهدد علم اللاهوت وهو عوض أن يحيي تلك القوة كما فعل فيما بعد البابا ليون العاشر لفائدة الفنون المستظرفة واستخدامها لمصلحة الدين الحقيقية صرف جميع ما ناله من علم عند العرب في البحث عن وسائل تحطيمها وعلى أثر التفكير في هذا الامر خطر له إشهار الحرب الصليبية

إن مقصد قريقوار السابع الكبير من اعلان سيادته العامة على النصرانية وتطويق جبينه بتاج الملوك أبهر عقول خلائقه ولكنهم ظنوا أنه يكفيهم لبلوغ تلك الغاية الاعتماد على الرعب والتعصب الديني مع أن الفكرة الدينية لم تعد كما كانت قبيل الحروب الصليبية فأفضت سياسة الرعب بتبغيض الناس في سلطة الباباوات ولم تكن الانقلابات التي حصلت في العقائد وفي نظام الكنيسة الكثوليكية إلا نتيجة لخروج طوائف عن كنيسة رومة وللبدع التي ظهرت في القرن الثاني عشر بفضل رقي المسلمين العلمي الذي نفذ الى البلاد الاوروبية وفتح العقول للافكار الجديدة وهو الذي بث فيها بذور الشك وحب الانتقاد فتولدت عن ذلك البدع التي أنتجت في وقتها فكرة الاصلاح الديني

وكان لطوائف المعتزلة على اختلافها تأثير محسوس في تجديد الافكار الاوروبية ذلك ان فكرة المعارضة والاحتجاج على استبداد كنيسة رومة وتقديس الاولياء والصور هبت هناك منذ القرن الثاني عشر فالكاتوليك الذين كرهوا استبداد الكنيسة وكذا الذين لم يتحرروا تماما من قيودها كانوا يريدون إما الانفصال عن البابوية أو تجديدها على قواعد أخرى وكان الجميع يبحثون عن السبيل الموصلة الى هذه الغاية ولكن البروتسطانيسم (١) الذي ظهر في ذلك العهد عوض أن يأتي بتجديد كلي في الدين أعطى الكثلكة المتزلزلة قوة ولما كانوا مصطنعين استعاروها بلا حذق عن الاسلام فأدى ذلك العقول الناهضة إلى مأزق أشد مما كانوا فيه من حيث الارتجاع والتعصب لان البروتسطانيسم قوض الهيكل العتيق ولكنه لم يستطع تشييده من جديد

---

(١) مذهب المعارضين الذي ظهر

ولو دخلت فكرة الرقي حقيقة الى الغرب لساعدت بوجه آخر على تطهير الدين من كل ما علق به من البدع وعلى فصل السلطتين عن بعضها من زمن بعيد كما أعانت على التخلص من نظام أمراء الطوائف وظهور الطبقة الثالثة من الشعب وتعدد الهيئات البلدية ولربما تمكنت البابوبة التي أضاعت وقتئذ سلطتها الزمنية من تدعيم سلطتها الروحية لولا بروز مذهب البروتسطان في ذلك الزي المستقبح واصطدام المصالح السياسية والمادية وحتى عواطف الحب التي اختلطت بالنظام الديني فقضت على سير النهضة الطبيعي

إنني لمجاوزت حدود البحث الذي رسمته لنفسي حين تناولت الكلام عن تأثير المدنية الاسلامية على النهضة الغربية وعن نصيبها في ظهورها ولكنني رأيت من اللازم التعرض لهذا الامر مثلما سبق لي ذلك عند الكلام عن الحروب الصليبية قاصدا بيان أسباب النفور والمشاحنة كما دعاني السكوت الذي التزمه غالب كتاب الاجانب في هذا الباب الدال على نكران الجميل الى شرح العلاقات الثابتة بين مدنيتين يعتقدونها غلطا مختلفتين لا رابطة لواحدة منها بالاخرى



نكران اوروبا للجميل

ليس شيء أصعب على الانسان من استئصال الخرافات والانتصار على العقائد الباطلة خصوصا إذا استحكمت في النفوس

إن الكنيسة أسعرت حقدين في قلوب النصارى الاول على الاسلام والثاني على العلم وثابرت على تنفيذ نيتها الانتقامية بالرعب والارهاب فحجرت على الناس أيما تحجير مدة خمسة عشر قرنا ساد فيها الضغط والاضطهاد الطعن في سياستها والحكم على آرائها في أمور اللاهوت والتحدث عن مآثر الماضي العلمية والفلسفية وكذا الاستشهاد بحواشي الخوارج وعلى الخصوص مدح مدنية المسلمين حتى أن الصليبيين الذين شاهدوا تلك المدنية من قرب كانوا يتحاشون التحدث عنها جهرة خوفا أن تستقريهم مجالس التفتيش

وقد نتج عن التسليم والخضوع اللذين نزلا بكلكلها على الجمهور جمود في العقول إلى حد صار الناس يعتقدون بدون تمييز ولا تروّ كل ما يسمعون ويقرؤون سيا وأنهم كانوا يقدمون لهم الاشياء في شكل ملايم لافكارهم المألوفة وتحولت عادة قبول الشعب لكل شيء بغير تفكر بطول الزمن إلى طبيعة ثانية حتى أنه لما قام القديس برنار معلنا أنهم جميعا يرونه كذا لم يتجاسر عن مخالفته إلا ايلار حيث قال « إلا أنا فإني لا أرى مثلك »

نعم إنهم كانوا جميعا يفكرون ويعتقدون أن المسلم سواء كان فارسيا أو عربيا أو تركيا متعصب وغير أهل للمدنية وأنه رجل متأخر لم يبتكر شيئا وليس في استطاعته أن يبتكر شيئا من أجل دينه المغاير للرقي وازداد هذا الاعتقاد تأصلا في العقول بتلاشي ذكرى الصليبيين شيئا فشيئا واستحكم فيها إلى القرن الثامن عشر .

ولكن الامر تغير من ذلك العهد فإن الابحاث التاريخية وتفوق العلم المستمر القاضي باضعاف سلطة الاكليروس غيرت نوعا ما تلك العقيدة المخزية الحمقاء المبنية على سرعة التصديق وعدم التمعن في حقيقة الاشياء وربما زالت تماما من الوجود لو لم تؤيدها الظروف السياسية في القرن الاخير وتحتم التسليم بها من جديد ذلك ان السياسة رجعية دائما في علاقاتها الدولية وهي لم تكن أبدا ديموقراطية على الخصوص بل هي في معزل عن الشعب تكره الملاحظة والانتقاد وتنفر من النور لانه لا يتفق مع الجوسسة والدسائس ولذا فهي تريد مثل كنيسة العهد الغابر ان يبقى الجمهور جهولا محافظا على الاباطيل القديمة إزاء الامم الاجنبية إذ بذلك يسهل عليها العمل ويهون لان إطراء المدنية الاسلامية مثلا يدل في نظرها الاعتراف للمسلمين ببعض الكفاءات وهذا لا يلتئم أبدا مع ما تضمره من استعباد الامم المنحطة — على زعمهم — العاجزة عن إدارة شؤنها بنفسها واستخدامها لفائدة الغير .

ان الحق المخول سابقا للمذنب ان يكفر عن ذنبه ولو كان عظيما بدم المسلم كان من مبتكرات الكنيسة التي حرضت الناس على الحروب الصليبية ولكن السياسة التي لا تقل اثما عن بعض المجرمين الذين كانوا يحملون الصليب على صدورهم تحرق عين ذلك المبداء اذ تسمح باقتكاك حياة ومكاسب المسلمين والفكرة والباعث على ذلك لم يتغيرا قط الا ان المذنب العصري لا يتوب اذ هو يسعى للاكتساب لا للغفران وعليه فهم دايبون تحقيقا لغايات اثيمة على استخدام الغلطات القديمة واما الحقد الديني الذي طاردوا من اجله المسلمين حتى قضوا على آثارهم فهو باق بالذاكرة والاعمال، بيد انه كان يجب على الغرب بدل ذلك السكوت المنكر والكفر المخجل بالجميل ان يعترف باخلاص بخدمات علماء الاسلام النفيسة ويقر بتأثيرهم على نهضته ويطالب من الانسانية الصفح عن تحطيمه لتلك الآثار النادرة التي لم

يبق منها ولم يذر وعن اخراج تلك المدنية الزاهرة من إسبانيا مع مؤسسيها وقطع سيرها وتعطيل رقي العقل الانساني بهذا الصنيع مدة سبعة قرون

نعم ان بعض علماء اوروبا الضليعين المدققين نشروا تآليف جديرة بالاعتبار عن اعمال المسلمين العلمية والفلسفية واثبتوا مقدرة الامم الشرقية وقيمتها العلمية في حين كان الغرب ابلهما مستسلما لتيار الجهل والوحشية ولكن دروس التاريخ الرسمية بالمدارس الابتدائية التي يقف عندها تعليم السواد لا تتناول مدنية الشرق الا قليلا وبصورة سطحية لا تكفي لافهام الشبيبة اهمية تلك الحركة الكبرى بل انهم يسكتون عمدا عن تاثير تلك المدنية الحسن على رقي اوروبا اذ الاقرار بذلك اعتراف ايضا بتفوق وميز المسلمين العقلي على النصارى في بعض العصور وتسليم بان العرب كانوا كالاتراك انصار الرقي ومعلميه وكانهم يظنون ان سكوتهم عن هذه الحقائق ينقص من الفخر الذي تبرع به الغربيون على انفسهم لكونهم انفردوا بكل الاكتشافات في العالم دون استفادة شيء من المسلمين

ولكن لا فان السياسة الحالية تفضل ابقاء الجمهور في جهل عميق بدل ان تكشف له عن حقيقة ربما اضرت بنواياها في الشرق اذ يجب ان يعتقد السواد دائما ان المسلمين متوحشون وان يسلم بان دينهم مناف لنور العلم ولمبدا مساواة البشر امام القانون مستدلين على صحة دعواهم بحالة الممالك الاسلامية الراهنة

***

يظهر لي ان ما كتبته في الابواب السابقة كاف لدحض تلك التهم وسنرى فيما بعد ان المصدر الخفي لاسباب الانحطاط الحالي الحقيقية ليس ما قرر وانه لم يكن في مقدرة الكنيسة ان تحترم للاسباب المبينة قبل عملا تمدينيا قام به الكفار ولا ان تعترف به ولذا فهي اجهدت النفس مدة عشرة قرون للقضاء عليه بالنار والحديد ذلك لان العلماء المجردين عن فكرة الكبرياء الضيقة المنزهين عن

الاعتقادات الباطلة هم وحدهم الذين يستطيعون ان يقدروا بانصاف مآثر العصور الغابرة وقد عددت كثيرا من اسماء الرجال المعروفين ونقلت بكل ممنونية اراءهم المؤيدة للقضايا التي كنت اناضل عنها فكانت افكارهم بخصوص سكوت الغرب الكثود اشد نكيرا عليه مني فقد قال درابير :

« اننا مهما تأسفنا على سعي الكتاب الاروبيين ابدئيا في حملنا على نسيان »
« ما للعرب علينا من الفضل من الوجهة العلمية لا نكون مسرفين في ذلك وانا »
« ارى ان الوقت حان للاعتراف بهم لان الظلم المبني على الحقد الديني والعجب »
« فقط لا يدوم سرمدا وماذا كان يقول فلكي عصري يتذكر الهمجية التي كانت »
« اروبا غائصة فيها اذ ذاك لو اطلع على ان العربي ابا الحسن تعرض للانابيب المجهزة »
« بعدستي الشبح والنظر التي كانت مستعملة بمرصاد مراغة واطلع ايضا على ان »
« عبد الرحمان الصوفي اهتم كثيرا باتقان رسم النجوم ؟ اليست جداول ابن يونس »
« الفلكية (١٠٠٨) المعروفة بالجداول الحاكمية والجداول الالخانية لنصر »
« الدين التوزي التي رسمت بمرصاد مراغة الكبير قرب مدينة تبريز عام ١٢٥٩ »
« وقيس الزمان بواسطة ارتجاجات الرقاص وطريقة تنقيح الجداول الفلكية »
« بالارصاد المنظمة المتكرر ادلة على حالة العرب العقلية جديرة بالتفاتنا وعنايتنا »
« ان تاثير العرب على العقول الاروبية كان عميقا جدا وستضطر النصرانية للاقرار »
« به كرها ذلك لانه مرسوم في قبة السماء بحروف لا تمحوها الدهور كما سيقتنع »
« به جميع من يريدون ان يقرءوا اسماء النجوم على كرة فلكية عامية »

« إن الواجبات التي علينا نحو مسلمي اسبانيا في الفنون العادية ربما كانت »
« أكثر اعتبارا من غيرها لان أجدادنا كانوا أكثر منا استعدادا للاستفادة من الترقيات »
« التي تهم الحياة اليومية » (١)

(١) درابير – مدنية العرب – ج ٢ – ص ٢١٧

وقد تساءل الدكتور غوستاف لوبون لما ذا كان تأثير علماء المسلمين غير معترف به إلى اليوم . حتى من علماء أوروبا الذين يظن أنهم سلموا من جميع الاوهام الدينية لاستقلالهم العقلي فقال « إن استقلال عقولنا أمر ظاهري أكثر منه في الواقع وأننا لسنا أحراراً بأن نفكر كما نريد في بعض المسائل ومن المعلوم أن أشياع النبيء (صلعم) كانوا مدة قرون أشد أعداء أوروبا وهم وإن لم يرعبونا بسيوفهم فقد أهانونا بتفوق مدنيتهم علينا ونحن لم نتخلص من تأثيرهم إلا من عهد قريب على أن الاوهام الباطلة التي ورثناها عن آبائنا ضد الاسلام والمسلمين تكاثرت بمرور القرون حتى صارت جزءاً منا وهي طبيعية غريزية كحقد اليهود على النصاري الخفي تارة المتأصل دائماً

. هذا واذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة ضد المسلمين تلك الوهم الموروث أيضاً والذي ينمو مع كل جيل بسبب تربيتنا المدرسية الممقوتة ألا وهو الاعتقاد بأن جميع علوم وآداب العصور الماضية جاءتنا على طريق اليونان واللاتين دون غيرهم فإننا ندرك بلا عناء لما ذا كان تأثير العرب العظيم على تاريخ مدنية أوروبا مجهولاً بوجه عام إذ لم يزل بعضهم يرون دائماً من العار التفكير بأن الكفار هم الذين أخرجوا اوروبا المسيحية من ظلمات الهمجية . والحال أن العرب وحدهم ـ لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اليونان ـ هم الذين هدوا اوروبا إلى معرفة أحوال الاجيال الغابرة واستحقوا بإنقاذهم تلك الوديعة الثمينة من التلف ممنونية العالم إلى الابد . . .

إن القرون الوسطى لم تعرف آداب الاقدمين إلا بواسطة العرب فإن كليات الغرب عاشت مدة خمسة قرون بمؤلفاتهم فقط فهم إذن الذين مدنوا اوروبا من الوجهات الثلاث المادية والفكرية والادبية » (١)

(١) الدكتور غوستاف لوبون ـ مدنية العرب

ومن جملة البراهين الواضحة التي استدل بها سيديو على فضل العرب على المدنية الغربية ما كتبه في الاسطر التالية «وهكذا تسنى لتأثير العرب ان يظهر في جميع فروع المدنية حيث تكونت من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر آداب كانت من أوسع الآداب الموجودة كما أن التآليف المتابعة والاكتشافات الثمينة أثبتت النشاط الفائق الذي كانت عليه عقول ذلك العصر وربحت بمفعولها في اوروبا المسيحية فكرة من يرون أن العرب كانوا أساتذتنا في كل شيء وأن لدينا مواد لا تدخل تحت الحصر بخصوص تاريخ القرون الوسطى كقصص الاسفار والقواميس المفردة لتراجم أكابر الرجال كما نجد من جهة أخرى صناعة لا مثيل لها وأبنية فاقت سواها من حيث الفكرة والعظمة وكذا اكتشافات مهمة في الفنون المستظرفة وهذا كاف ليرفع في أعيننا مقام تلك الامة التي طالما ازدروا بها واستخفوا بمواهبها العالية

ولكن هل كان هذا الازدراء الذي اظهروه غير مرة بجميع أعمال العرب أثرا من آثار الحروب الشديدة التي أثارها النصارى على الامم التي تدين بالاسلام أو هل أن تقدم المعاصرين الغريب في العلوم المثبتة أداهم إلى العبث بالمعلومات التي أحرزت عليها الاجيال السالفة ؟ على أن العرب لم يجهلوا بعض الاختراعات المعزوة لعلماء النهضة الاوروبية وعليه فلماذا اجتهدوا في الحط من مجد أمة وسمت عمرها في التاريخ بمآثر من العظمة والفائدة بمكان !! ألم يحن الوقت للحكم على الاشياء بانصاف فيتصل كل ذي حق بحقه ونعترف للعرب ما يستحقون» (١)

لو اقتصر علماء المسلمين على ترجمة التآليف اليونانية كما يدعيه بعضهم ــ وهو أمر يعسر إنكاره ــ لاستحقوا على ذلك كما قال الكاتب ليبري الشكر

(١) سيديو ـ تاريخ العرب ـ ج ٢ ـ ص ١٣١ و ٣٧٠

الدايم حيث كانوا الحافظين لعلوم اليونان والهنود من التلاشي في وقت انقطعت فيه تانك الامتان عن الابداع ولم تكن فيه اوروبا قادرة لجهلها على التحمل بهذه الوديعة الثمينة (١)

ورب قائل يقول لماذا هذا الاسراف في إطراء قدماء العرب والفرس والاتراك لما قاموا به في الماضى من الاعمال إذ لم يبتكروا شيئا ؟ فأجيبه متحسرا بأنني أعلم كل ذلك ولست أفاخر به البتة بل انا بعكس ذلك أشعر بخجل كبير بما أصبح عليه المسلمون اليوم من الانحطاط في العلوم والفنون فلم يكونوا نعم الخلف لاولئك الاسلاف الاماجد ضرورة أن التفاخر بمدنية اضمحلت نتايجها وتأثيراتها لا يزيد من ابتلى به من الشعوب إلا تمسكا بالماضي وإعراضا عن كل تطور وإصلاح ولذا فإن تكلمت عن حضارة اولئك الاقوام فما ذلك الا لايضاح نكران الغرب جميل الشرق عليه وما يبديه كتابه ضده من المحاباة والتحامل عليه خصوصا وان يونان اليوم بل اليونان منذ ثمانية عشر قرنا ليسوا هم قدماء الاغريق وبالرغم من ذلك فإنهم يعاملونهم برعاية وإكرام كانهم ورثة المدنية اليونانية ومتمموها الشرعيون على أنني ربما تهاونت بهذا الحب السطحي الخالص الذي يظهرونه لليونان لو لم يكن تأثير سيئا على الاحوال السياسية حيث أن نار هذا الحب هي التي أحرقت من سوء البخت أسطولنا بناقرين وهي أيضا التي تلتهم اليوم قرانا بالاناضول

وإذا كان هذا الانعطاف نحو اليونان وذلك الامتنان لهم ناشئين حقيقة عما قام به أسلافهم الاولون من الخدمات فإن أعمال علماء الاسلام كانت أهم وأعظم منها وأفيد للغرب مباشرة بلا نزاع وعليه فلم هذا التفاوت في الاحساس والحكم ؟

إن سبب ذلك بسيط وهو أن الاول نصارى والآخرين مسلمون وهم اتخذوا الأول ذريعة وآلة لسحق الثانيين . وقد لاحظ هذا الامر ذووا العقول المستنيرة بالشرق بعيون ملؤها الحزن فاستغربوا جدا صدق وحسن نية من يدعون إنهاء المسألة التركية على مهامهم حسبما يشتهون .

الخوف من الحقيقة

لقد كانت الكنيسة محقة من حيث وجهة نظرها في شدة مقاومتها للعلم الذي كان من المتحتم ان سيقضي على العقائد الباطلة والخرافات والانظمة السماوية فهي كانت تهاجم العلم والافكار الحرة لا لانها كانت تنشر بواسطة المسلمين وانما لان مصدرها العقل الذي لا يسلم الا بما تثبته التجربة

ومن المعلوم ان كل ما من شانه تحرير الانسان مخالف لنظام الاكليروس والدليل على ذلك ان الكنيسة اضطهدت غاليلي واحرقت تآليفه مع انه لم يكن مسلما

اني تحدثت عن فظائع مقتل الاليبجوا الذين سفكت دماؤهم لاتهامهم بوجود بعض النسب بينهم وبين المسلمين ولكن ما ذا اقول عن المذابح الاخرى والجرائر التي ارتكبته الكنيسة مع النصارى الذين لم تكن لهم ادنى صلة بالمسلمين ولم يكن لهم من الذنب سوى مخالفتها في الراي :

انهم استباحوا الجرائم الواحدة تلو الاخرى لتحقيق افضلية الاله الكاثوليك على الاله البروتستانت والحال انها الاله واحد ! وهذا طبيعي فان الكنيسة قضت سبعة عشر قرنا في تدبير الفتن الرهيبة التي زلزلت الغرب فكانت منبع الحروب والعنف والاضطهاد وفرقت بين الامم بدل ان تجمع شملها وتقرب افرادها بعضهم من بعض (١)

وهل من حاجة لان نذكر هنا اسماء الاحبار وجهابذة الكنيسة الذين استحسنوا

---

(١) ب - لافيت - مجلة الغرب ١٨٩٠

المذابح العامة ؟ فقد ادعى القديس اوغوستان تاييدا لمذهب القديس اوبتال القائل بقتل الكفار انه يجوز احيانا للابرار قتل الاشرار وذلك بالهام من الحق سبحانه وتعالى ورضـاه

وقال البابا اوربان الثاني في رسالة الى اسقف لوق التي كانت يومئذ جمهورية سعيدة ما نصه « اننا لا نعد مجرمين من هزهم الحماس المقدس ضد المغضوب عليهم فقتلوا افـرادا منهم » وعلى هذا المذهب الشنيـع جرى العمل فعلا في كامل القرون الوسطى

وكان البابا بولس الثاني الذي حرض الامراء على قتال الاتراك يرى تعلـم الاداب الغابرة خطرا على العقيدة فكان يضطهد العلماء الذين يهتمون بها ويحيلهم على مجلس التفتيش بدعوى الالحاد الباطلة على ان هذا التحريم لم يكن قاصرا على دراسة الكتب المدنسة بل كان الغلو في التقوى يدفع المعتقدين احيانا الى تدمير التماثيل وغيرها من المصنوعات الفنية العتيقة ومن هنا يعلم القاري ان المسلمين لم يبتكروا فكرة التخريب ولا عملوا بهـا قط

وفي القرن الحادي عشر حرقوا طائفة اورليان الملحدة وذلك لمجرد وشاية بهم تناقلها الناس الى ان بلغت الملك روبير التقي الذي كان حكم عليه بالتحريم من اجل النساء فرأى ان بقاء تلك الطائفة امر لا يطاق فالف في سنة ١٠٢٢ مجلسا من الاساقفة والاشراف احضر امامهم الملحدين مكبلين بالاغلال وامر بحرقهم علانية ارضاء للشعب الذي لم ترقه مجادلة مجرمين فكان يطلب الفتك بهم باعلى صوته (١)

وكتب بي الخامس الذي ادخل فيما بعد في زمرة القديسين الى هانري الثاني بتاريخ ١٠ مارس ١٥٦٩ اي بعد ذلك العهد بخمسة قرون « انه يجب على

---

(١) لافيس ـ تاريخ فرنسا ـ ص ١٩٥

جلالتكم مطاردة اعداء الدين حتى تستأصلوهم » ولم يقع ذلك الا لانحطاط الارواح بسبب التعصب الديني وفسادها الى درجة حتى ان الملوك المشتهرين بالبر والتقوى كسان لويز كانوا يعدون حرق السنة المعتدين على الدين بالشتم بجديد حام من الاعمال الصالحة ويستحسنون مقاومة الملحدين بالسيف والنار ومما ينسب لهذا الملك قوله انه لا يجوز ابدا لاحد ان يتخاصم مع شقي الا بالسيف الذي ينبغي اغماده في ابعد ما يستطيع في احشائه

وكتب فيليب الثاني الى ملك فرنسا شارل التاسع على طريق سفيره « ان اسبانيا تتلقى بانشراح كل ما يصنعونه بفرنسا لابادة الملحدين » وهي نصيحة لم ير شارل التاسع بدا من اتباعها بورع بحضوره مذابح السان برتلمي بنفسه وكذلك فعل فرنسوا الاول فانه امر بتعذيب الملحدين معلنا انه لا يتردد عن بتر ذراعه لو علم انه اصيب بداء الالحاد وعلى شاكلته كان ادوارد الاول فان تغلب التعصب عليه حمله على طرد اليهود من انكلترا

وكان الملك هنري الثامن الذي تزوج على التوالي بست نساء كثير التشيع للمذهب المنقح ـ اعني مذهب البروتسطان ـ وهو ما اداه الى اعدام عدد كبير من رعاياه نساء ورجالا شنقا وحرقا لاتهامهم بالالحاد وهذا عين ما صنعته ابنته ماري تودور التي كنيت بالسفاحة فقد حكى احد المؤرخين وهو الاسقف فريدال (١٥٥٨) ان المحكمة التي شكلتها من الرهبان لهذا الغرض حكمت باعدام ٨٠٠ نفس بالنار وكذلك كانت الحال بالمانيا في القرن الثالث عشر فان مجالس التفتيش كانت تعمل هناك بغاية الصراحة وقد قضى القسيس كونراد دوم بور تسعة عشر عاما في حياته يطوف بانحاء البلاد ويدعو الناس الى محاربة الملحدين فكانت نتيجة دعوته اتلاف آلاف من الرجال والنساء بالنار والتعذيب وعلى تلك الصورة قتل جان هوس الذي حكم عليه اولا بالتحريم ثم طاردوا انصاره وكذلك اهالي موراوية

(١٤١٥) واضطهدوهم مدة نصف قرن وكان نصيب بوهيميا المسكينة من تلك الحروب المحزنة التي سموها مقدسة الشقاء والخراب

واما الفودوا الذين اشتهروا بالعفة وكانوا من المنشقين فقد ابادهم فرنسوا الاول عن آخرهم وعلى هذا المنهج سار غلاة الكثلكة نحو اشياع البروتسطانية ببلاد السيفين فانهم ارتكبوا معهم قساوة تقشعر منها الجلود واذاقوهم من العذاب الوانا

لقد احمرت ارض القارة الاوروبية كامل القرون الوسطى بالدماء التي سالت عليها بسبب تلك الحروب الطاحنة التي اثارها الحقد الديني على كافة من كانت له فكرة او عقيدة مخالفة للكثلكة واستمرت نيرانها تلتهب الى اواسط القرن السابع عشر فكنت ترى ملوكا وكهنة يتقربون الى الله باقامة اكوام الحطب وسن الخناجر وسفك دماء الالوف من الابرياء على انني لا اتكلم عن الحروب الدينية التي دامت اربعين عاما ولا اتعرض لذكر مذابح السان برتلمي التي تلفت فيها ارواح جماهير من الناس بين رجال ونساء واطفال من البروتسطان شنعوا بهم وذبحوهم كالانعام بارذل صورة بل اقتصر على ذكر احد ضحايا تلك الحوادث الدموية وهو الاميرال دوكولنيي زعيم البروتسطان واحد عظماء الفرنسيين من حيث القيمة الذاتية والاخلاق فانهم بعد القاء جثته من نافذة القصر وجرها في الطرقات علقوها بمشنقة مون فوكون حيث عبث بها الملك شارل التاسع الذي خدع الاميرال بما اظهره نحوه من عواطف المودة الكاذبة حتى جذبه الى بلاطه ومع هذا فان تلك الايام السوداء نالت مثل وقائع الدراقوناد الشنيعة تبريك البابا وكذا استحسان بوسوي ونحن لا نستغرب ذلك اذا قرانا ما قاله البابا بي الخامس بخصوص البروتسطان الفرنسيين « من انه لا شيء اشد قسوة على النفس من رحمة الكفار الذين استحقوا اقصى العذاب والتنكيل »

وقد كتب بي السابع ايضا عام ٨٠٧ ان الكنيسة لم تكتف بالسعي

دائما في حر. ان الملحدين من التصرف في أملاك الاكليروس بل انها قررت افتكاك املاك هؤلاء القوم من ايديهم والاستيلاء عليها عقابا لجريمة الالحاد »

ولم ير ابدا امراء النصارى المتعصبون من العار عليهم تلقيبهم بمضطهدي الملحدين وهو ما ادى فولتير بعد التامل الملي في تلك الآراء الشنيعة الى القول « بانه ليس ثمة سبة اشد وقعا على الانسان من تسميته بالمضطهد »

ومع ذلك فقد تمادى النصارى علي سفك دماء اخوانهم الذين لم يفكروا مثلهم وكانت كل طائفة منهم اذا ارتقت الى منصة الحكم ترى من الواجب عليها مقاومة الطوائف الاخرى وهكذا كان الاقوياء يعبثون بارواح الضعفاء ويتلفونها بالتعذيب والتكسير والشنق والحرق وضرب الاعناق وتمزيق الاجساد كل ذلك سعيا وراء خنق حرية التفكير وتوطيدا لتفوق العقيدة المتغلبة

اذ بينما كان الكاثوليك يحرقون برونو وفانيني وينبهون الناس بلطم النواقيس وباسم الدين لمذابح السان برتلمي كان اشياع كالفين يعدون الحطب لحرق دوسروت وكان البروتسطان يهجون الكاثوليك ويزحفون على روميه التي خربوها تخريبا وكيف لا يكون ذلك وهذا الكونيقابل دوبوقون اعني قائد جيوش فرنسا الاول قد وعد عساكره الاشقياء لما قصدوا روميه (١٥٢٧) بنهب تلك المدينة وتعهد لهم بغنائم لا تقل عن التي اقتسمها الجنود الذين قيئوا انفير ؟

انهم كانوا في القرون الوسطى يرون السلب حقا ونتيجة مشروعة للهزيمة واجرا مباحا للافاقين الذين تتالف منهم جيوشهم المتهورة

* * *

ولم يكن اضطهادهم للسحرة اقل من اضطهادهم للملحدين فانهم كانوا يرمون هؤلاء نساء ورجالا بالخوارق واذاية الناس باعانة الشيطان ويقتلونهم حرقا بالنار وكذلك كانوا يفعلون بالبسطاء الذين يلتمسون منهم المساعدة فات بهذا السبب وعلى تلك الصورة ءالاف من الابرياء ودامت تلك الوحشية الى القرن الثامن عشر

على أن السحر مهما كان قبيحا في ذاته الا انه لم يكن سوى خلقة تنجت عرضا عن الدين ضرورة ان الدين يعترف بوجود الشيطان ونفوذه على الخلائق بل ان المسيحية تعزو اليه التسلط على عيسى عليه السلام واستصحابه الى الصحراء مدة اربعين يوما كان فيها محل اختبار طويل وشاق مهين

وفي القرن الرابع عشر حكم جان الثاني والعشرون بتحريم السحرة انحالفهم مع ابليس الرجيم وارتباطهم معه بهبته خاتما ومن هنا يعلم القاري ان البابوية كانت ترى امكان اتصال الانسان بالشيطان مباشرة والادهى من ذلك انهم كانوا يحكمون بالاعدام على العلماء الذين يتجاسرون على انكار وجوده وتاثيره ومن بين هؤلاء غلوم دولور احد علماء اللاهوت فانهم حكموا عليه وحرقوه بوتي لانه حمل من فوق منبر الخطابة على اعتقادات السحرة واما الطبقة الساذجة من الامة التي كانت عقائدها بسيطة مشتبهة فانها لم تكن تفرق بين قدرة الله وصولة الشيطان ولذلك فهي كانت تلتمس من الثاني ما لم تنله من الاول وتعبد الشيطان بدل الحق سبحانه وتعالى ان فازت بمبتغاها على طريقه وهو جحود كان في الحقيقة كالاعتراض على ظلم الخالق عز وجل وعلى الكنيسة التي لم تحقق آمال القوم وعلى الملك ايضا الذي كان يضطهده بصفته خليفة الله في الارض

على ان السلطة المدنية كانت ترى في السحر خطرا على نفوذها كما يرى فيه الاكليروس مزاحمة خطرة مضرة بتجارة بقايا الاولياء وهو ما دعا السلطتين للاتحاد هنا ايضا على السحرة ومقاومتهم بالتعذيب والنار وكان للمصالح المادية في تلك الاضطهادات نصيب كما كان لها في جميعها فانهم كثيرا ما كانوا يوشون باهل اليسار الى المحاكم بكونهم يتعاطون السحر كي يتوصلوا للحكم عليهم والاستيلاء على مكاسبهم وقد سالوا يوما اسحق دولاييريار لم كان عدد السحرة كثيرا بجهة الشمال فاجاب « لان جانبا من مكاسب المتهمين بالسحر يحتكر لفائدة الحكام عند الحكم عليهم بالاعدام »

ومما يؤيد ذلك ان احد مستشاري ديوان قضاء بوردو برآسة لجنة حكمت في جلسة واحدة بتعذيب خمسمائة نفر اتهموا بالسحر وهذا ما جعل فولتير يقول :

اتعرفون كيف كنا نحن معشر الفرنسيين قبل اقل من قرن نحن الذين نفاخر بكوننا استرددنا جانبا من فطنتنا ؟ اتعرفون في اي منقع شنيع من الهمجية المخجلة كنا اذ ذاك منغمسين ؟ اذ لم يكن اذ ذاك ديوان حكم في فرنسا لم يشتغل بمحاكمة السحرة حتى كانت ارجاء البلاد ترن لانين السذج المساكين الذين كانوا يموتون بلا شفقة بعد تشنيع وتعذيب تقشعر من هولها الجلود »

* * *

ولم تكن المذابح في سبيل هداية الناس الى دين المسيح اقل شناعة من مذابح الملحدين والسحرة فان ما امر به العهد الجديد بكلمة « اكرهوا الناس على الاقل لتمتلىء بيتي » اباح للاكليروس استعمال العنف لتنصير الناس وهذا ما فعله اشراف الصليبيين الالمان مع البروسيين والليتوانيين والوثنيين

فان سيوفهم كانت ابلغ برهان لحمل هؤلاء على اعتناق النصرانية وتلك كانت ايضا طريقتهم مع الاقوام السالفة الشمالية الذين كانوا متعلقين بآلهتهم القومية لما عهد البابا اليهم بقتالهم لاستمالتهم الى النصرانية وقد دامت تلك المذابح ثلاثة وخمسين عاما وكان البابا يهب سلفا املاك المعدومين لجلاديهم الامر الذي جراهم على الاستخفاف بالارواح حتى اضطروا فيما بعد لتاسيس شبه محكمة سرية رهيبة لتعديل جورهم ومظالمهم الوحشية فكان الخوف من بطشها وقساوة احكامها رادعا لهم عن اقتراف تلك الترهات المخجلة

وقد استمر الامر على هداية الناس الى النصرانية بالقوة كامل القرون الوسطى وايام شارل كان على الخصوص وذلك بالرغم من كلمة القديس اثانا الجليلة بكتابه الاول « ان حمل من لم يمكن اقناعهم بالحجة على اعتناق المسيحية بالقوة والضرب والسجن ردة مستنكرة »

وبالرغم منها ايضا سلك الاسبان والبرتقيز ذلك المسلك الاثيم باميركا وبالمستعمرات سعيا وراء تلك الغاية الدينية حسبما لمحنا اليه سابقا

وقد اكد ديدرو الفيلسوف الفرنسي الشهير ان سان لويز لم يقصد فتح الارض المقدسة ـ بيت المقدس ـ وانما الذي دعاه لهاتيك الديار هو الرجاء في تنصير السلطان (١)

ولفائدة التنصير استخدموا في روسيا الى القرن الماضي الحرب والمدافع وحكموا بالابعاد الى سيبيريا على البولونيين واليهود والمسلمين لاكراههم على استبدال معتقداتهم بالمذهب الارتودكسي مذهب الدولة الرسمي

* * *

على انه ليس للشرق ادنى علاقة بتلك الفجائع المرعبة وانما انا ذكرت البعض منها المقارنة بين تعصب الديانتين والفظائع التي نشات عنه ولو ان تاثير تلك الاضطهادات الدينية والحروب الداخلية التي سموها مقدسة على الشرق لاينكر ضرورة ان تقاتل النصارى باوروبا اراح البلاد الشرقية من عناء الحروب زمنا بحيث يمكن ان نقول انه لولا كرم سليمان القانوني المتناهي الذي كاشوه عنه كما هو معلوم لصرفت تركيا قواها في سبيل نظام المملكة الداخلي الذي كان شرع فيه عن روية وتدبير من ايام والده السلطان محمد الثاني

نعم ان الشرق الاسلامي قاسى هو ايضا اهوال المذابح المريعة والاضطهادات الدينية خصوصا في اول عهد الاسلام ذلك ان المسلمين ارتكبوا شيئا من التعدي على الغير بداعي التعصب لدينهم ولكنهم لم يتسلطوا الا على الوثنيين اتباعا في ذلك للاية الكريمة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » فقاتلوا عبدة الاوثان وحطموا تماثيلهم بلا رحمة ولا حنان وهم في ذلك لم يكونوا اشد

---

(١) ديدرو : المشروع ـ ج ١٤ ـ ص ٢٥

عليهم من موسى عليه السلام على عبدة الاوثان من قومه فانه كان يحرض اليهود على ضربهم الى ان يقضى عليهم ولا تاخذهم فيهم رافة (١)

ذلك ان موسى ومحمدا عليهما السلام كانا يعرفان محل ضعف الانسان وميله الى الوثنية ولو عادا الى الدنيا لما استغربا مما اصبح عليه بعض السيدات الانكليزيات والاميركيات من الاندفاع بدون شعور للوثنية والخرافات والاعتقاد بتاثير جانب كبير من الطلاسم واستحضار الارواح وخيالات الموتى وغير ذلك من الامور التي ليست غالبا الا رقيات كاذبة استترت باسماء علمية كاذبة الا ان حذر ذينك النبيين من تقلبات النفس البشرية وان طابق الصواب فانه يجيز قتل الناس لمجرد اعتقاداتهم الشخصية ثم ان الاضطهادات التي من هذا النوع مخالفة لروح القرآن الذي جاء محرضا على التسامح منكرا للاكراه في الدين بدليل صريح هاتين الآيتين « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » و « ان انت الا نذير » على ان علماء الاسلام لم يستحسنوا قط ادخال الناس في دين الله كرها ولم يروا ابدا بعين الاعتبار من اعتنقه بدون يقين وهم يقولون ان الله عز وجل لا يرضى بطاعة المنافق الذي حمل عليها بعامل العنف او المصلحة الذاتية لا بداعي الاقتناع

وقد اعترف الكونت هنري دوكستري انه لم يقع ابدا استئصال طائفة امتنعت من اعتناق الاسلام بل ان المسلمين الذين انتصروا على الاسبان ابقوهم على دينهم وابقوا لهم قوانينهم وحكامهم وقلدوا كثيرا منهم الوظائف الدولية واسندوا اليهم المناصب في قصر الخليفة نفسه . . . ولم يشترطوا عليهم هناك سوى اداء الجزية التي ضربوها على بقية الاقوام المسيحية الاخرى على انهم اظهروا في اقتراض الشروط عليهم منتهى التسامح وهو شعور نادر في تلك العصور باوروبا خصوصا وان الرفق بالمغلوب كان يعد اذ ذاك ضعفا

---

(١) الكلمات العشر

وعجزا (١) غير ان التسامح المبني على التبصر لم يكن دائما متبعا ذلك لان الاحقاد وان شئت قل الانفعالات السياسية التي اثارتها مساعي الغير سبب تلك الاعمال الموجبة للتاسف كابعاد الاشخاص عن اوطانهم واراقة دماء الابرياء

ان غزاة الشرق اتلفوا جانبا مهما من مدنية بغداد الجميلة ولكن ماهي نتيجة تلك الحروب الطاحنة القاسية من فتك بالارواح وتخريب معاهد يستحيل تعويضها بالنسبة للجرائم التي استباحوها باوروبا ضد اعداد الكثلكة فان الشرق لم يعرف شيئا كالسان برتلمي ومجالس التفتيش وايقاد اكوام الحطب لحرق المخالفين وذلك لان مجاهدي المسلمين الاشداء في ساحات الوغى لم يطمعوا في الجنة بالقاء اعدائهم في النار خصوصا اذا كانوا نساء او اطفالا ومن المحتمل ان التركي الذي لا يختلف عن بقية البشر كان يرتكب نظير تلك الفظايع لو كانت تربيته الدينية كذلك ولو فعل لالتمسوا له عذرا واستحسنوا صنيعه طبعا للمبادي المتحدث عنها آنفا ولكن القرآن الكريم حرم اكراه الناس على اعتناق الاسلام فلم تحصل في الشرق مذابح باسم الدين وهو ما جعل روبرتسون يقول « ان اشياع النبي محمد (صلعم) هم المتحمسون الوحيدون الذين جمعوا بين فكرة التسامح وبين الغيرة على دينهم » (٢) ولو لم يمسك هذا النهي الشديد وذلك التسامح يد التركي ايام عزه لادخل في دينه او اباد جميع النصارى الذين اخضع لحكمه وبسط عليها سلطانه واذا لم يزل بعض رهبان الانكليز وشرذمة من الصحفيين الذين يحركهم التعصب او المصلحة الذاتية يرمون الاتراك بارتكاب شنائع من هذا القبيل فما ذلك الا لانهم يرون تلك الجرائم والشنائع التي اقترف اجدادهم مثلها طبيعة مالوفة منهم يتكلمون عنها حسب الاهواء والظنون التي اكتسبوها من

(١) ف ـ دوكستري ـ الاسلام ص. ٧٤ و ٩٠

(٢) روبرتسون ـ تاريخ شارلكان

تربيتهم الاولى ولما كانوا يقيسون الغير على انفسهم فليس من الغريب ان نراهم يلفظون تلك الاكاذيب السخيفة تجاه الاتراك ولا سبيل للادعاء بان الباعث على تلك المذابح العامة هو توطيد الامن او مقابلة الشر بمثله كما يزعمونه بخصوص المذابح العصرية لان الادعاء بذلك يضطرهم لتسليم عين تلك الاعذار والعلل لتبرير الشنائع التي حصلت بالشرق ثم لماذا يحاولون نسبة ما وقع بتركيا من ازهاق الارواح الى التعصب الديني او الحرب الوحشية المقدسة بينما نراهم يطلقون عبارة الجزر على اعمال كتلك جرت ببلاد اخرى ؟ مع انه من السهل على الانسان التسلق بالكلمات كلما ابتعد عن المنطق .

ولكن ربما كانت الاسانيد التي اقتطفتها من التاريخ قديمة وبالتالي خالية من الاعتبار ولذا رايت ان اذكر بالقطعة الثانية من هذا التاليف فظائع العهد الحاضر واحكي شيئا عن الآلام الهائلة التي غمرت على السواء الشرق والغرب بسبب تعصب وتجارة الاوروبين

ان مجالس التفتيش المقدسة التي كانت تقضي بتعذيب الملحدين بتلك الاساليب المتنوعة المرعبة ثم بالقائهم احياء في النار لم تبطل باسبانيا الا في سنة ١٨٠٨ ولكنها بقيت بروسية الى ١٨٧٠ حيث كانوا يحكمون على من ثبت عليهم التشيع لحرية الفكر وحتى على من اتهموا بها بالاشغال الشاقة بالمدن الدولية على ان محكمة التفتيش تلك المحكمة الدموية التي جمعت بين الدين والسياسة وان تعطل عملها الا ان الاسباب والفكرة التي اوحت بايجادها لم تتبدل ضرورة ان الكنيسة لم تنكر براءات انوسانت الثالث واوربان ثاني ولا تبرات منها وهل في استطاعتها ذلك وهل في امكان احبارها المعاصرين ان يدعوا انهم اعلم بالدين واكثر معرفة بالمسيحية من القديسين اوغستان وهيلو براند وبرنار ؟ وكيف يسوغ للكنيسة ان ترفض التي حرمت بانها من قبل الوحي ؟ فان ذلك يعد منها كفرا ومروقا !

قال ميشلي اني وجدت بخزينة اوراق الدولة كتابين للبابا انوسانت الثالث حررا قبل وفاته بزمن قليل تحمل فيهما بحماس جنوني تبعة كل الدماء المراقة (١) ولا سبيل لرمي البابا بي الخامس الذي ادخلوه في زمرة الاولياء بالغلط فيما فعل او لاتهام من تسببوا في تلك المذابح انهم زنادقة مجرمون اذ اشد المضطهدين والمفتشين واقساهم على الناس كانوا من اتقى النصارى وقد مجدت الكنيسة كثيرا منهم وبررت اعمالهم واذا لم يبق اليوم تأثير لتلك البراءات فليس ذلك لانها مخالفة للدين او لان العقائد تهذبت او تحسنت بسبب الاكتشافات العلمية لان العلم ربما استطاع هدم اركان الاديان المنزلة ولكن ليس في امكانه تغييرها على ان علماء اللاهوت المعاصرين لم ينكروا تلك البراءات الكريهة لان الكنيسة التي رفضت راي كوبرنيك بخصوص حركة الكواكب المزدوجة لمخالفته للكتاب (٢) وطالبت قليلي لدى القضاء لا يمكنها اليوم ان تبارك الفلكية الاحرار الذين حوروا الاراء المستمدة من الكتب المقدسة بشان نظام العالم وخضوع الحوادث الكونية لقوات خفية تتجلى بخوارق العادات اذ الكنيسة التي كانت تحذر الطبيب من معالجة المريض الذي لم تكن بيده ورقة الاعتراف وتهدده بالخطيئة عند المخالفة وتحجر بصورة قطعية التشريح التي تعده وحشية كريهة (٣) وتحرق الملحدين وتقتل

---

(١) ميشلي - تاريخ فرنسا - ص ٩١

(٢) يوم ٥ مارس ١٩١٦ حجرت الجمعية المقدسة كتب كوبرنيك وفوسكريني التي ايدت الفكرة الباطلة القائلة بتحرك الارض وقرار الشمس المخالف للكتب المقدسة .

(٣) تصريح ٨ مارس ١٧١٢ - قررت اربع مجامع دينية تحريم الطب المبني على التجربة لانه يقضي باضمحلال قيمة بقايا الاولياء .

المسلمين وتنكر جميع التصانيف المخالفة للكتاب المقدس لاتقدر بدون تناقض على احتمال العلماء او على التساهل معهم والاعتراف اليوم بما نبذته بالامس

وعليه فهي ان رضيت اليوم بالسكون فما ذلك الا لانها فقدت السلطة المدنية التي كانت لها بالامس واضاعت القوة اللازمة للعمل ولكن بغضها لاعدائها الاقدمين وكرهها لهم بقيا لحد الآن كامنين يكفي لظهورهما حالا فرصة سانحة او جو صالح ونحن شاهدنا منها ذلك مرارا سواء باميركا في السنين التي تلت اكتشاف تلك الاقاليم او في المستعمرات حين فكروا جديا في عهد ريشليو في استئناف الحرب الصليبية ضد الاتراك . وساعود فيما بعد الى هذا الموضوع وابين للقارئ في آن واحد فساد صنيع المبشرين اخلاف الصليبيين المجردين من السلاح .



الاضطهادات الشخصية

ان الاضطهادات المتسلطة على الافراد تكشف اكثر من سواها على فكرة التعصب والتنطع في الدين لانها تتجلى في صور متنوعة كادعاء الارثدوكس مثلا بالقوة وباسم سلطة خارقة للعادة بان هناك بعض حقائق سماوية يجب التسليم بها وتجبيرهم على الناس المناقشة في صحتها والحكم باقصى عقاب على كل من تجرا على تجاوز الدايرة المحددة لهم حتى انهم كانوا لا يرضون بحرية النظر فكانوا يعاقبون الناس لا على اعمالهم فحسب بل وحتى على آرائهم

ولم يقف بهم التعصب في نصف الطريق حيث ان آثاره اخذت تظهر من عام ٤١٥ فكانت هيبنيا تلك المراة الشهيرة التي تسابق الناس لحضور دروسها الفلسفية بالاسكندرية اولى ضحاياه وذلك انها اتهمت بسبب انتقاداتها الحرة وقتلت ثم احرقت بايعاز من البطريق اليوناني وهكذا كان مآل بيار دوبرويس البروفانسي ١١٤٧ الذي كان يطالب بحق النظر في العقائد فقد مات حرقا بالنار ببلاد اللانقدوك لانكاره التعميد وعبادة الصليب ولانه خطب في الناس بان لا فائدة من الكنائس لان المتقين في غنى عن اماكن خاصة بالصلاة حيث ان الخالق سبحانه وتعالى حاضر بكل مكان ولانه انكر ايضا تاثير مساعي الاحياء على تحقيق خلاص الاموات

كما انهم روجي باكون (١٢٧٨) بالسحر وسجن من اجله خمسة عشر عاما زيادة على حرق كتبه التي رموها بكونها تضمنت فكرة جديدة خطرة مستزابة وقد قاسى هذا الرجل العظيم من انواع العذاب ما لا يوصف حتى قال وهو في حالة الاحتضار « انني آسف على اقتحام تلك المقاساة في سبيل العلم ». ولم ينصفه الانكليز الا بعد مضي اربعة قرون على ذلك العهد لما وطدوا اركان الحرية

ثورتهم الكبرى على ان تلك الحرية كانت سياسية قبل كل شيء حيث تسنى بها للامة ان تتداخل في الامور العامة ولكنها لم تقض على التعصب الديني والاضطهاد اللذين استمرا بالرغم من ذلك زمنا بدليل ان كرومويل نفسه كان معتقدا متعصبا لمذهبه

ولا ننسى ايضا ما قاساه فريدريك الكبير (١٢٠٠) من دسايس البابوات الذين تحاملوا عليه اكثر من سواه من الملوك فان غريغوار السابع حول الحرب الصليبية عن وجهتها الاصلية لتحريض الناس على قتاله وذلك لانه كان يبغضه ويخشاه في آن واحد وكان بفضل الفتك به على فتح بيت المقدس مع انه كان كلما احس بضيق او ضعف الا وبادر لمصالحته والاستغاثة به فيصبح اذ ذاك فريدريك ابن البابوية العزيز ولكن ذلك لم يقعد البابا عن تدبير الدسائس ضده وتحريض الرهبان المتجولين على اثارة اهالي المانيا عليه وكذلك كان يفعل ازاء انوسانت الرابع فانه كان يراه كرمز الحرية بالغرب والقناة التي يتسرب منها رقي الشرق اليه ولذا حرش عليه سان لويز اكثر من تحريضه على مسلمي الشام قائلا له « لنسحق اولا التنين ثم نسحق تلك الافاعي » يعني بها مليكات تلك البلاد ومما كانوا يلومونه عليه لوما مرا سياسة الوفاق التي سلكها مع امراء المسلمين فانهم كانوا يعدونها علامة على كفره والحاده وهي عين التهمة التي سلطوها على فرنسوا الاول ملك فرنسا بعد ذلك العصر بثلاثة قرون - وقد ذهب الامر بالبابا الى حث السلطان على خرق المعاهدة التي ابرمها مع فريدريك « وهي كما قال عنها المؤرخ نصيحة شنيعة اجاب عنها السلطان باباء وانفة جديرين بسيد عظيم »

ان الرهبان المتسولين اولئك الاعوان السريون للبابوية كانوا يذيعون جميع انواع التهم ضد فريدريك منها انه تكلم عن الذبيحة فعبر عنها بالسخرية ومنها

انه ايد قول الزنادقة بان الله سبحانه وتعالى لا يريد من الانسان اعتقاد شيء لم تتضح للعقل صحته وان الاغبياء هم الذين يعتقدون ان خالق الاكوان ابن لعذراء وبالآخر فانهم كانوا يصورونه كثمرة غريبة للتعاليم الاسلامية القبيحة ولما تم تحضير الفكر العام المسيحي ضده حاول البابا اسقاطه عن عرش ملكه فلم تجسر عصابات الكهنة على مهاجمة جنود الامبراطور الاسلامية بالرغم من انتخاب الاحبار الملك آخر توجوه باكس لاشابيل و بالرغم من اشتعال الحروب بالمانيا

وقد كتب فريدريك بتلك المناسبة الى قيصر اليونان بهذه الجملة طوبى للشرق وطوبى للدولة التي سلمت من حريب رعاياها ومن دسائس كهنتها ! »

وقد استغاث فريدريك بامراء الدول الاوروبية ودعاهم الى مساعدته بما تقتضيه الظروف على تذليل العقبات التي اقامها في وجهه دعاة الارتجاع فلم يفلح بل ان البابا كان من جهته ينشر اعلانات مضادة لمساعيه وذلك زيادة على جفاء اوروبا المتعصبة التي لم تتجاوز عن خطيئته وتهاونه بالدين على ان فريدريك بالرغم من سخط البابا عليه وتكفيره خمس مرات لم يهن عزمه وهذا دليل على انه كان حقا ارقى من عصره بل وارقى ايضا من كافة رجال القرون الوسطى ولكن من سوء البخت ان خابت كل مساعيه ونفذت دسائس النمامين فتتابعت عليه النكبات كما قاله مؤرخوه وانتشر دعاة البابا في كل ناحية يبذرون جرثومة العصيان والخيانة واحاطت به اناس ماجورون على الفتك به بالسم او بالحديد واخذ اصدقاؤه ينسلون من حوله الواحد بعد الاخر

ثم اسر اعز ابنائه الامير زيا وفارق الابتسام شفتيه نهائيا يوم عرف ان صديقه الحميم بييردي فيني ذلك الرجل الذي انتشله من الفقر ورقاه الى جانبه وعد الكهنة بتجريعه السم ولم يكف ذلك بل ان الكنيسة حرمت على النصارى التلفظ باسمه كي ينسى من الاذهان كما قررت سابقا صب اللعنة على

نيرون ولكن من يجهل اليوم الافتراءات التي نسبت باطلا لهذا الملك لانه عكس النصرانيه خوفا على نظام وطمانينة سلطنته !

ولو لم يكن الزمان الذي عاش فيه فريدريك قريبا منا بالنسبة لعهد نيرون الذي تكاثفت عليه غيوم التاريخ لحرمت الكنيسة الكلام عنه ايضا على ان فريدريك لم يذكر بالتعليم المدرسي الا عرضا بمناسبة الحرب الصليبية السادسة فقط وبمناسبة خلافاته مع البابوات وهذا ما يدل على استمرار نفوذ الدين بالغرب الى يومنا هذا حتى ان اوغوست كونت الذي لم يجد اثرا لتمجيد اسمه باي كتاب من كتب التاريخ اعرض عن ذكره مع انه جدير بان يشغل على الاقل في تآليفه المكان الذي خصص لقودو فرواد وبريون الذي كان يفقأ عيون أشراف الاسرى المسلمين

لهفي على فريدريك الشاعر المتفنن العالم المتنور المجرد عن خرافات زمانه الفارس الاديب الجامع بين الكرم والبسالة القطب الغيور على العلم والافكار الحرة المصلح الناشط الرجل العظيم الذي امتاز عن غيره بمناقب فائقة قلما اجتمعت في ذات واحدة وخصوصا في ملك من الملوك

لهفي على ذلك الرجل الذي لم يكن يطمع في شيء سوى افادة البشر فقد مات حزينا كئيب القلب مكسور الخاطر لفرار الناس من حوله ومن القضية المقدسة التي كان يعمل لفوزها ولانتصار التعصب والمصالح الذاتية والدسائس وكفر المجتمعات بالنعمة وخبث بني الانسان

وليسمح لتركي ان يقدم هنا اليوم بعد مضي ٦٧٢ عاما على موته شواهد ممنونيته له واكباره لمقامه

ان جان دارك (١٤٣٦) لم تكن من قبيل اولئك الشهداء ولكنها اتهمت مع ذلك بالالحاد والوقوع في الذنب ثانيه من لدن الاسقف كوشون وماتت حرقا

بالنار من يد الرهبان ولئن ادخلتها البابا وية اخيرا في زمرة القديسين الا ان الناس يتساءلون اي هذين العملين اقرب للصدق واكثر انطباقا على تعاليم المسيحية . ولكن اي عجب من ذلك ؟ الم يقتلوا اثناء وقائع السان برتلمي المظلمة العالم راموز الذي كان في طليعة انصار الفكر العصري و الذي تجاسر على التصريح قبل ديكارت بان العقل هو مقياس الحقيقة وذلك بعد تخطئة تآليفه ونبذها من لدن كلية باريز الدينية ؟ الم يعدموا سنة (١٠٤٦) أتيان دولي العلامة الفرنسوي الشهير المتشيع لحرية الفكر بعد تعذيبه وقطع لسانه بخنقه والقائه في النار ؟ الم يقضوا كذلك على برونو (١٦٠٠) الفيلسوف الذي جاهد ببسالة في سبيل حرية التفكير لانه خطب في الناس بتقديس الطبيعة ؟ الم يتهموا ايضا كمبانيلا (١٦٣٩) بتمجيد الطريقة التجريبية ويسجنوه ٢٧ عاما عذب في اثنائها سبع مرات دامت الاخيرة ٤٠ ساعة وهو بالرغم من ذلك لم يفتر عن الدعوة بحرارة الى ترجيح العقل والتجربة وعن اظهار حقده الصميم للطغاة ؟ الم يحكموا على الفيلسوف الايطالي فانيني (١٦١٩) المتهم بالالحاد بقطع لسانه ثم بشنقه وحرقه ؟

ان ديكارت (١٦٥٠) صاحب كتاب « الكلام عن المنهج » المشهور ابعد عن بلاده لانه قال « يجب على من يريد بلوغ الحقيقة : ان يتجرد ولو مرة في العمر عن جميع الافكار التي تلقاها وان يشيد من جديد ومن الاساس كل قواعد معلوماته » وقد نبذوا كتابه واضطر هو لمغادرة فرنسا وربما حرقوه لو لم يلتجئ الى ستوكهولم ولم يقع الاقبال على آرائه ولم تنشر الا بعد مضي قرن على ذلك العهد وباقسى من ذلك عاملوا السري الفرنسي دولابار (١٧٦٦) فانهم حكموا بضرب عنقه وحرقه لانه اتهم بتحطيم صليب

وقد قال معاصره فولتير ان المجلس حكم بقطع لسانه ثم بضرب عنقه وبالقائه في النار لانه شتم الدين وامتنع من نزع قبعته حين مرور جماعة من المتدينين كانوا

يطوفون بالشوارع وقد اقيم هذا الرجل الشهير تمثال ببلاده ايفيل (١٦٠٧) الا انه شيد على مقربة من باب المدينة لا داخلها ارضاء لاعضاء المجلس البلدي الارتجاعيين الذين ابوا تخصيص مكان بها لذلك الرجل الذي ذهب ضحية التعصب الديني

واما جان جاك روسو فانهم زيادة على ابعاده لافكاره الحرة قد حرموا كتابه المعروف « بالاميل » بقرار من اسقف باريز ثم حرقوه بامر من المجلس الاعلى هناك

على اننا لا ننسى ما اصاب ثلاثمائة الف من البروتسطان الفرنسيين الذين اضطروا لمبارحة فرنسا بموجب فسخ براءة نانت (١٦٨٨) ذلك العمل الشنيع الذي سيبقى وصمة عار في تاريخ لويز الرابع عشر فانهم حجروا عليهم اقامة شعايرهم الدينية علنية وجردوهم من المميزات المدنية وحتى من حق حرية تربية ابنائهم اذ كان يمكن انتزاعهم من ايديهم واسناد تربيتهم لمعلمين من الكاتوليك وقد بقي هؤلاء المساكين زمنا طويلاً محرومين من حق اقامة شعايرهم الدينية ومهددين حتى في ارواحهم الى ان صدرت براءة اخرى اعادت لهم ما افتك منهم سابقا والحال انهم كانوا فرنسيين كبقية مواطنيهم الكاتوليك يتكلمون لغة واحدة ويقدسون وطنا واحداً ويعبدون إلاهاً واحداً

ولننظر الآن كيف كانت في ذلك العهد حالة اليونان بتركيا والارمن الذين ليسوا اتراكا ولا مسلمين وليتفضل اولئك الذين يهاجموننا بدون تروٍ بدرس المسالة بامعان وبمقارنة الحالتين فان كثيرا من الكتاب والعلماء الفرنسيين سوا كانوا من البروتسطان او من الاحرار هاجروا الى البلاد القاصية فرارا من الاضطهادات وكانت التآليف الادبية والفلسفية المعتبرة تطبع بالبلاد الاجنبية كامستردام وغيره واظن ان نعرضه فيما سبق لاولئك الرجال الشهيرين الذين انتقيتهم من بين اعظم

فالحالة ثلاث دول من اهم دول اوروبا يغنيني عن تعداد مآت من المؤلفين والمفكرين الذين اضطهدوا وقتلوا حرقا بالنار من اجل ارائهم اذ يكفي دليلا على عداء اوروبا المسيحية للافكار الحرة و بالخصوص للباحثين عن الحقيقة ما اظهرته من العنف في مقاومة تلك الافكار والجفاء الذي واجهت به اصحاب الروح الجديدة . وما واقعة قاليلي الا حادث اول من تلك الحروب الشعواء التي اشهرتها على العلم وذويه

نعم ان الباعث الظاهري الذي حمل المحكمة الثورية بباريس بعد ذلك العهد على القضاء باعدام عدد كبير من العلماء ضمن غيرهم من السياسيين كان سياسيا لادينيا لان اولائك العلماء لم يكونوا على جانب من التطرف يلائم الفكرة الثورية ولكن الم يكن الشعب الذي اهاجه منظر الدماء والذي نصب مشنقة بائي مدفوعا بعامل التربية او الايعاز على بعض من قوضوا دعائم اعتقاداته الباطلة وعاداته المألوفة ؟ اذ يعسر بدون ذلك ان نفهم سر تلك القطرة الوحشية التي حملتهم على اعدام كثيرين من مشاهير الرجال الذين كانوا زهرة بلادهم ضرورة انه يجب ان يكون الانسان فاقدا لكل عاطفة وطنية وبشرية معا لوافق على قتل كوندورسي الكبير ذلك الرجل الذي كان في حياته نصير المظلومين وداعية الحرية وواضع مبادي ١٧٨٩ اعني مهيء الثورة الكبرى .

واني وان كنت اجنبيا فاني اكبر كثيرا ذلك الرجل الجليل الذي قصر عمله على خدمة الانسانية وصرف حياته في سبيل خلاص وطنه

هذا ومن جهة اخرى فان التعليم والتربية العمومية كانا مطابقين لنظام الضغط والاضطهاد اللذين كانت الكنيسة تستخدمهما لغايتها المعروفة فالاكليروس هو الذي كان يختار من بين افراده المعلمين ويتولى مراقبة التعليم الذي لم يكن يرمي لغير تعلم الامور الدينية حتى ان كلية باريس التي تأسست في القرن الثالث عشر على نمط الكليات العربية اضطرت في حين من الزمن لتعطيل دروسها بسبب الحملات الشديدة

والانتقادات الحارة التي نزلت عليها من بعض الجمعيات الدينية كالرهبان المتسولين والدومينكان الذين تالفوا لمقاومة البدع واحياء العقائد التي تضعضعت بسبب التعاليم الجديدة .

وقد تداخل البابا أنوسانت الثالث نفسه في الامر وطلب تنظيم كافة مدارس باريس على نظر نائبه والحال ان ما كان يدرس هناك كان دينيا اكثر منه عليا ضرورة ان التاريخ الطبيعي والعلوم المعقولة نفسها كانت محجورة ولم ترسم اسماء بعض فلاسفة اليونان ببرامج تعليم تلك الكلية الا بعد زمن لما توفق الاساتذة لاقيسة ارسطو المنطقية التي توهموا انهم سيتمكنون بفضلها من اقامة ادلة لا ترد على صحة نظرياتهم الدينية ولكنهم لم يذكروا ابدا بتلك المعاهد عالما او فيلسوفا من المسلمين وعذرهم في ذلك ان اليونان والرومان ظهروا قبل المسيح واما العرب فانهم عرفوه ولم يعتنقوا دينه ولذا حجرت عليهم ابواب تلك المعاهد العلمية

ومما حجرته كلية باريس ايضا تحجيرا كليا نظريات ابن رشد الذي كان يميل الى مذهب الماديين — الهيوليين — ذلك انهم اقتصروا بخصوص فلسفة ارسطو على اقيسته المنطقية تلك الاقيسة التي اثارت بالقسطنطينية مجادلات لفظية عقيمة لم يتخلص الفكر البشري من تاثيرها الا بعد زمن طويل وعناء كثير اذ بقي العلم دهرا اسير السفسطة كما بقيت الفلسفة خاضعة للاهوت وهذا طبيعي لانهم كانوا يرون التعصب والعناد في هذا الباب من المظاهر اللازمة للدين وينسبون العلوم الحقيقية للسحر ويرمون العلماء بمخالطة الشيطان !

وعليه فلم يبق شك في ان الكنيسة كانت تبذل ما في وسعها من عنف وشدة لمقاومة حرية التفكير ولذلك بقي تعليم المعقولات مهملا ولم يمكن تدريس الفنون الطبيعية والتجريبية الا بعد مضي قرن على وفاة ديكارت الكبير .

هذا وان الكنيسة لم تهاجم المسلمين الا لانهم كانوا في ذلك العهد قابضين

على نبراس المدنية ولما كان عدوها الحقيقي هو العلم اي الحقيقة فهي كانت على الدوام تحارب الرقي وتحرير بني الانسان وتستعين على الضغط على العقول بالسلطة المدنية وباسم الدين كانت ايضا تحرق كتب قاليلي وتدافع على الرق الزمن الطويل

وقد قال استروس تأييدا لراي كوندورسي الكبير ان الديانة والحضارة مرتبطتان بنسبة متناقضة بحيث ان رقي الاولى يقضي بتقهقر الاخرى وهو ما حصل فعلا بالرغم من الكنيسة وبالرغم من ارادتها وبفضل المطابع تلك الالات الغريبة التي اعانت على بث الافكار ونشر التآليف البليغة وكذا على نهوض العقل البشري على ان الانسان وان تخلص بفضل العلم من قيود العبودية وتمتعت حرية التفكير بكل مظاهرها الخارجية الارواح القوية الحرية الا ان السواد بقي محافظا على ضلالات الصبي جاهلا لحقائق الاشياء

الخلاصة

ان بغض جميع مالا يتفق مع روح ومصلحة الكنيسة الذي غرسته في الادمغة التربية الدينية وكذا البغض المتولد من الاوهام الاجتماعية والسياسية ضد الامم الاجنبية وكلاهما مبني على الحقد وحب المصلحة . سيضمحلان لا محالة متى ارادت شعوب الغرب الاتفاق مع شعوب آسيا وافريقيا لان النفرة والكبرياء هما ثمرة الجهل والرعونة ومن لا يحب الا نفسه يحتقر غيره طبعا اما لانه لا يعرف قيمته او لانه لا يقدرها بما تستحق ومن الصعب اتفاق الانسان مع عدوه

نعم ان حب البقاء يقرب احيانا بين الافراد المتباغضة ولكن هذا الاتفاق الذي يعبرون عنه سخرية بالودي لا يكون متينا ابدا ودوامه مقرون في الغالب بدوام الخطر الذي او جده ليس الا

على ان المحالفات الملائمة لنظام الحكم الفردي والتي ترمي الى اثارة الحروب وكذا المعاهدات المبنية على قواعد اللصوصية القديمة ستتلاشى بلاريب لان العصر الذي ابتناها انقضى وعجلت بزواله الحرب الاخيرة وعليه فليذهب بما كان معه من سيئات

ان العقل البشري الذي تألم كثيرا وتطور كثيرا في هذه الازمنة الاخيرة تخلص ايضاً من تأثير بعض الاعتقادات الباطلة والنظريات النقلية التي اخنى عليها الذي اخنى على لبد وادرك ان المسائل العويصة التي تشغله الان لا يمكن ان تفهم او تحل بعقلية وتصورات القرون الوسطى ولذا تحتم على من استقبلوا بالهتاف رقي العلوم التجريبية وعملوا بصدق على تحرير الامم واعادة العلاقات المتبعة بين الاشخاص الا يبقى للدين الذي بث بذور العداء والشقاق في الاقوام نفوذ راجح على امور العالم السياسية

ومن هنا تأكد أن يكون للانسانية التي تتوق الى النظام شكل اجتماعي ابعد من الماضي عن الاهواء والاغراض

ان التحالف يتوقف اليوم على ايجاد قاعدة بينة ثابتة وهو ما لم يعد في مستطاع الدين أو السياسة التي يتسيّر بها التكالب على الانتفاع ضرورة انه لم يبق لهما مجال تأثير اجتماعي فعال فالكنيسة وان توفقت لارضاء السماء الا انها لم تتمكن قط من اصلاح الامور الدنوية بسلام . واما السياسة فان حرب خمس سنوات تلتها اربعة اعوام كثير فيها اللغط بلا ثمرة قد برهنت على قلة صدقها وعجزها عن تسوية المشاكل والمعضلات

واما المجالس والمؤتمرات واللجان على اختلافها التي انعقدت بعد الحرب فانها لم تخض في اي مشروع نافع حقاً للانسانية المتألمة ولا قررت ادنى امر عملي يبعث بعض الرجاء في النفوس بل ان الدول التي تدعي الاهتمام بتطمين الخواطر باوروبا واسيا وتجديدها قد كشفت للملاء الذي لم يعد يكترث بما تمنع عن منظر منافساتها ومطامعها الاشعبية .الموجع فرأ الجميع ان ليس هنالك الا بغض وعداء وقوي استطاع مقاومة الازمة الاقتصادية الحالية يعتمد على الزمان لمحق ضعيف فقد تلك الاسباب وان انتقالهم من عاصمة الى اخرى ومن مؤتمر الى غيره مع ترك الامور تجري مجراها لم يفد البشر البائس قليلا ولا كثيراً

على اني ربما كنت في غنى عن تحبير مائتي صحيفة ونيف لاظهار افلاس سياستهم الادبية لان الخيبة المخجلة التي اصابت كل تلك الاجتماعات اقامت البرهان على خلوها من الفائدة ولكن كتابي هذا كشف الغطاء على كل حال عن ان ما اتصفوا به من سوء النية وفساد الاسلوب لم يكن امراً حديثاً ولذا تحتم علينا بحكم البديهة ان نتخذ دواءه من نفس الداء وان نبحث دونهم عن طريقة للتكافل تكون مبنية على التعقل والضبط والنشاط ضرورة ان الجمع الوسائل لتلافي ما يفرق بيننا هو البحث عن

اسباب الخلاف وهو ما وطدت النية على ادراكه بهذا الكتاب وقد تمكنت بفضله من الوقوف على انهم يجهلون حالة الشوق الحقيقية ويحرفون مبدأ رغائبه الطبيعية لانهم لا ينظرون اليها بعين الرفق والانصاف التي يجب دائما ان تراعي بها تلك المسائل ومن هنا استنتجت ان لا وجه لتحضير اتفاق عملي ثابت بين الامم وانقاذها من الهوة الاقتصادية التي تتخبط على شاقتيها من يوم انتهاء الحرب الا بسلوك منهج اقوم من السابق

ذلك لان اصناف الفكر التي تحرك قادة الشرق والغرب على السواء من شانها ان توسع شقة الخلاف بيننا وتقضي علينا بالاصطدام ولذا وجب علينا ان نبذل ما في وسعنا لنتعارف فعلا ولنعلم ما يجدر بنا معرفته من احوالنا حتى لا نقدم على شيء الا عن خبرة ودراية وانا ارى ان تبادل الافكار لا يقل فائدة لبلوغ هذا الغرض عن تبادل المواد الغذائية الغير المغشوشة

ولكن من سيتولى هذا العمل النافع ؟

ان حالة العالم الحاضرة التي انقلبت بسبب الحرب الكبرى وبسبب انهيار النظام الاقتصادي حملت الناس على الاهتمام بشؤونهم الخاصة اكثر من ذي قبل فلم يعد في امكانهم التمييز بين الحسن والقبيح والانقطاع لعمل عديم الفائدة كثير المشقة ولذا اصبح هذا الواجب الكبير ملقى على عواتق الوطنيين الناشطين الصادقين الذين يحبون خدمة اوطانهم دون حقد في قلوبهم علي الاجنبي عنهم ذلك لان الذين يريدون حقا معرفة الاشياء ويعتبرون عواقبها ويتشاورون في الامر قبل الشروع فيه هم الجديرون دون سواهم بالقيام بهذا الواجب الصعب المقرون بالخير العميم والفخر الدائم على ان هذا العمل الشاق يستلزم قوات ادبية ومادية كبرى لا سيما والغرض منه ازالة اسباب الخلاف وفكرة الحرب ومقاومة الارتجاع والفوضى في آن واحد ولذا ارى ان تشكيل جمعية من بين الدول لهذا الغرض

ستوجد من نفسها الرخاء والقوة ان تالفت من النخبة الصالحة العاملة لكل الامم وذلك لان نزع السلاح الذي ينشده الجميع باعلى اصواتهم دون تحديد لمعناه يجب ان يكون اولا ادبياً لانهم ما داموا لم ينبذوا الاحقاد الدينية والقومية ولم يعدلوا عن الغايات الانتفاعية المبنية على العجب فان اقتراح نزع السلاح لا يكون الا واحدة من اثنتين خرافة او احبولة جديدة ومن المعلوم ان الفكر العام لا يرتاح الا اذا اقتنع بصدق ما يطلبونه منه وثبتت عنده صحته بالحجة والبرهان اذ السلم الحقيقي لا يتم الا بتجديد الافكار والاخلاق وهذه فكرة رسخت في ذهني رسوخاً حتى اكثرت من تكرارها على ان العلماء اولئك المصلحين الحقيقيين في نظري يسعون هم ايضاً في تسوية هذا المشكل الخطير ولكن الحكومات لم تصنع شيئاً لمساعدتهم على تحقيق تلك الغاية الشريفة ولم تتخذ ادنى تدبير لازالة ذكرى الحقد الديني والتخلص من الاوهام الجنسية القديمة ينابيع الخصام والحروب .

انهم يتحاورون ايضاً في وجوب اصلاح الاراضي المخربة ولكن هل فكروا في الاصلاح الادبي ؟ وهل هم يظنون ان الاهتزاز العقلي الناشي عن الحرب اضر بالناس اقل مما تضرروا به من تخريب البلدان والقرى ؟ ومع ذلك فانهم لم يتخذوا شيئاً لتدارك الامر بل ان الظواهر تحمل على الاعتقاد بانهم ينشطون الاخلاق الردية بدل مقاومتها لان اتخاذ غلو اثمان مواد المعاش ذريعة لاكتساب الارباح الطائلة والمطامع التي ظهرت بعد الحرب وتساهل الحكومات في حقها ارضاء للاغلبية ليست من الامور التي تعين على رقي اخلاق السواد خصوصا وهم يعاملون من خانوا الامانة وحتى المجرمين بشفقة ياباها الحق والانصاف. ان الحرب انتزعت ما كان للامم من الثقة بعضها ببعض ولا سبيل للتعاون الدولي ما دامت تلك الثقة منعدمة خصوصا وان تجارب القرون الماضية اضطرت الشرق للاحتراز والتحذر من الغرب

لاغرو ان مدنية العصر الحاضر المادية الباهرة غرت الناس بلا شك بزخرفها وبهائها حتى اعتقد الكثيرون ان العدل والاخلاق التي هي غاية المدنية القصوى يسيران جنباً لجنب مع الرقي الصناعي وكنا جميعاً نؤمل ان هذه الحرب ستسفر على الاقل عن زوال صولة الاقوياء الغشومة وان العدل سيحل محل الضغط والانتقام وان كل امة ستجتنب الاعتداء على تراب الامم الاخرى طبقاً للعهد الوقتي بل المهادنة المقررة بمؤتمر جنوه ولذا فالعار على من اعان اليونان بالرغم من هذا العهد على الاعتداء على الاناضول !

ولكن ما الحيلة وسوق الغدر والخداع رائجة والاعمال مخالفة للاقوال وكلمة الحقوقي الالماني اهرانك بان سلطان الغالب هو المحدد للحق هي القاعدة لسياسة اوروبا السرية المثيرة للخواطر ؟ واي خير يرجى ما دام الاقوى والاغنى والامكر مرجحاً على غيره وما دامت الامم تعامل بتلك الغضاضة يتبادلونها كالانعام ؟

ان كل دولة تحاول اليوم الظفر بغاياتها ومصالحها الخاصة على حساب الاخرى دون ادنى تضحية في هذا السبيل ومن المسلم ان الدولة التي لا تضحي شيئاً لصالح وهناء الجميع لا تستحق احترام الانسانية ومن العبث ان يطمئن الشرق لدولة كذلك على ان سياسة الغرب الحالية لا تبعث الثقة لاحد ولم يعد من يثق لها والحال ان الثقة المتبادلة لازمة لتطمين القلوب المجروحة المحتارة وعليها وقف الاعتدال والرصانة

ومن الاسف ان وقائع العصور الغابرة المؤلمة التي احببنا ان نضرب عنها صفحاً خدمة للمصالحة العامة اخذت تتجدد وان اضطرني الواجب الى البحث عن تسلسلها التاريخي وعن تنبيه مواطني اليها غير اني ارى ان نبذ الغرور افضل من العيش على طمانينة كاذبة لان تصالح الامم بطريقة سلمية لا يقوم على الضلال ولذا فلنترك تلك الاوهام والنظريات العقلية المبهمة ولننظر للحقيقة كما هي

فالسلم اذا كانت اوروبا تريده عن حسن نية يجب ان يرتكز على احترام حقوق الامم الشرقية باعتبارها متساوية معها وكذا على احترام كرامتها وقيمتها القومية كما ينبغي فيما يخص العالم الاسلامي ان يعترفوا بان الاسلام قطع مرحلة فسيحة في سبيل العلم والاداب وانه بلغ برقيه بالنسبة لعهد الوثنية منزلة سامية جداً زيادة على كونه اوجد في القرن الثامن وسطاً اجتماعياً مثمرا وصالحاً لرقي العقول وظهور رجال مقتدرين اتسعت بفضلهم منطقة المعلومات البشرية اتساعاً كبيراً واستفاد الغرب من اعمالهم مثلما استفاد المسلمون من المدنيات اليونانية والفارسية والهندية على انه من الضروري ايضاً التسليم بان المدنية ترتكز على جملة حقائق تكونت من المكتسبات العقلية التي تعاقب البشر على توفيرها وتنميتها وتوارثتها الامم الى ايامنا جيلا بعد جيل ولا يخفى ان نصيب العلماء والفنيين من المسلمين فيها عظيم اذ كانوا مدة قرون ناشرين الحقيقة على وجه المعمور

ان الانسانية عبارة عن مجموع متصل من المخلوقات غايتها الوحيدة التكامل طبق قاعدة اوغوست كونت وهي اذا اعترفت بجميل كبار الرجال الذين خدموها لا تراعي في ذلك الجنس او الدين ولذا فلنحفظ في قلوبنا مكاناً لاولئك الذين كانوا قدوة لغيرهم بما امتازوا به من فضيلة وكمال ومهدوا لنا سبلا جديدة لدرس الطبيعة ولنميز بينهم وبين الذين سدوا في وجوهنا طريق المستقبل فان هذا التذكار المشترك سيوجد روابط ودية مشتركة ايضاً ومقامة على تقديس الانسانية وتلك المحبة هي التي يتولد عنها التعاون ثم السلام

واما انكار المجهودات التي بذلتها امة من الامم والتغافل عنها لان تلك الامة عربية او هندية فهو دليل قاطع على الانحطاط العقلي والادبي معاً لان كبرياء الامة وشموخها يجب على الاقل ان يرتكزا على امور حقيقية تثبت امام انتقادات وحملات المستقبل اذ كيف يمكن ان تفتخر باختراع البارود اذا سبقك جارك

لاستعماله ؟ وعليه فرمي الامة التي اثبتت في بحر سبعة قرون لما كانت حرة في استخدام مواهبها العقلية تفوقها على الغربيين في جميع فروع المعلومات البشرية بالبربرية والقصور يعد انكارا للحقيقة وتجريا على كرامتها ومنازعة لها في ميراثها الشرعي الصحيح وهي سبة ليس من شانها تسهيل ربط العلائق بين الغرب والشرق اذ احتقار الاول للثاني لا يدل الا على عجبه وجهله لاعلى بربرية الاخر وتوحشه وربما دل ايضا على حدة تعصبه الديني

ان انتقاداتي بخصوص الدين تتوجه الى المتعصبين المقاومين البغاة لا الى المعتقدين الصادقين المقتصرين على اقامة شعائر دينهم بهدو في اواسطهم الخاصة بهم اذ ليس من شاني الدعوة الى الغلو بل انا اريد ان يكون الدين المنفصل عن السياسة حرا طليقا لان البؤساء ـ وهم كثير ـ لا زالوا يجدون فيه سلوة ورجاء وهو الباعث في الغالب على الفضيلة المكمل لنقص القوانين الاجتماعية ولذا فليترك الدين بسلام فانه ادى في الماضي وما زال يؤدي خدمات قيمة فقد هون على البشر بعض المصائب وخفف عنهم بعض المحن بتسلية من حرمهم الطالع او الطبيعة السعادة والهناء على ان السلم الذي اطلبه للدين لا يكون سلما سلبيا بل انا احب الاجماع على تقدير الاصلاحات الهامة التي حققها مؤسسو الاديان من الوجهتين المادية والادبية حق قدرها والاعتراف لهم بهذا الصنيع خصوصا وان تقدير الخدمات الوقتية التي اداها الاسلام او المسيحية للهيئات الاجتماعية لا يمنع احدا من حرية التفكير

اني الفت كتابي هذا لمقاومة الاحقاد والافتراءات التي لم يبثها الدين دائما وانما التي ابتكرها واذاعها اولئك الذين يستثمرون ضعف وبؤس بني الانسان وهذا تاريخ القرون الوسطى شاهد على ان التغالي في كراهية معتقدات الغير وحرية الفكر والقول كان السبب الاصلي للمصائب والكوارث التي حلت بتلك العصور ولذا

فان كرامة الانسان وراحته تحتمان علينا اليوم ان نضع حدا لتلك المشاحنات والمكاره المزعجة التي ملأت العالم مدى قرون دموعا وخرابا كما ان واجب البشر يقضي عليهم بالتعاون والتوازر لا بالتقاتل واحتقار بعضهم بعضا

واني مقتنع بان المسايل العالمية ستنفصل كيفما كان الحال بقوة الحوادث التي لا ترد غير ان تحقيق تجدد الامم والدول لا يتم بدون ثورة وسفك دماء الا اذا حكمنا العقل في فصل القضايا وتوخينا في ذلك قاعدة التدرج من الاصل الى النتيجة دون تغافل عن ان الجمهور لم يزل لحد الان منقادا لاحساساته اكثر منه لعقله

ولذا فلنعمل اولا لتنسيق الآراء والقواعد الثابتة التي تعز علينا حتى ترسخ في العقول كشعور عالي بالواجب اذ النظام لا يتم الا بسعي رجال ذوي شكيمة وفضل ويقين

ولنكبر ونؤيد على كل اولئك الذين يخدمون اوطانهم بروح الاخاء ويقاومون الضلالات الناشئة عن الانانية والعقائد الباطلة متعالين عن الخطر والمصلحة الذاتية

ورجائي في الختام من كافة قرائي مهما كانت آراؤهم واحساساتهم ان يمعنوا النظر ولو حينا فيما كتبت وان يعترضوا - ان راوا في الاعتراض فائدة - على تلك السياسة المخيفة المبنية على المصلحة والتهديد التي تسلكها حكومات الغرب في الشرق تلك السياسه المغايرة للعدل والواقع المنافية للراي السليم وطهارة الفؤاد

انتهى

